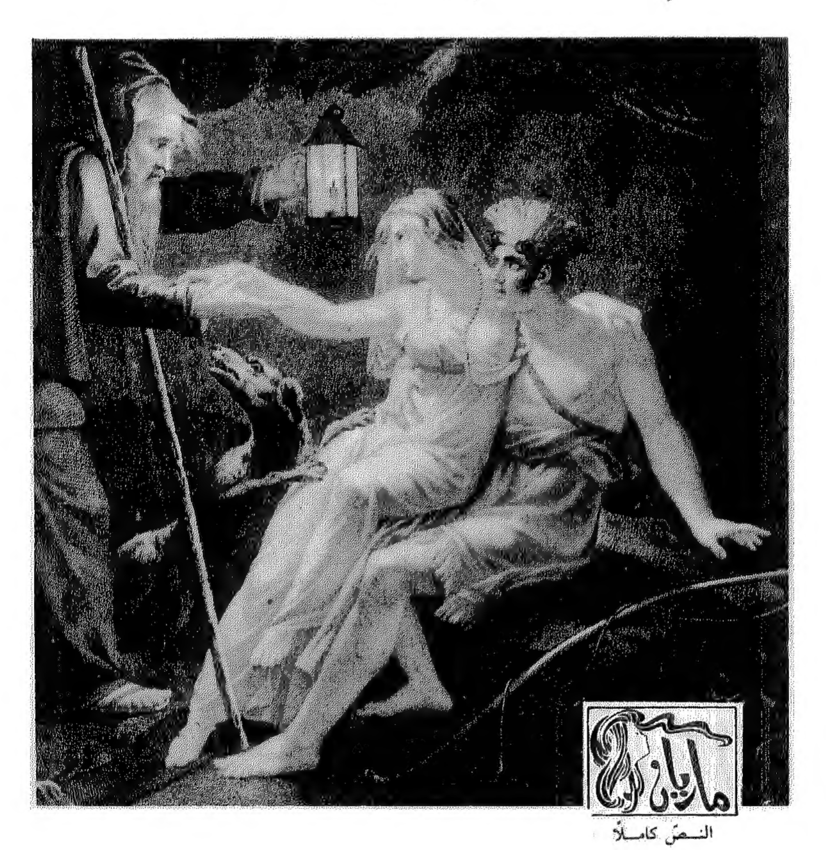
شاتوبريان

اتالا، رنيه
آخر ملوك بني سراج



النص كاملاً



النص كاملاً

مارايا

روائع الأدب والفكر منقولة إلى العربية

شاتوبريان

اتالا ، رنيه
آخر ملوك بني سراج

ترجمة
لطيف آغا

مراجعة
هنري زغيب

عويدات

الطبعة الأولى ١٩٨٨

أتالا ، رنيه
آخر ملوك بني سراج

تقديم
بيار مورو

خمس سنوات تفصل شاتوبريان « أتالا » عن شاتوبريان الذي سيحلم بابن سراج ، وقد يكون عاش صفحات عديدة منه . ومن منظار هذه السنوات الخمس ، الحاسمة ، ومن توافق رسمين الأول لمجهول عمره ثلاث وثلاثون سنة ، والآخر لمسافر مشهور يقترب من الأربعين ، تنبغي قراءة النصوص الثلاثة التالية ، والتي تركب ثلاثتها نشيداً واحداً : المنفى . الوجه الأول من هذين الوجهين ، لا يزال مدموغاً بالتجربة الحديثة العهد عن هذا المنفى . واذا لم يخرج غالباً من مسكنه الريفي ، ويغادر زملاءه البرتونيين وأحلام حبه في قارات اخرى ، وصداقاته في الجيش ، فإن فارس كومبور لم يكن لديه إلا الوقت للتعرف على باريس نهاية القرن ونهاية العهد . شاهد فيها هيمنة الأذواق التي سبقت مرحلة الرومانسية.وخاصة الرغبة في الأشياء المجلوبة. كان صديق بارني وحاذى مجد برنردان ده سان بيار . كانت الثورة تغلي ، لكنه ابتعد عنها ليذهب الى السهول الاميركية الكثيرة العشب ، حيث التقى بأتالا .

ذهب مزوداً برسالة الى واشنطن وبقراءات كثيرة ، ستزداد

عن رحالة ومرسلين . فاليسوعي كزافيه دي شارلفوا وجوناثان كارفر والعالم بالطبيعيات الاميركي بارترام والعالم بـالطبيعيـات الجنيفي بونه واملاي ماكنزي ، جميعهم اعطوه العمق الجغرافي والتاريخي لهدفه ، وعوضوا كل ما كان ينقص تجربته . ومن هنا التفتح الاسطوري . ومن شبه المؤكد انه ذهب لمشاهدة النياغارا الذي سيملأ هديره الساحر خاتمة « اتالا » . ولكن هل نصدق ، بالاستناد الى الكلمات المتسرعة التي ستسقط من قلمه ، انه بلغ الميسيسبي ، والناتشيز والجبال الزرقاء ؟

اذا رجعنا الى النصوص السابقة هذه الأوهام الخـادعة ، « كدراسة الثورات » و « الرحلة من باريس الى القدس » نبقى بجوار كندا وفي منطقة البحيرات الكبرى : « شاهدته تحت شجرات الأريه ، المفضلة من الطبيعة » . ـ « غابات اميركا . . . وصوت الايروكوا» ـ «لو كنت درست بشغف العشائر الاميركية على ضفاف بحيراتها . . . » ويجهد نتابعه الى المجرى الأعلى لنهر الأويو . انه استنتاج مضطرب .

واذا اتالا خرجت من احلام رنيه، فقد ايقظته اتالا وتكوّن خلال تهيئتها . ان شاتوبريان يتحدث عن العالم الجديد الى جيش كونده ، تحت الخيمة ، وفي لندن ، وفي صالونات الهجرة ، وبعد ذلك عند مدام دي بومون وفي المقالات التي كان يرسلها للصحف الفرنسية من المنفى ، وهو يقوم بتلميحات متبجحة الى عشيقاته الهنديات . ويصف نفسه بلحيته الطويلة وشعره المتموج وجلود

الدب التي يحملها .

واذا سُئل عن حياة الهنود تكلم على عاداتهم ومآدب الذرة وقمم نبات حمام المنافع التي تتبل بشكل جيد الاسماك النهرية . وهو يحضر لرفاقه مادب في الطبيعة . وهو كَـأَنَسيّ وكقارىء « الآداب المثقفة » يقارن حسب العرف العادات الهندية مع العادات الهوميرية . وهو يذكر ايضاً نوع هذا المشهد الذي يمكن تغييره بلحظة كما يذكر قوة ألوانه ـ « ساطعة مكتنفة متداخلة ومشبعة بالضوء » . ـ «غنى درجات ألوانها اللامتناهية » ـ « ناريّ على ناري ، اصفر على اصفر ، ! بنفسجي على بنفسجي » . وانه يذكر صوت الغابات المرتفع : «كل ورقة تتكلم لغة مختلفة وكل عشبة تعطي علامة موسيقية خاصة». وان قارىء برناردان ده سان بيار يمكنه ان يتعرف على انسجام الطبيعة .

ثمة ، عبر هذه الصور والأكاذيب الشعرية ، نَفَسُ احساسٍ ملتهب. ان الفارس الشاب « يضع فيه الروح » كما يضعها في كلّ شيء . وهناك نَفَس شبابه ايضاً . كل شبابه يطفر الى شفتيه كلما تحدث عن اميركا . انها فورات الحرية ووجيب القلب الذي لم يعد يضغط عليه شيء . انه شعور بلغ من القوة حداً انتهى معه الى الألم : العالم صغير جداً عليه ، وحتى هذا العالم الذي لا حدود له : « كان بودي ان اقول مثل اليونان : وهناك الأرض المجهولة ، والبحر الشاسع ! » . كل شيء يظهر له حقيراً في اوروبا التي سيرجع اليها . . . والسَفَر في ذاته يدعو الى الحلم :

« لقد وقعت في ذلك النوع من الحلم الذي يعرفه كل المسافرين . حلم المسافر هو نوع من امتلاء القلب وفراغ الرأس مما يجعلك تتمتع بحياتك في راحة تامة .. » وحوله في اشباح جذوع الأشجار ، في المقابر الهندية » ، «السكوت يعقب السكوت » . ومن بين الاستعمالات الأربعه الأولى لكلمة رومنسي Romantique التي كنا نجدها تحت قلم شاتوبريان في دراسته عن الثورات ، هناك اثنان منها تنطبقان على المشاهد الطبيعية وعلى امور شاهدها خلال تلك الرحلة .

إلا انه من المؤكد ان انطباعاته لم تتضح فيه منذ وقت سفره . ان افكاره تتبع خط سير حائر غريب كالخط الذي يرسمه على الخريطة ، وتتكدس بلا نظام وتمتزج مع اوراق مخطوطه الضخم الذي سوف يحمل قسماً منه الى فرنسا .

عام ١٨٠٠ ، وفي عجلة العودة ، ترك منه الرزمات الأكبر حجماً داخل حقيبة عند مضيفيه، ولم يحمل معه بين أمتعته إلا بعض الصفحات التي ستخرج منها اتالا ورنيه وصفحات عن عبقرية المسيحية . ماذا بقي في الحقيبة المنسية التي سيجدها في عهد الاصلاح Restauration اصدقاؤه من تويزي thuisy ؟ بقي ركام ستستخرج منه ثلاثة اعمال : « رحلة الى اميركا » ، وتلك الملحمة عن « الناتشيز » التي حلم بها منذ وقت بعيد والتي تتصل بها شخصيات « اتالا » و « رنيه » و « شاكتاس » ، انها ملحمة رجل الطبيعة حيث القرن الثامن عشر لا يزال ماثلاً وحيث تمتزج

مختلف مواضيع رواية الاغتراب .

احد هذه المواضيع هو قصة المتوحش شاكتاس الذي اصطدم يوماً من الأيام بالحياة المتمدنة فاربكته . وموضوع آخر وهو ملحمة المتمدن رنيه الذي يطمح الى التخلي عن اكاذيب المدنية . ثمة روايات عديدة من القرن الثامن عشر اظهرت شباناً فرنسيين وشباناً انكليز لاجئين عند الألنوا Illinois والأباكيس Abaquis . . . انهم ورنيه من جنس واحد ، جنس خالد ، جنس قلق . وهذه ايضاً قصة الحب اليائس ، وهي حب الأوروبي للهندية وسوء التفاهم المتزايد بين هذين الشخصين الدائمي الغربة واحدهما عن الآخر ؛ الفرنسي وهو ينحني مع شيء من الرعب على سرير ولده المولود لتوه، والأم الشابة وهي تسكب الدموع وتيأس من امكان الشعور يوماً بروح هذا الرجل تذوب في روحها الجاهلة . انها ، سلفاً ، مواضيع بيار لوتي Pierre Loti ولكن للوتي ما قبل الرومانسية . هؤلاء المتوحشون هم اشخاص حالمون : الهنديات المحكوم عليهن بآلام الحب ، وكل هذه الجباه المدموغة بالشقاء الخاضعة للقوة المحتومة التي تنبعث من رنيه كما تنبعث من كل أبطال الرومانسية: «كان الحب والألم هما قدر كل من يقترب منه» . وينسى هؤلاء الناتشازيون خشونتهم الأصلية لكي يتذوقوا لذة التبشير أو البكاء .

ثم عرف شاتوبريان منفى آخر . لقد اعادته الأحداث الى فرنسا في العاشر من كانون الأول ١٧٩١ ولكن فقط لبعض الوقت

من اجل ان يتزوج ويقترض المال . وفي ١٥ تموز ١٧٩٢ ذهب مع شقيقه الى بروكسل .

وفي تريف Trèves التحق بجيش « الأمراء » . وانصرف ، مع هومير Homère الذي لم يكن يفارقه وأتالا الشابة ، الى محاصرة تيونفيل Thionville بصفته ضابطاً ـ جندياً ـ وهناك جرح وفي فردان اصيب بالجدري فدلف منهوك القوى الى اللوكسامبورج ثم الى نامور Namur ثم الى بروكسل ثم الى سوثامبتون Southampton والى لندن . وبعد قصة رنيه والحب الشقي تأتي قصة رنيه في الوحدة .

ومزيداً من البؤس . فقد خيل اليه انه يموت، فراح يبحث عن مورد رزق لما تبقى له من الحياة . وفي السوفلك Suffolk اخذ يعطي دروساً في الفرنسية الى الصبية والى الفتيات الشابات في بكلس Beccles وبونجاي Bungay . وهناك تحدث له احدى تلك المغامرات التي تجعله يتصور ان ثمة قَدَراً مربوطاً بخطاه . ذلك بأن احدى تلميذاته في بونجاي ، وهي الآنسة شارلوت ايف، لها من العمر ١٥ سنة، وهي ذات عينين سوداوين وعنيدتين . يرتب لها السيد كومبورج برنامج دراسة تقرأه وتعيد ثم تملأه بالملاحظات. وذات مساء أرادت السيدة ايف الأم أن تتحادث على انفراد مع الضيف الغريب فحدثته عن شارلوت وعن المشاعر التي تتنبأ بها كل أم ، فصرخ قائلاً : « كفى ، انني متزوج » . قصة حب قصيرة ستكون لها حاشية بعيدة ولكنها

توقفت عند السطر الأول ! ان كل نتاج ادبي روائي لشاتوبريان سوف يكون قصة حب مستحيل .

ويقرر السيد ده كامبور ان يحقق ، قبل ان يموت ، احد طموحاته ككاتب . وهكذا نشر في لندن مؤلفه « دراسة عن الثورات » . ومن أول الكتاب الى اخره ، وخلال حشد اليعقوبيين والأسبارطيين واشعار مذهبة لبتاغور Pythagore وحكايات للسيد نيفارنوا Nivernois فإن سؤالاً واحداً يطرح نفسه : هل ستشاهد باريس من جديد ؟ وللجواب فإن المؤلف يفتش عَبْرَ احداث الماضي السحيق عن ايماءات الى الكارثة الحاضرة . وهو ما يعطي هذا الكتاب معنى مثيراً . إنه تلعثم رجلٍ منفيّ وجهده العديم المهارة من أجل حل رموز لغة مجهولة يتكلمها الآن الناس حوله. إن المؤلف حاضر في كل سطر من كتابه و هو يعترف: «أن كلمة أنا توجد في كل مقطع من الدراسة» «L'Essai». وإنه سيعتذر قائلاً: «إذا كانت كلمة أنا تعود وتعود أحياناً. وذلك لأن هذا الكتاب قد كتب أولاً لِيْ ولي وحدي (. . . .) إن كلمة أنا تُشاهد عند جميع المؤلفين الذين، وقد اضطهدهم الناس، قد أمضوا حياتهم بعيداً عنهم. «إنه هنا بكل كيانه، مع نكهة سنه الحاسمة ومع هاجس أساتذته ـ جان جاك وبرنردان ده سان بيار ـ مع غاباته الأميركية التي تمتزج بذكرياته القديمة. إنه في جو الهجرة التي يدافع عن نفسه ضدها.

وعندما يرجع الى هذه الصفحات عام ١٨٢٦ لكي ينشر

طبعة من كتابه مثقلة بالملاحظات القاسية، فإنه يستنكر جنونه في التدمير. ولكنه سيقر بأن في كتابه الأول بعض اشراقاته الدائمة : اشراقات للمنفى ، وهي لا تمحى . لقد دافع عن « عاثري الحظ » في فصل ترتسم فيه قصته القادمة « رنيه » ، وعاثرو الحظ هم رجال الهجرة المغمورون أو المهملون ، اللهم عندما لا يكونون محكومين بسبب التضحية التي المهم إياها شعورهم بالشرف . وينظر عاثرو الحظ بقلب حزين الى اجمل سنوات عمرهم تمر في الفراغ ضائعة بلا طائل .

وشاتوبريان هو احد هؤلاء اليائسين ، وذلك برغم حب مدام دي بلوي ، de Belloy ، تلك السيدة التي أرادوا أن يشاهدوا فيها نموذجاً غير متوقع حقاً عن المندية أتالا . لقد كان له عمل يؤديه ورسالة يسلمها . وحدثت ثورة في نفسه كان من الصعب عليه ان يشير اليها . وهو لم يتكلم عنها ببراعة مبلبلاً التواريخ ومشوهاً الحقائق . إن كتابه « دراسة عن الثورات » كان عمل انكار . وعلى نسخة سرية فإن المؤلف قد زاد من حدة حججه ومن ازدرائه لكل ما يتعلق بالايمان بالله . لم يكن الدين يبدو له إلا كسلاح في يد المجتمع الانساني و « كإختراع » اخلاقي . ولكنه في الوقت نفسه كان يرى في الدين حاجة لقلب الانسان. ان هذا القلب قد خلق من اجل الأسرار التي يمنحه إياها الله . والمخيلة التي يروقها اللامفهوم تدرك بشغف هذه الأمور الالهية التي لا يمكنها ادراكها . ومثل المتوحشين ، فإن الرجال في كل العهود يفضلون على الحقائق الواضحة هذا العالم المظلم الذي يسحرهم

باحلام غامضة . ان الظلمات والستائر تلف الكنائس باسرار هائلة ويشعر حنون ، كما جاء في كتاب « دراسة عن الثورات » في الفصلين السابع والثلاثين والثامن والثلاثين من القسم الثاني . ويتمرد كتاب « الدراسة » ضد هذه القوة العائدة للأسرار . وكان يقول : يا لها من حجة ! يعلنون لنا ان الكائن الأكبر لا يدركه ذكاؤنا كما يفلت الانسان من ذكاء العشبة ! هل هذا ما يحملنا على ان نتكل على موسى ؟ واذا شئت التوقف عند هذا الحد وان ارفض الايمان بما لا استطيع فهمه ؟ فلندع هذه الاحلام للبرابرة الذين خرجوا من غاباتهم وآمنوا بفضل امجاد عَظَمةٍ مبهمة ، فلندعها لـ « رجل الغابات » الذي بعد ان نجا بالكاد من مشهد الصحارى والكهوف والسيول « يفتش في دين حافل بالأسرار عن عالم من الهمسات والأشباح » . . . ولكنه هو نفسه الذي يتكلم بهذا القَدر من التكبر. ألم يكن بالأمس « رجل الغابات»؟. ان متشرد كومبور وان سائح اميركا يصل لتوه من هذا المشهد من الصحارى والسيول. انه يتظاهر بنبذ المخيلة بينما تسيطر عليه المخيلة .

مهما كانت أسباب تلك الأزمة في العام ١٧٩٩ ، ومهما كان معناها فإن رسالة موجهة الى فونتان Fontanes تمنعنا من وضع صدقها موضع الشك . وعندما جاء في أيار سنة ١٨٠٠ الى فرنسا في العهد القنصلي Consulat، كان شاتوبريان قد ألف قسماً من الكتاب الذي سيسمى « عبقرية المسيحية » حيث اتالا ورنيه يندمجان بشكل غريب .

ولكن قبل ان يحاول القيام بالمغامرة الكبيرة في حياته ككاتب، فإنه يفصل في كتابه القادم وفي الثاني عشر من الشهر السابع من السنة التاسعة للثورة الفرنسية (٢ نيسان ١٨٠١) يفصل الحلقة المتعلقة باتالا . هل كان سبب ذلك الخوف من طبعة سرية ؟! او ، ولكونه غير معروف من الجمهور، كان يشعر بأنه موزع بين نفاد صبره ومخاوفه ، ولما ادرك ان مؤلفه « العبقرية » سيتأخر صدوره وان مؤلفات شبيهة كانت ترتسم ملامحها أو كان يُعْلَن عنها ، اراد ان يخدع تلهفه للمجد ويهيء الجمهور وامتحان احكام النقد سلفاً؟ عامي ١٨٠٠ و١٨٠١ نشرت مجلة « المركور » صفحات من المؤلَّف العتيد. إلا أن المطلوب كان إصدار طبعة مستقلة من «أتالا» مع مقدمة بمثابة بيان.

كان من السهل استخراج هذه الصفحات من كتاب « العبقرية » : ولا حاجة اطلاقاً في سبيل مطالعة « اتالا » ، لمعرفة فصول « انسجامات الدين » Harmonies والتي تشكل « أتالا » القصة التوضيحية لها . « أتالا » تتصل مباشرة بـ « رنيه » كما يتصل الإثنان بتصميم « الناتشز » ، وفضلاً عن ذلك فإن المؤلف سينشر على حده « اتالا » و « رنيه » منذ ١٨٠٥ ، وقد استبعد هاتين القصتين من كتابه « العبقرية » ابتداء من ١٨٢٦ . انهما روايتان عاطفيتان يمكن المرء ان يستغني عن استنتاجاتهما المثقفة. والمعاصرون كانوا قد لاحظوا ذلك ، وبعضهم تظاهر بأنه يرى في « اتالا » رواية لفولتير . ان اتالا ، وهي مسيحية، نذرتها امها للبتولية ، تهرب مع سجين خلصته هو شاكتاس الناتشيه . ولكن

خلال جريها في الغابات الاميركية فإن توبيخ الضمير يحملها على اتخاذ قرار يائس ، فتسمم نفسها أمام أعين مبشر قديم وقد شعرت بالندم والخضوع .

وتتساءل ماري جوزف شينييه Marie Joseph Chénier : الحب في صراعه مع الدين الذي يتغلب على الحب ، الم يكن موضوع « زائير » Zaïre ؟

وفوق ذلك ، فإن هذا الوصف للمتوحشين كان يذكر ، برغم ان المؤلف قد انكر ذلك ، بجان جاك روسو . وفي هذا الدين بلا كنيسة ، البدائي المتخلف حتى في طقوسه يستطيع المرء ان يتعرف على دين الكاهن كما يمكنه أن يتعرف في هؤلاء الهنود الذين تغلبت عليهم العاطفة على حساسية القرن الثامن عشر . ولهذه الحساسية اصداء وظلال مشبوهة ويمكن ان نطبق عليها الكلمات التي وصف بها شاكتاس وجه اتالا : « فيه ما لا ادري من الفضيلة والعاطفة » ، انها تذكر بـ « هلوييز الجديدة » Nouvelle Héloïse وبـ « بول وفيرجيني » Paul et Virginie . واذا كان انف الأب أوبري في الطبعة الأولى له شيء طامح الى الضريح بسبب اتجاهه الطبيعي نحو الأرض « فإن هذه الملامح التي اضحكت بعضهم لم تفاجيء اولئك الذين كانوا يعرفون برنردان Bernardin. وتكفي مقارنة « اتالا » بأدراهي Odérahi « السهرات الاميركية » Veillées américaines (١٧٩٥) والتي يمكن ان تكون « شقيقتها الكبرى » ، يكفي

ذلك لكي يشعر المرء بأن المؤلف يتبع طريقة معينة . ومع ذلك فإن الأب أوبري واتالا ليسا مخلوقين خياليين ، ولا هما من اختراع المرمونتال Marmontel أو شامفور Chamfort أو برنردان : ففي أتالا تغني روح الوحدة، والأب أوبري يقوم بدور في ملحمة المهمات Missions . ومنذ ١٨٠٢ وفي صحيفة « ديبا » Débats كشف القس غيون Guillon عن اصل هذا المبشر وهو الأب جوغ Jogues. وشاتوبريان كان يعترف بطيبة خاطر بما كان يدين به لـ « تاريخ فرنسا الجديدة » Nouvelle France لشارلفوا Charlevoix. ولكنه لا يدين إلا لنفسه بهذا الشعر ذي التلاوين الفاخرة أو الناعمة .

ومن السهل أن ننتقد في هذا الشعر بعض اللطخات ، لطخات الناتشيز بالذات . وعلى سبيل المثال ، هذا « الأسلوب الهندي » الغني جداً بالتلميحات الغريبة . ولكن يا له من جدل تافه ، جدل مورروليه Morellet ! وامام هذه الجملة المفعمة بالضباب : « سريعاً ما سكب القمر في الغابات ذلك السحر الكبير من الكآبة التي يحب ان يخبرها للسنديانات القديمة وللشواطىء السحيقة القدم » وقف مجادلاً : « لا احد قال ان هذه الكآبة هي سر واذا اخبر عنها القمر فكيف يمكن ان تكون سراً ؟ » بهذه النبرة الكئيبة المحبة للخصام استقبلت اواخر القرن الثامن عشر الكتاب الأول للقرن التاسع عشر .

لم يستقبله جميع ممثلي القرن الماضي بفتور . ان لاهارب La

وجيوفري Geoffry قد صفقا « لهوميروس الصحارى » ، Harpe كما ان الجمهور تبناه على الفور. وشاهدنا « اتالا » بين وجوه الشمع التي يصنعها كورتييوس Curtius كما سمعناها على مسرح في «البولفار» وأصبح في وسع كتاب «عبقرية المسيحية» أن يأتي الآن.

بُدىء طبع الكتاب في لندن عام ١٧٩٩ ، بقرب فونتان Fontanes وجوبير Joubert . فإن « عبقرية » ثانية كانت ترتسم ملامحها ولكن المؤلف أوقف طبعها. وفي نيسان ١٨٠١ اتخذ الكتاب اخيراً شكله النهائي ، شكل كتاب شعري عن المسيحية ، وقد صدر في ١٤ نيسان ١٨٠٢ . وفي الوسط وبعد فصل « موجة العواطف » Vague des Passions قدم رنيه ولمصلحة الدين حجة القلب وتعاساته . لقد كان يكافح مرض فرتر Werther ويزعم انه يبرهن بذلك على ان الدين هو العلاج الوحيد له . لقد كان يلخص كل النصائح التي تلقاها فارس كومبور Combourg من امه : « لا تحتقروا الى هذا الحد ، تقول اميلي في « رنيه » René ، خبرة آبائنا وحكمتهم. من الأفضل ان نشبه اكثر بقليل سائر البشر ونحصل على شيء اقل من التعاسة . . . من السهل جداً أن نموت ! . . . . وانه لمن الأصعب ان نعيش » . ان نبرة صلوات امه ، والتي نقلتها اخته مدام ده فارسي Mme de Farcy تدوي في الخلاصة التي يضيفها الأب سويل الى قصة رنيه: « لقد انسحبت من تحمل اعباء المجتمع لكي تستسلم الى

احلام باطلة ... ان الوحدة هي سيئة لمن لا يعيش مع الله » .

هذه الوحدة تظاهر بها فرنسوا رنيـه François - René ده شاتوبريان ، منذ عهد الطفولة . من الممكن ان تكون في طبعه ، مضافة الى حاجة للعمل . ويكفي برهاناً على ذلك ان نقارن بين عبارات رنيـه وعبارات الأشخاص الذين شاهدوا عهد المراهقة ذاك المضمخ بالأحزان المبكرة : « لقد كان مزاجي طائشاً كما كان خلقي غير متعادل . احيـاناً صـاخب ومـرح واحياناً صامت وحزين . كنت اجمع حولي رفاقي الشبان ثم أهجـرهـم فجأة لأجلس على انفراد اتأمـل السحابة العابرة أو أسمع المطر يقع على أوراق الشجر » . هكذا كان رنيـه يصف نفسه . وان « ذكريات من وراء القبر » تعبر عن التشخيص ذاته للجنون الدوري :
«من براعة سعيي الى خلق الآلام لنفسي وضعت نفسي بين يأسين . فبعض الأحيان كنت اعتقدني مخلوقاً لا قيمة له غير قابل للترفع فوق الأمور المبتذلة ، وبعض الأحيان كان يبدو لي اني احسني ذا مزايا لا يمكن تقديرها على الاطلاق » . انها عقدة التفوق تتعاقب مع الانهيارات النفسية للشخص المصاب بالشيزوفرينيا . وضمن اطار هذه الحلقة المفعمة بالتناقض رآها احد اصدقائه من دينان Dinan . إن لوكور ده فيلوتاسيتس Le Court de Villethasetz يتمهل لكي « يهيم على وجهه مفكراً وحيداً على ضفاف نهر الرنس Rance » ولكنه يلعب ايضاً حتى الأعياء « بين الأولاد القذرين والفرحين الذين يطوفون الشوارع » لقد كان لدى مدام ده فوجوا De Vaujuas المولودة بوافافريه de Boisfévrier الكثير ترويه عنه

نقلاً عن ذكريات العائلة .

« كان يتمتع بحماسه فكرية يحاول ان يزيد منها بدلاً من ان يهدئها .كان لا يحلم إلا بالصحارى والوحدة والتأملات ، بالكاد يأذن لنفسه بابتسامة ، ثم يضحك مرات من اعماق قلبه برغم ما كان يعانيه ، وذلك مدفوعاً بطبعه المرح . . . وكان يتركنا معظم الاحيان ويذهب ليحلم فوق الصخور وعلى ضفاف الجداول حيث كان يبدد ولا شك كآبته . ذلك بأنه كان يبدو عند رجوعه مرحاً جداً ولطيفاً بالرغم منه » .

وانه سيكتب عن رنيـه : « انهم لا يزالون يشيرون الى صخرة حيث كان يذهب ليجلس عند مغيب الشمس » . ان وصوله لكومبور الذي كان ، كما تقول « الذكريات » Mémoires بداية « دخوله الى الوحدة » قد اعقبته ايام مماثلة لتلك الأيام العائدة لانتظاره العديم الجدوى في برست Brest : « كان عقلي يمتلىء بأفكار غامضة حول المجتمع حسناته وسيئاته . وانني لا أدري نوع ذلك الحزن الذي كان يسيطر عليّ . . . » ولكن تحت هذه الأفكار الغامضة كانت تخمد النار . وقد استولت عليه دوخة سيرمز اليها مشهد رنيـه على بركان الأتنا Etna ، وهو مشهد المخيلة : « انني اذ ارمي بنظري على العالم (كمـا ذكر في « المذكرات ») كنت اشعر بدوخة شبيهة بالتي يشعر بها المرء عندما يتطلع الى الأرض من اعلى احد الأبراج التي تضيع في السماء » . ثمة شغف لا أسم له ولا موضوع كان يلهب رنيـه الذي « يفتش فقط عن خير غير

معروف تدفعه اليه الغريزة » .

انهضي بسرعة ايتها العواصف المرغوبة . . . والعاصفة جاءت الى رنيه من شقيقته اميلي . وهل كان الأمر كذلك بالنسبة الى شاتوبريان وشقيقته لوسيل ؟ لقد صرح المؤلف لابن اخيه لويس الذي كانت تقلقه تفسيرات عكرة لـ « ذكريات ما وراء القبر » التي كانت قيد التحضير ، صرح بعد زمن بعيد : «بأنه لا يوجد شيء في كتابه من شأنه أن يسيء الى طهارة شقيقته وشقيقة ابن اخيه » . وليس أقل حقيقة من ذلك أن أميلي اكتسبت من لوسيل شقاء الروح والتحمسات المحمومة وتوهجات الجنون . لوسيل ده شاتوبريان ، المولودة اربع سنوات قبل اخيها ، كانت منذ سن المراهقة تحمل آثار الألم . ففي ١٧٩٦ أي عندما كان عمرها قد بلغ الاثنين والثلاثين تزوجت من السيد ده كود Caud الذي كان عمره ٦٩ عاماً وقد اصبحت ارملة بعد سنة من الزواج الذي لم يكن سوى مرارة . وقاست بقرب شانودولا Chênedollé مرارة اخرى وهي مرارة حب مستحيل . ونحو العام ١٨٠٨ فقدت عقلها وربما وضعت حداً نهائياً لخيبتها الطويلة في الحياة عن طريق الانتحار . وبقربها لعب فارس من كومبور الصغير دور المعزي : « غالباً ما رأيتها وقد ألقت ذراعاً على رأسها تحلم وهي جامدة وبلا حراك . ولما التجأت الى قلبها فإن حياتها توقفت عن الظهور في الخارج . . . لقد حاولت عند ذلك ان اعزيها ثم لا ألبث ان استغرق في يأس لا تفسير له » .

على التحليل النفسي ان يبين ما يمكن ان يكون قد بقي من لوسيل في اميلي وما بقي من شقيقها في رنيـه. تاريخ الأداب سيكتفي بالملاحظة أن القرن الثامن عشر، بمحاولة تحرير الطبيعة والباس العواطف طابعاً مقدساً قد رد الاعتبار الى الحب الجنسي ما بين الاشقاء وافراد العائلة الواحدة. وارتكاب المحرمات قد الهم سيباستيان مارسيه Sébastien Mercier والى باكولار دارنو Bacu-lard d'Arnaud ولفولتير Voltaire ولدوسي Ducis صفاً طويلاً من المؤلفات. وشاتوبريان يشير الى ان «رنيـه» قد كان «اسطورة شعرية قديمة من السائحين». ولكن القرن الثامن عشر هو الذي فرض موضوع «رنيـه» على مخيلته. وان القرن الثامن عشر هو الذي جعل ايضاً مجموعات من الرنيه Renés قبل رنيـه تمر امام عينيه. انهم يوجدون في «لانوفال هيلوييز» Nouvelle Héloïse وفي «فرتر» Werther وقد كان يمكن سماع «شاب أولبـان» Olban بطل رامـوند Ramond ينـادي قبـل «رنيـه» العواصف المرغوبة» و «سيباستيان مارسيه Sébastian Mercier يصرخ مثله: «اقبلي ايتها العاصفة واهدري من خـلال هذه الأشجار المعراة».

ولكن من «رنيـه» يبدأ تاريخ مرض العصر. وعندما يأتي شاتوبريان في «ذكرياته» على وقع قصته على الآداب يقول: لو لم يكن «رنيـه» موجوداً لما كنت كتبته ولو كان في استطاعتي ان اتلفه فسأتلفه». «ان عـائلة من رنيـه الشعـراء ورنيه الكتّـاب قد

تكاثرت : لم يعد يسمع سوى جمل محزنة ومفككة ولم يعد يبحث إلا في الرياح والعواصف وفي الكلمات المجهولة عن الغيوم والليل . . . ولا يوجد فنان فاشل ، لم يستسلم في أعماق افكاره لموجة اهوائه » . يا له من تأنيب غشاش للضمير ! فإن اكتشاف ألم جديد ونشره في عصر بكامله ، هو ، للشاعر ، المجد عينه .

وقد اقبل المجد عندما ذهب شاتوبريان بعد اربع سنوات يفتش عن ألم اخر في الشرق . وعلى مخيلتنا ان تتمثل صورة اخرى للشاعر في عهد آخر .

المجد ـ ولكن كذلك الحب . فكم ادخل من البهجة الى قلوب النساء ! ما كادت مدام بومو تنطفىء شعلة حياتها في روما بعد اعتراف مثير حتى حولت دلفين ده كوستين Delphine de Custine الجميلة قصرها في فرفاك Fervacques ومغارتها وغرفتها المزينة بالديمان معبداً لهذا الاله . وكانت لا تزال تظن انه باقٍ على حبها ، بينما هو واقع في غرام ناتالي ده نواي Natalie de Noailles التي ستصبح بعد موت والد زوجها دوقة موشي Mouchy . وقد قدمتها اليها مدام ده فينتي ميلي de Vintimille ابنة عم ناتالي . واذا كان عام ١٨٠٦ قد سافر الى الشرق فذلك على أمل أن يوافيها في غرناطة . وعلى الأقلِ فإن صفحة من « ذكريات ما وراء القبر » والتي خصصت طويلاً لبعض المطلعين ، تقول ذلك

بوضوح : « ولكن هل قلت كل شيء في بيان الرحلة l'Itinéraire؟وهل سأذهب الى قبر السيد المسيح وأنا مهيأ للندم ؟ وكانت فكرة واحدة تملأ روحي ، لقد كنت التهم اللحظات . تحت شراع المتلهف وبينما كانت نظراتي متعلقة بنجمة السماء فقد طلبت منه الريح الشمالية التي تنفخ بصورة أسرع . وكم كان يخفق قلبي وأنا اقترب من شواطىء اسبانيا ! وكم من المصائب قد اعقبت هذا السر ! ان الشمس لا تزال تضيئها . ان عقلي الذي احتفظ به يجعلني اتذكرها » .

هذه السطور الاخيرة تشكل تلميحاً شفافاً للجنون الذي وقعت فيه مدام ده نواي Madame de Noailles زهاء ١٨١٧ والذي يكاد ينسب الى نفسه ذنب التسبب به او . . . الفضل فيه . لقد كان يأمل في ان يجد « المجد لكي يحبه الاخرون » في اسبرطه Sparte وسيون Sion وممفيس Memphis وقرطاجة و« ليحمل المجد الى الحمراء Alhamra » وذات يوم احد من صيف ١٨١٠ اسر الى مدام ده دورا بأن مدام ده نواي هي التي اوحت له بـ « ابن سراج » .

لقد كتبت من ارنجوازAranjuez في ١٨ آيار ١٨٠٧ الى مدام ده فينتيميل Madame de Vintimille رسالة تثبت انها كانت بعيدة عن غرناطة في اللحظة التي كان هو فيها .

ولكن من اللهجة نفسها لهذه الرسالة ذات السخرية الباردة وربما المنافقة يمكن المرء ان يشك بانها قد ارادت ان تجعل من

هذا « اللغز » سراً غامضاً لا ينفذ إليه. الم تكن قد ارخت من ارانجواز رسالة مكتوبة في غرناطة ؟ كان ادريان ده لافال Adtrien de Laval يتباهى بانه محا في بلاط الاسود وعلى رخام النبع اسماء واشعاراً تتعلق بهذه الواقعة الغرامية . وفي المقابل فان هيكتور داغوت Hector d'Agoult كان يدعي بانه قرأ في الحمراء سطرين مكتوبين في تلك الغرفة الجميلة المسماة زينة الملكة La toilette de la Reine وهما موقعين من السائح والقديس الورع . . . واضاف ان دوقة جميلة من بلاط فرنسا كانت تنتظر دون جدوى ثم رجعت الى باريس . واليكم الترجمة : « لقد عبرت البحار لكي اراها ولكنني لم اجدها على الاطلاق أتكون هذه حيلة اخرى تضاف الى هذا التلاعب « باللغز » الذي يمكن ان يكون اوحى الرسالة المؤرخة من ارانجواز ، وبالتناوب تركت هذه الحيلة لتلمع ثم تختفي ثم لكي تجعل صفحة « الذكريات » الكاشفة تستمر وتبقى؟ ».

كانت بلانكا Blanca ، القلقة الحساسة والسريعة التأثر ، تلك الباتسا للحب pazza per amore التي كان مصيرها يستطيع ان يخضع الرجل المتقلب الجميل الذي شغف باويرا باسيالا Paesiello ذات الندم الخادع . وفي ايلول ١٨١٧ كتبت مدام ده دورا الى مدام سواتشين Swetchine : « لقد اطلعتك على رسائل صديقتي المسكينة . . . واعجبت معي بتفوق عقلها وسمو مشاعرها وهذه اللياقة وهذه الكبرياء المجروحة التي منذ زمن

طويل وهي تسمم حياتها لانه لا يوجد وضع أقصى ، في نظري ، من ان يكون ثمن المرء اعلى من تصرفه . لقد كلفتني بان ابرهن على صحة ما تقول وان اقول انها لا تستحق الهجر الذي تركت فيه » . ولكن كانت هناك مغامرات حب عديدة في القلب او في البال .

ومن المناسب ان نضيف ان رحلة ١٨٠٦ / ١٨٠٧ هذه كانت لها غاية اخرى لا يمكن استثناء السياسة منها . والحج في ذاته لا يشغل الا مكاناً قليلاً . لقد كرس أياماً قليلة جداً للارض المقدسة ولكنه كرس اسابيع عديدة للقاهرة وتونس ! وبين زجاجتي التنك اللتين جلبهما معه وجدت زجاجة ملآنة بماء النيل . وخط السير والذكريات يمران بسرعة على الاسكندرية وتونس وقرطاجة ولكنه شعر بانه متفق مع العرب المسنين للشاطىءهؤلاء الذين رآهم وقد التفوا بالبرنس واخذوا يغنون اغنية البحر بصوت خافت . وان ما يفتشون عنه بنظراتهم ولاشك هو مكان يفتش عنه ابن هامت وهذا ما اوقف بو عبديل في هربه الى المكان المسمى « تنهيدة المور» Le soupir du more . ومن المسموح الافتراض انه في مرحلته الاخيرة فان اسبانيا المور قد استوقفته اكثر من اسبانيا المسيحية . ويمكن ان يحزر المرء ذلك من خلال المقال الذي كرسه في « المركور » Mercure بضعة اشهر بعد رجوعه من اسبانيا الكسندر ده لابورد Alexandre de Laborde وهو شقيق مدام ده نواي ، وكان يقول فيه عن حمراء غرناطة : « ان شيئاً مثيراً للمتعة ودينياً وقتالياً

يشكل طابع هذا البناء الفريد »

هذه الجملة من « المركور » وغيرها من الجمل نعود فنجدها في مغامرات «ابن سراج»: أن شيئاً مثيراً للمتعة ودينياً وقتالياً يشعر المرء بتنفسه في هذا الدير من الحب.

هذه القصة اللذيذة والمؤلمة كان شاتوبريان يقرأها لميرافيل Méréville امام مدام ده نواي . وكان يُسمع ايضاًوهو يقرأها في صالونات صديقاته الجميلات . لقد الفها كما قال في الفالي اولو Vallée-aux-loups بين ١٨٠٧ و١٨١٠ ، وكان عليه ان يحتفظ بها مدة طويلة ضمن مخطوطة . وقد حصل ان باعها من صاحب مكتبة ولكنه استرجعها وظهرت اخيراً في ١٨٢٦ في الجزء السادس عشر من المؤلفات Œuvres الكاملة . ولكن لتنويرها بالضوء الحقيقي يجب ان نضعها من جديد في سنوات الامبراطورية Empire عندما كان اسم اسبانيا يعني الحرية ومقاومة الامبراطور وعندما كان اولئك الذين يتوجهون نحو امور اسبانية ـ أدب أو تاريخ ـ يبدون انهم يريدون الاستقلال ، ومنذ الرابع من تموز ١٨٠٧ وفي مقاله حول الرحلة الى لابورد *laborde* فان شاتوبريان كان يمجد اسبانيا في عهد سارتوريوس Sertorius الثائر وهو المواطن الغامض الذي « تجاسر على الصراع ضد قوة ده سيلا De sylla . وفهم الامبراطور فأعلن : « ساقتله بالسيف على درج التويليري Tuileries » لكنه اكتفى بان يبتر « المركور » بالسيف .

ولكن كيف يمكن منع الفكر الفرنسي من التطلع بفضول الى ما وراء البيرينيه Pyrénées ؟ كان للقرن الثامن عشر قصصه الغرناطية . وكان فلوريان Florian قد روى مغامرات كونزالف ده كوردو Gonzalve de Cordoue كان قد اصدر قبل ذلك موجزاً تاريخياً عن المور استغله شاتوبريان . وقد شهد عهد الامبراطورية ترجمات كان يغب شاتوبريان منها . كما شهد ذلك العهد تمثيلية ابطالها من نوع ابن سراج . وتروي مدام كوتن Cottin قصة عاطفية للمور عنوانها «ماتيلد» Mathilde . «ابن سراج» هو احدى تلك القصص العائدة للمور او احدى تلك القصص الغرناطية ذات الاشخاص الكرماء الشجعان الذين يلاطفون النساء . وقد سكب شاتوبريان فيه ذلك الشيء المثير الديني القتالي الذي تنفس رائحته في اسبانيا .

وجعل منه ايضاً نشيد حسرات . ان ابن سراج ابن - هامت والفرنسي لوتراك Lautrec يعبران عن كآبة متساوية في القصائد التي تذكر بلادهما الضائعة :

« يا شقيقتي هل ما زلت تتذكرين . . . »

الا أن شعورهم هو اقوى من تلك الامور التي تضعف القلب : الشرف والوفاء . انه يرفع بين هؤلاء الاشخاص عقبات لا تذلل ، اولاها عقبة الدين التي بين غيرها من العقبات قد فرقت بين شارلوت ايف Charlotte Ives والمنفي سفولك Suffolk . وقد فعل الشيء نفسه بين شاكتاس واتالا . وان اتالا

وابن هامت قاما بالتضحيات نفسها تلبية لقانون نابع من الضمير جعلته محن الثورة اقدس من اي وقت كان .

هاتان الشخصيتان هما اليوم شبحان من الاشباح الشعرية ضاعا في ما وراء الرومانسية في تلك البقعة الغائمة حيث القيثارات الاخيرة من النوع التروبادوري والايقاعات الاخيرة للهنود ترافق الاغنيات العاطفية الاخيرة للزمن الذي يحتفظ عنه المرء « بذكرى جميلة». لكن هاتين الشخصيتين كانتا حيتين . ان عيون عشرين سنة قد بكت مصائبهما وان مترجمين ومترجمات قد جعلوهما يتحدثان بكل اللغات . وفي مفكرته « في الطريق وهو يترك فيفراره Ferrane الدوقة ده باري de Berry - هذه البطلة لاحدى المغامرات التي القى الروائي فيها بضع « لبوات » - دوّن شاتوبريان مع تلك اللذعة من السخرية التي كانت تخفي لذعة من الغطرسة : « نساء يتمتعن كلهن ولا شك بجمال نادر قد أعرن لسان انجاليك Angélique واكيلان الاسود Aquilan *noir* الى اتالا الفلوريدية والى رجل المور ابن - هامت » .

الفلورودية ورجل المور، وكذلك رنيه، يقودون القارىء نحو السبل التي التزمت بها عبقرية شاتوبريان . ف« اتالا » تتجه نحو « الناتشيز » ونحو كتاب « السفر الى اميركا » ، و« ابن سراج » يتجه نحو « الاتينرار » Itinéraire من باريس الى القدس . ومع رنيه تنفتح صفحات المؤلف الذي سيملأ من الان وصاعداً حياة بكاملها ، حياة ترتسم معالمها السنة التالية على شكل قصيدة رجل وقصيدة عهد ، وهي « ذكريات ما وراء القبر » . ان

احسن طريقة لقراءة « رنيه » هي ان يضع المرء بقربه « الذكريات » ثم ينتقل من هذه الى ذاك ومن ذاك الى هذه في تشابك مستمر للمواضيع ، وان يلاحظ التناغمات والالحان التي تجعل من اغنية منفردة جوقة كبيرة حيث الانا توافق كل كوارث العصر . وكانت « دراسة الثورات » قد انبأت قبل ذلك بهذا الجو . وفي الطبعة الاولى لـ« عبقرية المسيحية » هي طبعة لندن ، مقاطع سنرى لها ثماراً في « رنيه » ولكن « الذكريات » هي التي ستحمل هذه المشاعر وهذه الافكار الى قوتها الفائقة . ان الذكريات ورنيه يشكلان معاً بحثاً مشتركاً عن الافاق الضائعة . انهما غير مستقلين عن الفضاء المحيط بهما،مؤلفهما اعتنى بتحديد مكان سرد القصة والاطار الذي فيه الروائي . صحيح ان الاماكن في « رنيه » نادراً ما تحدد : هناك الاتنا Etna ، وهناك اسكتلندا تحت اسم كاليدونيا العريق النبيل ، هناك « ايطاليا القديمة والضاحكة » ، وروما ، واليونان . . . وكلها بلاد لم يشاهدها شاتوبريان « يبدو ان مخيلته كانت ، حينذاك ، في حاجة الى المجهول والتغريب . وانها تغتذي بالشهوة والحدس اكثر مما تغتذي بالذكريات». غير ان ذلك لا يمنع ان نتعرف على بلد شاتوبريان الاصلي ، اي البروتانيه ، من خلال الكلام على بلد رنيه . و« رنيه » ، شأنها شأن « الذكريات » ، تلوح وراءها مشاهد البروتانيه ، ان رنيه وشاتوبريان الذكريات هما من تلاميذ الامواج والرياح والغابات وسيبقيان مسحورين بها . وقد سحرتهما الرياح التي قالا عنها : « عندما يهب الريح فانني لا

احب سواه » . وسحرتها الغابات ، تلك الاثار القديمة لغابة بروساليند Broceliande والتي يجد رنيـه صورتها في غابات اميركا حيث تجره كآبته . وحول الغابة شريط من الخلنج الذي يرجع اصله الى البروتاني Bretagne . ذلك بان وحـدة شاتـوبريـان و «رنيه» تطمح الى خلنج فيلادا Velleda . والخلنج يشكل لهما صحارى اوسيان Ossian . ورنيه الذي فتش عن الخلنج في كاليدونيا لايزال يفتش عنه غب رجوعه الى مقاطعته : ومن الغريب ان ابن - هامت يتعرف على الخلنج في الاندلس .

لكن البحر هو الذي شكل الاطار الحي للطبقة البروتانية ، كما يشكل روحهـا والمخلوق الاكثر واقعيـة في هـذه الارض الشجية . ان البحر لا ذكرى له في نزهات الاخ والشقيقة ولكنه يشكل حاجة لروح أميلي Amélie . فامام البحر يودع رونه يد شقيقته بينما هي تتأمله من شباك حجرتها . ذلك بان شاتوبريان هو ابن البحر الذي يعني له شخصاً يصارعه او يلعب معه ، البحر هو طريق الاستكشاف والهرب والمنفى .

اما منفاه الاول فيرجع الى الزمن الذي وضع فيه في الرضاعة . قال في كتاب « رنيه » : « لقد سلموني باكراً الى ايد غريبة فترعرعت بعيداً عن السقف الابوي » . وفي كتاب « الذكريـات » تحولت هذه الجملة البسيطة الى صورة رومانسية عن النفي الباكر : « وعندما ابتعدت عن صدر امي فقد قاسيت اول منفى : لقد ابعدوني الى بلانكوات Plancöet» . ولكنه هو نفسه يهرب ، ويهرب من نفسه ، فيذهب الى الاماكن المفعمة

بالذكريات والاحلام . واذا وصل رنيه الى كاليدونيا فذلك لأجل ان يجد اوسيان Ossian واشباح اوسيان : « على مرتفعات كاليدونيا فان الشاعر الغنائي الاخير الذي أمكن سماعه في هذه الصحارى قد غنى لي القصائد التي كان احد الابطال يعزي شيخوخته بها في الماضي». ويقول رنيه ايضاً : « كنت افتش في رحلاتي اكثر ما افتش عن الفنانين والرجال الذين ينشدون الآلهة على صوت الربابة». وهذا يعني انه مثل مؤلف « الذكريات » ، كان يفتش عن ايات الجمال وانه كان يريد ان يتنفس في بلد الشعراء .

ان حياة السائح هذه لا يمكن ان تظهر الا لماماً، وعلى سبيل الأستباق ، في الصفحات المتعلقة بشباب رنيه . لكن المرء يكتشف فيها تكوّن ميل او نزعة . ان شاتوبريان او رنيه يشعر انه خلق للسفر بالمعنى الحقيقي او المجازي . وعندما ينظر احدهما الى الطيور القواطع فان غريزة خفية تعذبه . « لقد كنت اشعر اني لم اكن انا نفسي سوى مسافر . . . » وكتاب « من باريس الى القدس » يحدثنا ايضاً عن هذه « الغريزة الخفية » التي كان ولد كومبور Combourg ، وهو مفعم ب« تلك اللذة الحزينة الغامضة » يتتبع بها طيران السنونو في الخريف .

وفي مختلف انحاء العالم كما بين الخلنجات في مسقط رأسه ، سكر من كل ما هو حياة وجمال للمخلوقات والاشياء ، للنباتات والحيوانات . انه ذلك المتشرد الجوال المعطر بربيع البروتانيه . وانه يتجمع لنا من مؤلفاته كتاب كامل عن الاعشاب وآخر عن

تربية الطيور . شاتوبريان والسنونو : هذه قصة فاتنة وكئيبة تبدأ مع رنيـه ثم تستمر في كل مرحلة .

« رنيـه » « والذكـريـات » يمسكـان بـالـطبيعـة في الـوانها واشعتها . انها اشعة داخلية مثل اشعة منزل رنيـه لدى زيارته الاخيرة للبيت الابوي ومثل هذا الضوء الباهت في غرفة كومبور الكبيرة ذات السهرات الطويلة . انها الاشعة القمرية في « رنيـه » وفي « الذكريات » . ان شاتوبريان هو شقيق لوسيل Lucile هذه التي وجهت الى القمر احدى قصائدها الحلوة نثراً .

هذه الاضواء والاشكال يتخيلها الشاعر في اعمال فنية ثم يؤلفها . هكذا ، مثلاً ، في لوحات من « رنيـه » : « وفي الغرب كان نهر الميشاسيبيه يدفع بامواجه بصمت رائع وكان يؤلف حافة اللوحة » ـ « ان العاطفة على الامواج والهدوء في العزلة . هذه اللوحة لاتزال محفورة بعمق في ذاكرتي . » رنيـه يرى صقلية من اعلى الاتنا ايضاً كلوحة مختصرة في رسم منظوري وفي « رؤية عمودية حددها اطار البحر الذي يهدر من بعيد في الفضاء » انها مشاهد رسام .

عبقرية شاتوبريان الطيعة تذهب الى حد تحويل الافكـار رؤية فنيـة . انه يستعمل نتوءاً بـارزاً او تمثالاً للتعبـير عن فكرة . والاصوات تضيف « سحرها » الى ذلك. وهذا عنوان فصل من « الذكريات » . ان اصـواتاً سـرية تـوقظ المخاوف الغامضة من عهد كومبور ، كما في المسكن القديم المهجور حيث يدوي وجود رنيـه في الفراغ . ان كتاب « تناغمات الطبيعة »

لبرنردان ده سان بيار قد اسمع كل موسيقى الخليقة . وموسيقى الاشجار التي هزتها الرياح تؤلف صوتاً جهيراً أي عميقاً وخفيفاً مستمراً يريد من خلاله شاتوبريان ابن البروتانيه ان يتخيل وجود الامواج اللامنظور .

ان الموسيقى هي من الاهمية للكاتب ولبطله معاً بحيث تصبح عنصراً اساسياً يستعملان بصورة عفوية صوراً خيالية للتعبير عن الافكار الاخلاقية وعن الشعور وعن العاطفة الجامحة . « انني اغني المقاطع الاولى للاغنية المأساوية التي لن تسحر سواي ، واسألوا راعي تيرول لماذا يلتذ لسماع ثلاث او أربع علامات موسيقية التي يرددها للماعز . انها علامة موسيقية جميلة تتقاذفها الاضواء لكي تدوي من ضفة سيل الى الضفة المعاكسة » . وان شخصيته تقارن الاحاسيس التي لا يمكن التعبير عنها بالرنين الذي لا يمكن ان يخرج من العزلة التي دوى فيها : « كيف يمكن التعبير عن هذه المجموعة من الاحاسيس الهاربة والتي كنت اشعر بها خلال نزهاتي ! ان الاصوات التي تحدثها الاهواء في فراغ قلب منفرد تشبه الوشوشة التي تحدثها الرياح والمياه في سكون الغابة : ان المرء يتمتع بها ولكنه لا يمكنه ان يصفها »

ويقول رنيه ايضاً : « ان قلبنا هو آلة غير كاملة . انه ربابة ينقصها بعض الاوتار بحيث نضطر الى ان ننقر نقرة الفرح على اللحن المخصص للتنهدات »

وهكذا فان الاحاسيس تتجاوز نطاق الحواس . انها تدخل في حياة الروح والقلب وتعود الى عالم من الاشكال حيث يعيش مؤلف « رنيه » . تصبح المشاهد والامكنة والمواقف حالات للروح . « ان رجلاً شاباً مفعماً بالاهواء جالساً على فوهة بركان ويبكي على البشر الذين بالكاد يلمح مساكنهم قرب رجليه ليس ولا شك ، ايها المسنون ، سوى شيء جدير بشفقتكم . ولكن مهما كان رأيكم في رنيه ، فان هذه اللوحة ستقدم صورة طبعه وحياته : وهكذا طوال حياتي كان امام عيني خلق شاسع لا تدركه الحواس وهوة مفتوحة الى جوانبي » . فهل هذه هي « هوة » باسكال المزعومة ؟ ام هو تركيب مجازي على غرار الاسلوب الشائع ايام الامبراطورية ؟ بل لنز ، في ذلك احد تلك الانعكاسات المتبادلة للعالم الخارجي وللعالم الداخلي التي من خلالها تغيرت مشاهد كثيرة في نهاية القرن الى رموز .

مشهد خارجي ومشهد داخلي : هالة فيرلانية تغمر بالشعر هذه الحقيقة المزدوجة . وان اميلي من اعماق ديرها تسمع هدير الزوابع : « ويقبل عصفور البحر ليضرب بجناحيه على شباكها . تنظر الى نفسها كيمامة صغيرة من السماء اسعدها الحظ بان تجد لها ملجأ ضد العاصفة : وهذا مثل اول ضربة كمان لقصيدة من الحكمة حيث تكون الروح كالنورس الضائع فوق المحيط :

« لا أدري
لماذا روحي المرة

تطير فوق البحر بجناح قلق مجنون »

ان المخلوقات المنظورة هي متصلة بدقة بحس روحاني الى حد انها تصبح نذيراً هاجساً محملاً بالتحذير : هذا الاعتقاد الغامض بالقيمة الرمزية لكل حقيقة ملموسة يفسر ذعر رنيه وقد انحنى على الساقية حيث ينزع اوراق صفصافة معلقاً فكرة على كل ورقة يجرفها التيار . ثمة نوع من السحر في اعماق الرمزية انه مثل الشكل الشعري للشعوذة

والى رمزية المكان هذه ، فان الزمان يضيف اعماقه وظلاله . ان « رنيه » مثل « الذكريات » ، هو كتاب التحسر . هنا وهناك تُلقى نظرة على الماضي تكتشف ربيعاً ضائعاً : « .... الكآبة اللذيذة لذكريات طفولتي الاولى » قال رنيه . وكل ساعة تشكل خطوة على الطريق بلا رجعة .

ان الساعة التي تضرب ضربات موزونة وتسحبه من تفكيره في الكنيسة السوطية تذكره بالزمن وبان « كل ساعة في المجتمع تفتح قبراً » ان رنيه يردد هناك مع لوسيل Lucile كما عرفتنا عليها « الذكريات » : « على الدرج » كانت ساعة تدق الزمن الى السكون « وكلما كانت الابرتان في اتحادهما وفي التقائهما الفظيعين تشيران الى قسمة نصف الليل ، كانت هي الجالسة على الدرج تحت قدم ميناء الساعة تنظر اليه في ضوء مصباحها الموضوع على الارض وتصغي الى الاصوات التي تكشف لها ميتات بعيدة» .

وهكذا تتشابك الذكريات والعناصر الروائية . وعندما يقرأ المرء من جديد « ذكريات ما وراء القبر » يمكنه ان يعيد الى هذه الاغنيات الثلاث المعرضة للانطفاء في تاريخ الاشكال والاجيال ، ماءها الحيوي . ولما كان «رنيه» يحتوي على تخل رباني عن رجل عاش فعلاً فان « اتالا » قد خرجت من رحلاته ومن مغامراته الخيالية كما خرج « ابن سراج » من رحلات أخرى ايضاً ومن قصص حبٍ اخرى .

بيار مورّو

اتَالا



لنق صخور أتالا عام ١٨٦٣، تصوير غوستاف دوريه

تمهيد

كانت فرنسا تملك في ما مضى في اميركا الشمالية امبراطورية واسعة تمتد من اللابرادور حتى الفلوريد ومن شواطىء الاطلسي حتى البحيرات الاكثر بعداً لكندا العليا.

أربعة أنهر تنبع في الجبال نفسها كانت تقسم هذه المناطق الشاسعة: نهر السان لوران Saint-Laurent الذي كان يضيع في الشرق في الخليج الذي يحمل الاسم ذاته، ونهر الغرب الذي يحمل مياهه إلى بحار غير معروفة، ونهر البوربون الذي ينحدر من الوسط إلى الشمال في خليج الهدسون Hudson، ونهر الميشاسيبيه Meschacebé الذي ينحدر من الشمال إلى الوسط في خليج المكسيك.

النهر الأخير والذي يبلغ طول مجراه اكثر من الف فرسخ، يروي بقعة جميلة يسميها سكان الولايات المتحدة عدن Eden الجديدة والتي ترك لها الفرنسيون اسما جميلاً وهو لويزيان louisiane. ألفُ نهر آخر يرفدها الميشاسيبيه Meschacebe، والميسوري Missouri والالنوا Illinois والأوهايو ohio والوبشة Wabache والتنسي Tenase، تخصبه بطميها وتموِنها

بمياهها، وعندما تتضخم جميع هذه الانهر من طوفان الشتاء. وعندما تقطع العواصف رقعاً كاملة من الغابات، فان الاشجار المقتلعة تتجمع على الينابيع. وسريعاً ما يلصقها الوحل وتجعلها العارشات تتشابك، وتطلع نباتات تنبت جذورها من كل مكان وتنهي عملية تماسك هذا الحطام. وتنقل الامواج التي يعلوها الـزبـد هـذه الأشجـار التي تتنـزل الى الميشاسيبيه Meschacebé. ويستولي النهر على الاشجار ويدفعها الى الخليـج المكسيكي ويجعلها تجنح على ارصفة من الرمل وتزيد بذلك من عدد مصباته. ومن وقت الى آخر يرفع النهر صوته وهو يمر تحت المرتفعات وينشر مياهه الفائضة حول اعمدة الغابات واهرامات القبور الهندية، انه نيل الصحارى. ولكن الاناقة تجتمع دائماً مع الروعة في مشاهد الطبيعة: فبينما يجرف التيار في الوسط نحو البحر جثث اشجار الصنوبر والسنديان، تشـاهد عـلى التيارين الجانبين جـزر عائمـة من البسيتا والنينوفر تصعـد على طـول الشواطىء وازهارها الصفراء ترتفع مثـل بيوت صغيـرة. وان افاعي خضراء وعصافير زرقاء من نوع مالك الحزين وتماسيح صغيرة تصعد مسـافرة عـلى هذه الاوعيـة من الزهـور. وتتجه الجالية، وهي تنشر في الهواء اشعتها الذهبية، لتنام في جرن صغير منزو من النهر.

نقدم ضفتا نهر الميشاسيبيه لوحة رائعة. ففي الضفة الغربية على مدى النظر سهول كثيرة العشب تبدر امواجها الخضراء وهي

تبتعد كأنها تصعد الى زرقة السماء حيث تختفي. ويشاهد في هذه المراعي التي لا حدود لها قطيع من ثلاثة او أربعة آلاف جاموس وحشي وهي تهيم على وجهها. واحيانا يشاهد ثور اميركي وقد اثقلته السنون وهو يشق الامواج سباحة لياتي وينام في الاعشاب العالية في جزيرة من نهر الميشاسيبيه. وبجبهته المزينة بقرنين وبذقنه القديمة الغنية بالطمي تحسبه كأنه اله النهر يرمي نظرة راضية على عظمة امواجه وغنى ضفافه المتوحش.

هذا هو المشهد على الضفة الغربية. لكن هذا المشهد يتبدل على الضفة المقابلة ويشكل مع الأول تناقضا جديراً بالاعجاب. ان اشجاراً من جميع الاشكال والالوان والعطور تتشابك وهي معلقة على مجرى المياه ومجمعة على الصخور والجبال ومبعثرة في الاودية، كما ينمو بعضها مع البعض الاخر وترتفع في الهواء مسافات عالية تتعب النظر. ان الكرمة المتوحشة والنبنونيا والحنظل تتشابك على اقدام هذه الاشجار وترتفع فروعها وتعربش على اطراف الاغصان وتندفع من اللقيقب الى شجرة الزنبق ومن الاخيرة الى الألسة مشكلة بذلك ألف مغارة والف عقد قبة والف رواق. وتجتاز هذه العارشات، وقد تاهت من شجرة الى اخرى، اذرعة الانهر لترمي فوقها جسوراً من الزهور. ومن قلب هذه المرتفعات ترفع المغولية مخروطها الجامد وتهيمن على الغابة كلها وقد اعتلتها ورودها البيض. ولا منافس لها سوى شجرة النخيل التي تؤرجح قربها مراوحها الخضراء.

عدد وفير من الحيوانات التي وضعتها يد الخالق في تلك الاماكن المعزولة، ينتشر فيها السحر والحياة. ومن اطراف الشوارع تشاهد دببه وفد اسكرها العنب تتأرجح على غصون الدردار. وهناك ربة كندا، وهي نوع من الحيوانات، تستحم في بحيرة، وسناجيب سوداء تلعب داخل طيات اوراق الشجر، وعصافير همبر وحمام من فرجينيا يبلغ حجمها حجم الجواتيم تنزل على الاراضي المعشبة التي احمرت بالفريز. وهناك ببغاء خضراء رأسها اصفر، والنقار الاخضر وهو نوع من العصافير المحمرة، وكذلك الكردينال الناري تتسلق وهي تدور الى اعالي السرو. وهناك عصافير الكوليبري تتألق على ياسمين الفلوريد، والافاعي التي تقنص العصافير وتصرخ وهي معلقة على قبب الغابات متأرجحة مثل العارشات.

واذا كان السكوت والهدوء يخيمان على السهول المعشبة من الجانب الاخر من النهر فكل شيء هنا، بالعكس، هو حركة ووشوشة: ضربات المنقار على جذوع السنديانات، واحتكاك الحيوانات التي تمشي وهي ترعى او تطحن بين اسنانها نواة الثمر، وهدير الموج، وانين حنين، وعجيج اصم، ونواح ناعم. كل ذلك يملأ هذه الصحارى بانسجام ناعم ومتوحش. ولكن عندما تحرك نسمة هواء هذه العزلة وتهز الاجسام العائمة وتخرج الكتل من الابيض والأزرق السماوي والاخضر والوردي كما تخرج كل الالوان وتتجمع كل الوشوشات، عند ذلك تخرج من

اعماق الغابات ضجة وتحدث امام العينين اشياء من ... احاول وصفها لأولئك الذين لم يجتازوا هذه الحقول الدائبة من الطبيعة.

وبعد اكتشاف الميشاسيبه على يد الاب ماركت Mar-quette والسيء الحظ لاسال la salle فان الفرنسين الأول الذين استقروا في بلوكسي Biloxi وفي اورليان الجديدة Nouvelle-Orléans قد تحالفوا مع الناتشيز Natchez الذين شكلوا امة هندية كانت قوتها مخيفة في تلك المناطق.

وقامت منازعات واحقاد صبغت بالدماء في ما بعد ارض الضيافة. وكان بين هؤلاء المتوحشين رجل مسن يدعى شاكتاس Chactas الذي بسبب سنه وعلمه بامور الحياة كان الشيخ الجليل المحبوب في الصحارى. وكسائر الرجال اشترى الفضيلة بسوء الحظ. ولم تكن غابات العالم الجديدة هي وحدها التي امتلأت نحسه بل نقل هذا النحس الى شواطىء فرنسا.

ولما سجن مع الاشغال الشاقة في مرسيليا بسبب ظلم قاس أفرج عنه في ما بعد ومثل أمام لويس الرابع عشر وتكلم مع اكابر ذلك العهد، كما شهد اعياد فرساي ومسرحيات راسين ورثاء بوسويه Bossuet. وبكلمة فان المتوحش قد تأمل المجتمع في اوج ابهته.

ومنذ سنوات وشاكتاس ينعم بالراحة. بعد عودته الى وطنه.

غير ان السماء قد باعته ايضا هذه النعمة بثمن باهظ، اذ اصيب العجوز بالعمى. وكانت فتاة في مقتبل صباها ترافقه على تلال الميشاسيبيه كما كان انتيغون Antigone تعود خطى اوديب على السيترون او كما كانت مالفينا Malvina تقود اوسيان Ossian على صخور مورفن Morven.

ورغم المظالم العديدة التي عاناها شاكتاس على ايدي الفرنسيين فقد كان يحبهم. كان دائمًا يتذكر فيتلون Fénélon الذي حل شاكتاس ضيفاً عليه، وكان يرغب في تأدية بعض الخدمات، لمواطني هذا الرجل الصالح. ولقد حدثت مناسبة مواتية. ففي العام ١٧٢٥ جاء الى لوزيان فرنسي يدعى رنيه René محمولاً بعواطفه وتعاساته. وصعد مجرى الميشاسيبيه ليصل الى الناتشيز Natchez وطلب ان يقبل كمحارب في صفوف هذه الأمة. ولما استجوبه شاكتاس ووجد انه ثابت في قراره تبناه ابناً له واعطاه زوجة هندية تدعى سالوتا Céluta. ولم يمض بعض الوقت على هذا الزواج حتى بدأ المتوحشون يستعدون لصيد القندس.

عين شاكتاس، برغم كونه اعمى، قائداً للرحلة بسبب الاحترام الذي كانت تكنه له القبائل الهندية، وجاء التعيين بقرار من مجلس الساشام وبدأت الصلوات كما بدأ الصيام وراح المشعوذون يفسرون الاحلام والمانيتو Manitous يقدمون الاستشارات. وقدم القوم تضحيات لتوزيع التبغ كما حرقوا

شباكاً من لسان الاورنيال orignal ودققوا في ما اذا كانت تفرقع في اللهب وذلك لمعرفة ارادة العباقرة Génies ثم مضوا اخيراً بعد اكل الكلب المقدس. كان رنيـه معهم. وصعدت الزوارق نهر الميشاسيبيه ودخلت في مجرى نهر الاويو. انه الخريف، وصحارى كنتاكي الرائعة تنتشر امام عيني الفرنسي الشـاب المدهوشتين. وذات ليلة وفي ضوء القمر، وبينما كان الناتشيز ينامون داخل زوارقهم الجذعية، وبينما كان الاسطول المندي،وقد رفع اشرعته من جلود الحيوانات، يهرب امام نسمة ناعمة، سأل رنيـه، الذي بقي وحده مع شاكتاس، الاخير ان يروي له مغامراته. ورضي العجوز باستجابة طلبه وبدأ بالكلمات الآتية وهو قاعد معه على مؤخر الزورق:

الرواية

الصيادون

«انه قدر غريب هذا الذي يجمعنا، يا ولدي العزيز. أنا ارى فيك الرجل المتمدن الذي عمل متوحشاً وأنت ترى في الرجل المتوحش الذي ارادت الروح الكبيرة (وانني اجهل لأي غاية) ان تجعلني متمدناً. واذ دخلنا كلانا في مجرى الحياة من الطرفين المعاكسين فقد جئت لكي تستريح محلي كما جئت لاجلس مكانك: وهكذا اصبح لكل منا وجهة نظر مختلفة الى الاشياء. ومن منا، انت ام انا، قد ربح او خسر اكثر بسبب هذا التغيير في الموقف؟ وهذا ما تعرفه العباقرة Génies الذي يتمتع اقلهم علمًا بحكمة تفوق حكمة كل الرجال مجتمعين.

«عندما يهل قمر الزهور المقبل تكون والدتي قد ولدتني منذ ثلاث وسبعين سنة وذلك على ضفاف نهر الميشاسيبيه . كان الاسبانيون قد استقروا قبل ذلك بوقت قليل في خليج البانسا كولا Pansacola ولكن لم يكن رجل ابيض واحد قد سكن بعد في اللويزيان Louisiane وكان عمري بالكاد سبعة عشر عاماً عندما مشيت مع والدي وهو المحارب اوتاليسي Outalissi ضد

الموسكوجولج Museogulges وهي امة قوية من الفلوريد. لقد التحقنا بحلفائنا الاسبانيـين، وجرى القتـال على احـد فروع الموبيل Maubil ان ارسكوى Areskoui والمانيتو Manitou لم يناصرونا. فانتصر الاعداء وفقد والدي الحياة كما جرحت انا مرتين اثناء الدفاع عنه. أه لـو نزلت الى بلد الأرواح لكنت تفاديت المصائب التي كانت تنتظرني على الارض! لكن الأرواح اصدرت اوامرها خلاف ذلك: لقد جرني الهاربون معهم الى سان اوغستان Saint — Augustin.

«وفي هذه المدينة التي بناها الاسبانيون حديثاً، تعرضت لخطر الخطف من اجل مناجم مكسيكو، عندما رجل عجوز من كاستيلون Castillan يدعى لوبيز Lopez تأثر بشبابي وببساطتي، فقدم لي مأوى وقدمني الى شقيقته التي كان يعيش معها من دون زوجة.

«لقد اشهر لي كلاهما انعم المشاعر. وربياني بكثير من العناية، وجعلاني اتعلم على يد مختلف انواع الاساتذة. ولكن بعدما أمضيت ثلاثين شهراً في سان اوغستان استولى علي اشمئزاز من حياة المدن. كانت صحتي تسوء في سرعة: مرات ابقى بلا حراك طوال ساعات وانا اتأمل قمة الغابات البعيدة، ومرات اجلس على ضفة نهر لاتأمله يجري والحزن يعتصرني. لقد رسمت لنفسي الغابات التي مرت خلالها هذه الموجة وقد كانت روحي كلها متجهه نحو الوحدة.

«ولما لم اعد استطيع مقاومة الرغبة في العودة الى الصحراء تقدمت ذات صباح من لوبيز، وانا البس ثياب الرجل المتوحش، ممسكاً قوسي واسهمي في يد وباليد الاخرى ثيابي الاوروبية، فسلمتها الى حاضني الكريم الذي ركعت عند قدميه ساكباً سيولاً من الدمع. وبخت نفسي وشتمتها واتهمتها بنكران الجميل. ثم قلت له: «ولكنك ترى بنفسك، يا ابتاه، كيف أني اموت ان لم استأنف الحياة الهندية».

«غير ان لوبيز اراد، وقد اصابته الدهشة، ان يحولني عن غايتي. فصور لي المخاطر التي ساتعرض لها بتعريض نفسي للوقوع من جديد في ايدي الموسكوجولج Muscogulges. ولما رأى أني مصمم على تنفيذ قراري، أجهش بالبكاء وخاطبني قائلاً وهو يشدني بين ذراعيه: «اذهب يا ابن الطبيعة، استأنف استقلالك الذي لا يريد لوبيز ان يسلبك اياه. ولو كنت انا اصغر سناً لكنت رافقتك الى الصحراء (حيث لي ايضاً ذكريات حلوة) ولكنت سلمتك الى احضان امك عندما ستصبح في غاباتك فكر قليلاً في ذلك الاسباني العجوز الذي اضافك وتذكر، لكي تحب زملاءه من الرجال، بان اول امتحان مررت به لقلب الانسان جاءت نتيجته بكاملها مشرفة لهذا القلب». وختم لوبيز بصلاة الى اله المسيحيين الذي كنت رفضت اعتناق ديانته. وافترقنا وسط الشهيق والنحيب.

« ولم يمض طويل وقت حتى عوقبت على نكراني للجميل.

فان عدم خبرتي قد جعلتني أتوه في الغابات. وقبض عليّ حزب من المسوسكوجولج والسيمينول Siminoles كما تنبأ لي بذلك لوبيز. وقد اعتبروني من الناتشه Natché بسبب لبسي، ومن خلال الريش الذي كان يزين رأسي. لقد قيدوني ولكن بلطف بسبب صغر سني. واراد سيماغان رئيس المجموعة أن يعرف اسمي فاجبته: «اسمي شاكتاس بن اوتاليسي بن ميسكو Miscou اللذين انتزعا اكثر من مئة شعرة من أبطال الموسكوجولج» .وقال لي سيماغان: «يا شاكتاس بن أوتاليسي بن ميسكو افرح ستحرق في الضيعة الكبيرة. وقد أجبت «هذا حسن» ثم أخذت اغني أغنية الموت.

ورغم اني كنت سجيناً فلم استطع خلال الايام الاولى ان امتنع عن الاعجاب باعدائي. ان الموسكوجولج وخصوصاً حليفة السيمينول Siminoles، يتنفسان الفرح والحب والرضاء. كلاهما رشيق المشية، والاقتراب منه يجعلك تشعر بانه منفتح وصافي القلب. انه يتكلم كثيراً وبطلاقة، ولغته منسجمة وسهلة. وحتى التقدم في العمر لا يستطيع ان يسلب الساشام هذه البساطة المرحة. ومثل العصافير المسنة في الغابات فانهم يمزجون اغانيهم القديمة مع الالحان الجديدة لاجيالهم الشابة الطالعة.

«كانت النساء اللواتي يرافقن الجماعة يظهرن شيئاً من الشفقة على صغر سني، كما يظهرن فضولية محببة. كنَّ يسألنني عن أمي وعن

اول ايام حياتي وكنَّ يردن معرفة ما اذا كان اهلي يعلقون سريري على اغصان القيقب المزهرة واذا كانت النسمات تهز سريري قرب عش العصافير الصغار. ثم اعقب ذلك الف سؤال آخر عن حالتي العاطفية: اذا كنت رأيت ظبية بيضاء في احلامي واذا كانت اشجار الوادي السري قد نصحتني بالحب. وكنت بسذاجة اجيب الأمهات والفتيات وزوجات الرجال. وكنت اقول لهن: «انتن بهاءات النهار وان الليل يحبكن مثل الندى. الرجل يخرج من أرحامكن ليتعلق بصدوركن وبافواهكن. انكن تعرفن كلمات سحرية تهدىء كل الالام. هذا ما قالته لي والدتي التي لن تشاهدني بعد الآن، وقد قالت لي ايضاً ان العذارى هن ازهار سرية نجدها في الامكنه المنفردة».

كانت هذه المدائح تفرح النسوة كثيراً. وكن يغدقن عليّ مختلف صنوف العطايا. يجلبن لي قشطة الجوز وسكر القيقب وجامبون الدببة، وجلود القندس، والصفد لكي اتزين، ويأتين باعشاب الطحلب لفراشي وكن يغنين ويضحكن معي ثم يسكبن الدموع عندما يتذكرن اني سأموت حرقاً.

«وذات ليلة عندما نصب الموسكوجولج خيامهم على حافة غابة كنت جالساً قرب نار الحرب مع الصياد الذي كلف حراستي. وفجأة سمعت وشوشة حفيف على العشب وجاءت امرأة نصف محجبة لتجلس بجانبي والدموع تنهمر من عينيها. وفي ضوء النار كان صليب ذهبي يلمع على صدرها. كانت

جميلة جداً وعلى وجهها ما لا اعرف من مزيج الفضيلة والشهوة. وكانت جاذبيتها لا تقاوم. والى ذلك كانت تتمتع بجمالات أرق ، وينبعث من عينيها احساس مرهف اقصى الرهافة، مقرون بحزن عميق. واما ابتسامتها فسماوية.

«ظننت انها «عذراء الحب الأخير» تلك العذراء التي ترسل إلى سجين الحرب لكي يبتهج بذكراها في قبره. وبهذا الاعتقاد قلت لها وأنا أتمتم وبشيء من الاضطراب لم يكن سببه الخوف من المحرقة: «ايتها العذراء أنك جديرة بالغراميات الاولى ولست جديرة بالغراميات الأخيرة. وأنْ حركات قلبي الذي سيتوقف قريباً عن الخفقان لن تحسن الجواب على حركات قلبك. كيف يمكن المزج بين الموت والحياة؟ أنك ستجعلينني أندم على كوني رأيت النور. فليكن رجل آخر أسعد مني ولتجمع عناقات طويلة بين العارشة والسنديانة».

«عندئذ اجابتني الصبية: «لست عذراء الغراميات الاخيرة. هل أنت مسيحي؟ أجبتها بأني لم أتنكر قط لعباقرة كوخي. وعند هذه الكلمات قامت الهندية بحركة عفوية وقالت لي: انني اشفق عليك لأنك وثني. لقد ولدتني امي مسيحية. اسمي اتالا، ابنة سيماغان ذي الاساور الذهبية ورئيس المحاربين في هذه الفرقة. اننا نذهب الى ابالاشوكلا حيث ستحرق». وما ان تفوهت بهذه الكلمات حتى نهضت اتالا وابتعدت...».

وهنا كان شاكتاس مجبراً على قطع روايته. لقد احتشدت بكثرة في عقله وراحت عيناه المنطفئتان تغرقان خديه الشاحبين

بالدموع؛ مثل نبعين مخبأين في ظلام الارض العميق يكشفان عن ذاتهما بواسطة المياه التي تنساب بين الصخور.

ثم تابع يقول: «يا ولدي، تلاحظ جيداً ان الشاكتاس قليل الحكمة برغم اشتهاره بالحكمة، ولكن للاسف يا ولدي فان الرجال يفقدون بصرهم غير انهم لا يفقدون القدرة على البكاء. انقضت ايام عدة وكانت ابنة ساشام تعود كل ليلة لتتحدث الي. هرب النوم من عيني واستقرت اتالا في قلبي مثل ذكرى فراش آبائي.

«وفي اليوم السابع عشر من السير وفي وقت خروج الذبابة من المياه دخلنا سهل «الاشوا» الكبير Alachua ، المحاط بالمرتفعات التي كانت كأنها تهرب الواحدة بعد الاخرى وهي تصعد نحو السحاب حاملة غابات منضدة من الكوبالم واشجار الحامض والمغلولية والسنديان الاخضر. صرخ القائد بصوت الوصول وضجت الفرقة قرب الهضاب وقد ابعدوني مسافة ما الى حافة احدى تلك الآبار الطبيعية المشهورة في الفلوريد. اوثقوني بجذع شجرة، وقام بحراستي محارب نافد الصبر. وبالكاد امضيت اللحظات في هذا المكان عندما ظهرت اتالا تحت عنبر النبع. «ايها الصياد، قالت لبطل الموسكوجولج، اذا كنت تريد ملاحقة اليحمور فانني ساحرس السجين». عند ذاك قفز المحارب فرحاً لدى سماعه كلام ابنة القائد واندفع من قمة الهضبة الى السهل وهو يحث خطاه.

يا له من تناقض عجيب لقلب الرجل! انا الذي كان يرغب بقول أشياء واسرار للتي كنت أحبها مثل الشمس ها اجد نفسي ممنوعاً عن الكلام ومضطرباً، واعتقد انني افضل بان القى الى تماسيح الينبوع بدلاً من ان اجد نفسي وحيداً مع اتالا. ولم تكن ابنة الصحراء اقل اضطراباً من الاسير. لقد امسكنا بزمام صمت عميق وكأن عباقرة الحب قد اختلست كلماتنا. واخيراً قالت لي اتالا وبعد جهد: «ايها المحارب ان وثاقك سهل الفك، ويمكنك الهرب». لدى سماعي هذه الكلمات استرد لساني الشجاعة واجبت: «وثاقي سهل الفك، آه ايتها الامرأة» . ولم ادر كيف اختتم كلامي. وترددت اتالا لحظة ثم قالت «اهرب» وفكت رباطي من جذع الشجرة. فأمسكت بالحبل وسلمته الى يد الفتاة الغريبة وجعلت اصابعها الجميلة تغلق على سلسلتي. وصحت بها: «خذِها، خذها! فقالت اتالا منفعلة: «انك مجنون ايها الشقي! الا تعرف انك ستحرق؟ بماذ تفكر؟ الا تعرف اني ابنة رجل مخيف من الساشام؟» فأجبتها ودمعي ينهمر: «مر علي زمن كنت فيه محمولاً في جلد من القندسس على اكتاف ام. كان ابي ايضاً يملك كوخاً جميلاً وكانت يحاميره تشرب من مياه الالف جدول. ولكنني اهيم على وجهي الان بلا وطن. وعندما لا يعود لي وجود في هذه الحياة فلن يضع ولا صديق قليلاً من العشب على جسدي ليحميه من الذباب. ان جسم رجل غريب تاعس لا يهم احداً».

حننت هذه الكلمات اتالا وسقطت دموعها في الينبوع.

ومضيت اقول بحيوية: «اه لو كان قلبك يتكلم لقلبي! اليس الصحراء مكاناً حراً؟ اليس للغابات طيات تمكننا ان نختبىء فيها؟ وهل حصول السعادة يقتضي توافر كثير من الاشياء لاولاد الاكواخ؟ ايتها الفتاة الاجمل من اول حلم لزوج! آه يا حبيبتي، تجاسري على مرافقتي» هذه كانت كلماتي. وقد اجابتني اتالا بصوت ناعم: «صديقي العزيز، لقد تعلمت لغة البيض فمن السهل خدع هندية». فصحت قائلاً: «ماذا؟ اتنادينني بيا صديقك وانا العبد المسكين!» فاجابت وقد انحنت عليّ: «ماذا تقول؟ عبد مسكين...» وخاطبتها وقد عادت اليّ حماستي: «ان قبلة منك تجعل هذا العبد يطمئن الى ثقتك به!». ولبت اتالا رجائي.

ومثل الرشا الذي يبدو متدلياً من أزهار العرائش الوردية بعد ان يمسك بها لسانه الدقيق في وعورة الجبل، هكذا بقيت معلقاً الى شفتي حبيبتي.

«وللاسف يا ولدي العزيز فان الالم قريب جداً من اللذة. فمن كان يستطيع ان يعتقد ان اللحظة التي اعطتني اتالا اول ضمان لحبها هي اللحظة نفسها التي دمرت فيها آمالي؟ ايها الشاكتاس العجوز ذو الشعر الابيض كم كان استغرابك عندما تلفظت ابنة ساشام بهذه الكلمات: «ايها السجين الجميل لقد استسلمت بجنون الى رغبتي ولكن اين تقودنا هذه العاطفة الجامحة؟ ان ديني يفرقني عنك الى الابد. اماه! ماذا فعلت؟

وصمتت اتالا فجأة وكتمت سراً رهيباً كاد يهرب من شفتيها. كلماتها اغرقتني في اليأس. فصرخت: «سأكون قاسياً كما انت قاسية لن اهرب سوف تريني داخل النار ستسمعين انين لحمي وسيغمر السرور قلبك. وامسكت اتالا بيدي بين يديها: «ايها الشاب المسكين، الوثني انك حقاً تثير شفقتي! هل تريد اذاً ان ابكي كل قلبي؟ ويا للخسارة اذا لم اتمكن من الفرار معك. لقد كان بطن امك شقيا يا اتالا! لماذ لا ترمين بنفسك الى تماسيح الينبوع!».

«وفي هذه اللحظات، ولدى قرب غياب الشمس، بدأت التماسيح تسمع اصواتها. وقالت لي اتالا: «فلنترك هذا المكان». فجريت ابنة سيماغان الى اسفل المرتفعات التي كانت تشكل خلجاناً من الخضرة وهي تدفع بانوفها في السهل. كل شيء كان هادئاً ورائعاً في الصحراء. اللقلق يصرخ في عشه والغابات تدوي باغنية السماء وصفير الدرات وخوار البيسون وبصهيل الفرس السيمينول.

«كانت نزهتنا شبه صامتة. كنت امشي قرب اتالا وهي تمسك بطرف الحبل الذي اجبرتها على اخذه ثانية. احياناً كنا نذرف الدموع واحياناً نبتسم. نظرة احياناً مرفوعة الى السماء واحياناً متمسكة بالارض واذن صاغية لغناء العصفور واشارة نحو الشمس التي تغيب ويد مشدود عليها بنعومة وصدر تارة هادىء وطوراً يتأرجح، بينما أسماء شاكتاس واتالا يترددان بنعومة

بين الفينة والاخرى. . . آه النزهة الاولى للحب، لابد ان تكون ذكرياتك قوية حتى تستطيعي، بعد كل هذه السنين العاقرة ، ان تحركي قلب شاكتاس العجوز!

«كم يصعب فهم الناس الذين يلهبهم الشغف! لقد تركت لوبيز الكريم وتعرضت لكل المخاطر من اجل الحرية، وفي لحظة بدلت نظرة امرأة اذواقي وقراراتي وافكاري! وبعدما نسيت بلدي وامي وكوخي والموت الفظيع الذي كان ينتظرني، اصبحت غير مبال بكل شيء لا يتعلق باتالا. اما وقد اصبحت بدون قوة لكي ارتفع الى مستوى عقول الرجال فقد وقعت من جديد وفجأة في نوع من الطفولة. لم اعد أستطيع عمل شيء لكي اتخلص من المصائب التي كانت تنتظرني، وصرت في حاجة تقريباً الى من يعتني بنومي وغذائي!

«وهكذا، وبعد جرينا في السهل المعشب، عبثاً ارتمت اتالا عند ركبتي تدعوني مجدداً الى الافتراق عنها. اجبتها اني ساعود وحدي الى المعسكر اذا رفضت ان تعيد ربطي الى جذع شجرتي السابقة. وقد اضطرت الى النزول عند رغبتي وهي تمني النفس باقناعي في وقت لاحق.

«وفي اليوم التالي، اليوم الذي قرر مصير حياتي، توقفنا في واد غير بعيد عن الكوسكوفيلا Cuscowilla عاصمة السيمينول. ان هؤلاء الهنود المتحدين مع الموسكوجولج يشكلون معهم الاتحاد الكونفدرالي المعروف باتحاد الكريكس Creeks. وجاءت فتاة بلد

النخيل تبحث عني في الليل فقادتني الى غابة كبيرة من الصنوبر وجددت توسلاتها لكي اتعهد بالهرب. ومن دون ان اجيبها اخذت يدها في يدي واجبرت هذه الظبية المتعطشة لكي تهيم على وجهها معي في الغابة. كان الليل لذيذاً. كان جني الهواء يهز شعرها الازرق المعطر برائحة الصنوبر ونحن نتنفس رائحة العنبر المنبعثة قليلاً من التماسيح النائمة تحت الانهر. وكان القمر يسطع وسط سماء زرقاء صافية وضوءه اللؤلؤي الرمادي ينحدر على قمة من الغابات اللامتناهية.

«لم يكن يسمع صوت باستثناء ذلك الانسجام البعيد الذي كان يسيطر في اعماق الغابات. وكان يخيل للمرء ان روح الوحدة تتنهد في رحاب الصحراء.

«ومن خلال الاشجار شاهدنا رجلاً فتياً يمسك مشعلاً كانه عفريت الربيع ويجتاز الغابات لكي يبعث النشاط في الطبيعة. كان عاشقاً ذاهباً لمعرفة حظه في كوخ صاحبته.

«فإذا اطفأت العذراء المشعل تكون قد قبلت باماني الشاب. اما اذا تحجبت دون ان تطفىء المشعل فمعنى ذلك انها ترفض زوجاً.

«كان المحارب وهو يندس في الظلال يغني بنصف صوته هذه الكلمات: «سوف اسبق خطى النهار على رؤس الجبال لكي افتش عن يمامتي المنفردة بين سنديانات الغابة.

«علقت على عنقها عقداً من البورسلين. في هذا العقد ثلاث حبات حمراء كدليل على حبي وثلاث بنفسجية كدليل على مخاوفي

وثلاث زرقاء كدليل على آمالي.

«ان ميلا Mila عيني القاتم وشعراً خفيفاً يشبه حقل الـرز، اما فمها فهو صدفة وردية مزينة باللؤلؤ. نهداها يشبهان جديين بلا اي لطخة ولدا في يوم واحد من ام واحدة. «عسى ميلا ان تطفىء المشعل! عسى فمها ان يسكب عليه ظلا شهوانياً سوف أخصبها ! وان امل الـوطن سيتعلق بنهدهـا الخصب الـولـود وسادخن غليوني بسلام فوق سرير ابني!

«اتركوني اسبق خطى النهار على رؤوس الجبال لافتش عن يمامتي المنفردة بين سنديانات الغابة».

«هكذا كان يغني هذا الشاب الذي اثارت نبراته الاضطراب في اعماق نفسي، كما غيرت وجه اتالا. وقد ارتجفت يـدانا المتحدتان الواحدة في اعماق الاخرى. ولكن تحول انتباهنا عن هذا المشهد الى مشهد لم يكن اقل خطورة لنا.

«لقد مررنا قرب قبر ولد كان يعتبر حداً فاصـلاً لامتين. انشىء هذا القبر على حافة الطريق حسب العرف حتى تتمكن الصبايا خلال ذهابهن الى النبع من ان يجتذبن الى صدورهن روح المخلوق البـريء ويرجعنـه الى وطنه. في تلك اللحـظة لاحظنا زوجات حديثات العهد بالزواج وهن راغبات في ملذات الأمومة يحاولن، شفاههن نصف مفتوحة، التقاط روح الطفل الصغير التي كن يعتقدن انها تتوه على الزهور. وجاءت بعد ذلك الأم الحقيقية لكي تضع ربطة من الذرة وزهور الزنبق الابيض على القبر. وقد روت الارض من حليبها ثم جلست على العشب

الاخضر المبتل وخاطبت ولدها بصوت حنون:

«لماذ ابكيك في سريرك الارضي يا مولودي الجديد؟ عندما يكبر العصفور فعليه ان يفتش عن غذائه وهو سيجد في الصحراء كثيراً من الحبوب المرة. على الاقل انت لم تتعرف على البكاء. قلبك لم يتعرض لنَفَس الرجال المفترس. ان البرعم الذي يجف في غلافه يمر مع كل عطوره كما مررت انت يا ولدي مع براءتك. كم هم سعداء اولئك الذين يموتون في مهدهم اذ انهم لم يعرفوا سوى قبلات ام وابتساماتها»! «ارهقتنا هذه الصور من الحب والامومة التي كانت تبدو كأنها تلاحقنا في هذه العزلة الساحرة، وحملت اتالا بين ذراعي في عمق الغابة وقلت لها اشياء افتش عنها اليوم دون جدوى على شفتي. ان هواء الظهيرة يا ولدي العزيز يفقد حرارته عندما يمر على جبال من الثلج. ذكريات الحب في قلب العجوز تشبه نيران النهار وقد عكسها مدار القمر الهادىء عندما تغيب الشمس ويخيم السكوت على اكواخ المتوحشين.

«من كان يستطيع ان ينقذ اتالا؟ من كان يستطيع ان يمنعها من الاستسلام للطبيعة؟ ولا شيء سوى معجزة. وقد حدثت هذه المعجزة! ابنة سيماغان لجأت إلى إله المسيحيين وألقت بنفسها على الارض ونطقت بدعاء ورع موجه لامها وللملكة العذارى. ومن ذلك الوقت يا رنيه ادركت فكرة رائعة وسامية عن هذا الدين الذي وسط الغابات ووسط كل انواع الحرمان في الحياة يمكنه ان

يملأ بالف هبة وهبة سيئي الحظ، هذا الدين الذي بمقاومته القوية لسيل الشهوات يمكنه وحده ان يتغلب عليها، على رغم ان كل شيء يؤازرها، من سر الغابات الى غياب الرجال الى تواطؤ الظلال.

«آه، كم بدت لي المتوحشة البسيطة، اتالا الجاهلة، كم بدت لي سماوية ورائعة الجمال وهي راكعة على ركبتيها امام صنوبرة وقد اعياها الزمن فوقعت كما لو كانت تقع على قدم هيكل تتقدم من ربها بدعاء لعشيق وثني! عيناها الشاخصتان نحو كوكب الليل وخداها اللامعان بدموع الايمان والحب. كانت ذات جمال لا يموت. وقد بدا لي مراراً انها ستطير الى السماوات ومراراً ايضاً اعتقدت اني اشاهد تزول الجان على اشعة القمر واسمع اصواتهم في غصون الاشجار، هذه الجان يرسلها اله المسيحيين الى النساك عندما يرغب في استدعائهم اليه.

«وحزنت لذلك، لأني خشيت ان لا يبقى لاتالا سوى زمن قليل تعيشه على الارض.

«ومن فرط ما بكت وما بدت بائسة كدت اوافق على الرحيل. وهنا دوى صوت الموت في الغابة. اربعة رجال مسلحين يهجمون علي: لقد اكتشف أمرنا واعطى قائد الحرب الامر بملاحقتنا.

«اتالا، التي كانت تشبه ملكة بكبرياء مشيتها. انفت التكلم الى هؤلاء المحاربين. لقد وجهت اليهم نظرة فائقة ثم توجهت الى قرب سيماغان.

«لم تستطع الحصول على شيء. وقد زادوا من عدد حراسي بمقدار الضعف كما زادوا من السلاسل التي تربطني ، وابعدوا عني حبيبتي. ومرت خمس ليال ثم شاهدنا أبالاشوكلا Apalachucla الواقعة على ضفة نهر شاتاوشه Chata-Uche وسرعان ما وضعوا على رأسي أكاليل الزهر ودهنوا وجهي بلون أزرق سماوي وبالزغيفر، وعلقوا لآلىء على أنفي وفي أذني كما وضعوا في يدي شيكلوكوي Chiclokoui. هكذا بعدما زينوني من أجل الفداء دخلت أبالاشوكلا، على أصوات الجموع المترددة. وفجأة ارتفع صوت بوق صدفي، وأمر الميكو أو رئيس الأمة بالتجمع.

«تعرف يا ولدي الآلام التي يفرضها المتوحشون على سجناء الحرب وأن المبشرين المسيحيين وهم يخاطرون بحياتهم وبمحبة لا تكل، قد وصلوا لدى أمم عديدة إلى إحلال الرق محل فظائع المحرقة. لكن الموسكوجولج لم يتبنوا بعد هذه العادة. على أن فئة كبيرة أعلنت تأييدها لهذا التدبير. ومن أجل اتخاذ قرار في هذا الشأن الخطير دعا الميكو الساشام وقادوني إلى مكان المداولات.

وغير بعيد عن أبالاشوكلا كان يرتفع على ربوة منفردة جناح المجلس. ثلاث دوائر من الأعمدة تؤلف الشكل الهندسي لهذا البناء المستدير. الأعمدة مصنوعة من شجر السرو المصقول والمحفور، ويزيد ارتفاعها وسمكها كما يقل عددها كلما اقتربت

من المركز الوسطي المشار إليه بواسطة ركيزة منفردة. ومن قمة هذه الركيزة كانت تنتشر أربطة من قشرة الشجر تمر فوق قمة بقية الأعمدة وتغطي بذلك الجناح على شكل مروحة ذات فتحات للنور.

اجتمع المجلس. خمسون شيخاً يرتدون معاطف القندس اصطفوا على أنواع من المدرجات وهم يقابلون بذلك باب الجناح. جلس القائد الكبير بينهم وهو يمسك غليون السلام النصف ملون من أجل الحرب. وإلى يمين الشيوخ جلست خمسون امرأة مغطاة بثوب من ريش البجع. وأما قادة الحرب فقد أمسكوا بالكؤوس بينما غطى رؤوسهم الريش وصبغت زنودهم وصدورهم بالدم. وجلسوا إلى اليسار.

على قدم العمود الرئيسي في الوسط تشتعل نار المجلس. البهلوان الأول، وهو محاط بالحرس الثمانية للمعبد، وقد اكتسى بالبسة طويلة حاملاً بوماً محشواً بالقش على رأسه، قام يسكب بلسماً من الكوبالم على النار ويقدم بذلك فداء للشمس. هذا الصف المثلث من الرجال والشيوخ والمحاربين والكهنة، وهذه الغيوم من البخور، وهذا الفداء، كل ذلك ساهم في خلع المهابة على المجلس.

«كنت واقفاً مكبلاً بالسلاسل وسط هذا الجمع. وعندما انتهت عملية الفداء أخذ الميكو الكلام وعرض ببساطة القضية التي التأم من أجلها المجلس. ثم رمى بعقد أزرق في الصالة كذ١٠١

على ما قاله.

«عند ذلك نهض رجل من الساشام من قبيلة النسر وقال: «يا أبي الميكو، أيها الساشان، أيتها النساء المسنات، أيها المحاربون من القبائل الأربع للنسر والقندس والأفعى والسلحفاة، يقتضي أن لا نغير شيئاً من عادات أجدادنا، ولنحرق السجين. ويجب أن لا ندع شجاعتنا تلين. أن ما يُقترح عليكم هو عادة يتبعها البيض، ولا يمكن أن تكون إلا ضارة مؤذية. هاتوا عقداً أحمر يحتوي على كلماتي. لقد تكلمت».

ثم رمى بعقد أحمر على المجتمعين.

«فنهضت سيدة مسنة وقالت:

«يا أبي النسر إن لك عقل الثعلب وبطء السلحفاة الحذر. أود أن أصقل معك سلسلة الصداقة وسنزرع معاً شجرة السلام. ولكن فلنغير عادات أجدادنا مما تحتويه من الشؤم. فليكن لنا عبيد يحرسون حقولنا. ويجب أن لا نسمع بعد الآن أصوات السجين الذي يزعج صدر الأمهات. لقد تكلمت».

«عند ذلك أخذ المجلس يهتز ويتوشوش على غرار أمواج البحر التي تتكسر خلال عاصفة وعلى غرار أوراق الشجر المجففة التي تسقط في الخريف بعد أن تقتلعها زوبعة، وكما ينحني قصب نهر الميشاسابيه ثم يرتفع وسط فيضان مفاجىء وكما يحوم قطيع من الأيائل في أعماق الغابة. فتكلم رجال من الساشام ومحاربون وسيدات مسنات. أنهم يتكلمون كلهم في وقت واحد.

المصالح تتصادم والآراء تنقسم والمجلس يقترب من الانفراط، لكن العرف القديم انتهى بالانتصار وحُكم عليَّ بالحرق فوق المحرقة.

«إلا أن مناسبة جاءت وأخرت عقابي. إنها مناسبة عيد الأموات، أو وليمة الأرواح، التي كانت تقترب. وقد كان العرف أن لا يقتل أي سجين خلال الأيام المكرسة لهذا لاحتفال. سلموني إلى حرس قاس وطبعاً فإن رجال الساشام ابعدوا ابنة السيماغان لأني لم أعد أشاهدها على الإطلاق.

«أمم ثلاثمئة فرسخ من جميع الجهات جاءت لتحتفل بوليمة الأرواح Festin des âmes. شيدوا كوخاً طويلاً على موقع منعزل. وفي اليوم المحدد نبش سكان كل كوخ بقايا آبائهم من قبورهم الخاصة وعلقوا الهياكل العظمية بالترتيب حسب العائلة على جدران الصالة المشتركة للأجداد. الرياح (فقد هبت عاصفة) والغابات والشلالات كانت تجأر في الخارج بينما العجائز من الأمم المختلفة يعقدون فيما بينهم معاهدات سلام وتحالف فوق رفات آبائهم.

«أقاموا ألعاباً مأتمية، وسباقاً، ورياضة كرة، ورياضة عظام. وكان ثمة عذراوان تحاول كل منهما أن تنتزع من الأخرى عوداً من الصفصاف، فيتلامس صدرهما وتتطاير يداهما على العود الذي يحملانه فوق رأسيهما. وتتشابك قدماهما الحافيتان الجميلتان

ويتلاقى فمهما وتمتزج أنفاسهما الناعمة. وتنحنيان وتمزجان شعرهما. وتنظران إلى أميهما والاحمرار باد على وجهيهما. الجميع يصفق. ثم يدعو المشعوذ ميشابو Michabou شيطان الماء. إنه يروي قصة حروب القواع البرى الكبير Lièvre ضد ماتشيمانيتو Matchimanitou إله الشر. قال أن الرجل الأول واتاهنسك Atahensic المرأة الأولى انحدرا من السماء لأنهما فقدا البراءة، وقد تخضبت الأرض بالدم الأخوي، وجوسكاكا الملحدة قدمت كقربان تاهوستارون Tahouistsaron العادل، وحل الطوفان بناء على صوت الروح الكبيرة، ونجا ماسو Massou وحده في زورقه المصنوع من قشرة الأشجار وأرسل الغراب لاكتشاف الأرض. وأخبر أيضاً عن أنديا Endoé الجميلة التي سحبتها من بلد الأرواح أغنيات زوجها الشجية.

وبعد هذه الألعاب والأناشيد تهيأوا لأعطاء الأجداد المدفن الخالد.

«على ضفاف نهر شاتا ـ أوشه Chata-Uche كانت شجرة تين برية كرستها شعائر الشعوب. وكانت العذارى قد اعتدن أن يغسلن ثيابهن المصنوعة من القشرة في هذا المكان وأن يعرضنها لهواء الصحراء على فروع الشجرة القديمة. وهناك كان قد حفر قبر كبير. كانوا يذهبون من الصالة المأتمية وهم يغنون نشيد

الموت وكل عائلة تحمل بعض الحطام المقدس، ثم يصلون إلى القبر وينزلون فيه الرفات طبقة فطبقة ويفصلون بعضه عن البعض الآخر بجلود الدببة والكندس، فترتفع قمة القبر وتزرع فيها شجرة الدموع والنوم.

«فلنشفق على الرجال يا ولدي العزيز! هؤلاء الهنود ذوو العادات المؤثرة وهؤلاء النساء اللواتي أظهرن لي اهتماماً ناعماً الى حد كبير، هؤلاء أنفسهم يطلبون الآن عقابي بأصوات مرتفعة. وأن أمماً بكاملها قد أخرت رحيلها لكي تتمتع بمشهد رجل يعاني من آلام مريعة.

«في واد في الشمال على مسافة من القرية الكبيرة كانت ترتفع غابة من شجرة السرو والصنوبر تدعى غابة الدم. وكان يمكن الوصول إليها عن طريق أطلال تلك الصروح التي لا يعرف أصلها والتي هي من صنع شعب لا يعرف الآن. وفي وسط هذه الغابة كانت تمتد حلبة كان يضحى فيها بسجناء الحرب. لقد قادوني إلى هناك بكل فخر. كل شيء يُحضّر من أجل موتي: أنهم يركزون عمود أرسكوي Areskoui، وتهوي أشجار الصنوبر والدردار والسرو تحت ضربات الفأس، وترتفع المحرقة المشاهدون يبنون المدرجات بواسطة الأغصان وجذوع الأشجار. كل واحد كان يخترع عقاباً. واحد يتطوع لكي ينتزع شعر رأسي وآخر لكي يحرق عيني بالفأس الحادة. وبدأت أغني

أنشودة موتي.

«إنني لا أخشى العذاب: إنني شجاع أيها الموسكوجولج، وأنا أتحداكم! احتقركم أكثر من النساء. إن والدي أوتاليسي بـن ميسكو قد شرب في جمجمة أشهر مقاتليكم. لن تنتزعوا تنهداً واحداً من قلبي».

«ثمة محارب استفزته أغنيتي فاخترق ذراعي بسهم. فقلت: «يا أخ إنني أشكرك».

«وبرغم نشاط الجلادين فإن استعدادات العقاب لم تنته قبل غروب الشمس واستشاروا المشعوذ فحظّر ازعاج جان الظلال، وهكـذا تـأخـر مـوتي إلى اليـوم التـالي. ولكن وسط التلهف للاستمتاع بالمشهد ومن أجل أن يكونوا حاضرين عند بـزوغ الفجر، فإن الهنود لم يغادروا غابة الدم. لقد اشعلوا نيراناً كبيرة وباشروا إقامة الولائم والرقصات.

«غير أنهم مددوني على ظهري. وأن حبالاً كانت تذهب من رقبتي ومن رجلي ومن ذراعي لكي تتعلق على أوتدة غرزت في الأرض. كان بعض المحاربين منبطحين على هذه الحبال ولم يكن في وسعي القيام بأية حركة من دون إعلامهم. وتقدم الليل. وتوقفت تدريجياً الأغاني والرقصات ولم تعـد النيران تقـدم إلا أضواء حمراء كان يمكن أمامها مشاهـدة مرور ظلال بعض المتوحشين. كل شيء ينام وكلما ضعف صـوت الرجـال فإن صوت الصحراء يقوى، وتعقب ضجة الأصوات تنهدات الريح

في الغابة.

«كانت الساعة التي استيقظت فيها صبية هندية مذعورة في الليل أنجبت طفلاً، وظنت أنها تسمع صراخ طفلها يطلب الغذاء. كنت أفكر في مصيري وعيناي معلقتان في السماء حيث كان هلال القمر يهيم بين الغيوم. وكانت أتالا تبدو لي كأنها غول من نكران الجميل. لقد تركتني في وقت العقاب أنا الذي كرس نفسه لألسنة اللهب بدلاً من أن أتركها! ومع ذلك كنت أشعر بأني أحبها دائماً وأنني سأموت بفرح من أجلها.

«ثمة في الملذات المتطرفة محرك يوقظنا وكأنه يريد أن ينذرنا بالاستفادة من هذه اللحظة السريعة. وبالعكس في الآلام الكبيرة هناك شيء ثقيل يجعلنا ننام. وأعيننا المتعبة بالدموع تحاول طبيعياً أن تغمض أجفانها. رحمة العناية الإلهية تظهر هكذا نفسها حتى في مصائبنا.

«استسلمت رغماً عني إلى هذا النوم العميق الذي يتذوقه التعساء أحياناً. حلمت أنهم يفكون سلاسلي، وشعرت بذلك العزاء الذي يحس به المرء. بعد إكراه، وأن يدا مساعدة ترخي وتفك عنه القيود.

وأصبح هذا الشعور من القوة بحيث فتحت عيني. وعلى ضوء القمر الذي كان ينساب منه شعاع بين غيمتين شاهدت وجهاً كبيراً أبيض ينحني علي وهو منهمك في فك رباطي

بصمت. وكدت أصرخ عندما امتدت يد عرفتها فوراً، لتغلق فمي. ولم يبق إلا حبل واحد، يبدو من المستحيل قطعه دون لمس محارب كان يغطي ذلك الحبل بكامله وجسده. وضعت أتالا يدها على الحبل واستيقظ المحارب نصف استيقاظ وجلس على مؤخرته. لبثت أتالا بلا حراك تنظر إليه. ظن الهندي أنه يشاهد روح الأنقاض فنام من جديد وهو يغمض عينيه ويبتهل ويتضرع إلى مانيتو Manitou.وقُطع الرباط فنهضت وتبعت التي أطلقت حريتي والتي مدت لي طرف قوس كانت تمسك بطرفه الآخر. ولكن كم من المخاطر تحيط بنا! فأحياناً نقرب من الإصطدام بمتوحشين نيام وأحياناً حارس وتجيب أتالا مغيرة صوتها. هناك أولاد يصرخون وكلاب تنبح. وما كدنا نخرج من المحيط المشؤوم حتى هزت الغابة موجات من العواء. فاستيقظ المعسكر واشتعلت ألف نار ونار وراح متوحشون من كل الجهات يركضون حاملين المشاعل فأسرعنا في جرينا.

«عندما طلع الفجر على الأبالاش Apalaches كنا بعيدين. وكم كانت سعادتي كبيرة عندما وجدت نفسي وحيداً مع أتالا، التي أطلقت سراحي، أتالا التي وهبت نفسها لي إلى الأبد. وقد فقد لساني الكلام فركعت على ركبتي وقلت لابنة سيماغان Simaghan : «أن الرجال يشكلون شيئاً صغيراً ولكن عندما يزورهم الجان والعباقرة يصبحون لا شيء. أنك عبقرية. لقد زرتني ولا يمكنني الكلام أمامك». فمدت أتالا لي يدها وهي تبتسم: «علي أن أتبعك لأنك لا تريد أن تهرب من دوني. وهذه

الليلة أغريت مشعوذاً بالهدايا وأسكرت جلاديك ببخور النار وخاطرت بحياتي من أجلك لأنك أعطيتني حياتك». وأضافت بلهجة أخافتني: نعم أيها الوثني، التضحية ستكون متبادلة».

«سلمتني أتالا الأسلحة التي اهتمت بجلبها معها ثم ضمدت جرحي. ولما مسحته بورقة من البابايا بللته بدموعها. «إنه بلسم، قلت لها، تسكبينه على جرحي». «إنني أخاف من أن يكون سماً» أجابتني. ثم مزقت أحد أغطية صدرها الذي ضغطت عليه أولاً ثم علقت الغطاء بخصلة من شعرها.

«السكر الذي يدوم طويلاً لدى المتوحشين والذي يصيبهم بنوع من المرض منعهم ولا شك من ملاحقتنا خلال الأيام الأولى. وإذا كانوا قد فتشوا عنا في ما بعد فمن الممكن أن يكون قد حصل ذلك من جهة الغروب اقتناعاً منهم بأننا حاولنا أن نذهب إلى نهر الميشاسابه Meschacebé لكننا سلكنا طريقنا نحو النجمة غير المتحركة باقتفاء أثر طحلب جذوع الشجر.

« لم نلبث أن أدركنا أننا لم نربح الكثير باطلاق سراحي . أن الصحراء تنشر الآن أمامنا أماكنها المنعزلة الشاسعة الأطراف . ماذا سيحل بنا ، ولا خبرة لنا بحياة الغابات ، خصوصاً أننا انحرفنا عن طريقنا الصحيح ونحن نمشي على غير هدى ؟ غالباً ما كنت انظر الى اتالا وأتذكر تلك القصة القديمة لاجار Agar التي قرأها لوبيز والتي حدثت في صحراء برسابه Bersabée قبل زمن طويل عندما كان الرجال يعيشون مدة من

الزمن تبلغ ثلاثة أضعاف عمر السنديان .

«صنعت لي أتالا معطفاً من قشرة شجرة الدردار لاني كنت تقريباً عارياً. وطرزت لي حذاء من جلد الفأر وشعر الشيهم. وبدوري كنت أعتني بزينتها. فأحياناً كنت أضع على رأسها إكليلاً من الأزهار ذات اللون الخبازي الأزرق التي كنا نجدها في طريقنا فى مقابر هندية مهجورة، وأحياناً كنت أصنع لها عقوداً من حبات حمراء من الأزاليا ثم ابتسم وأنا أتأمل جمالها الرائع .

«وعندما كنا نلتقي بنهر، كنا نعبره سباحة أو على طوف. وكانت أتالا تسند إحدى يديها على كتفي ونعبر تلك الأمواج المائية المنعزلة كبجعتين مسافرتين.

«وأغلب الأحيان، ووسط الحر الشديد خلال النهار، كنا نفتش عن ملجأ تحت طحلب شجرات الأرز. كل أشجار الفلوريد تقريباً وخاصة الأرز والسندان الأخضر هي مغطاة بالطحلب الأبيض الذي ينحدر من فروعها إلى الأرض. وعندما يشاهد المرء في الليل وعلى ضوء القمر وسط السهل العالي شجرة بلوط منفردة مكسوة بذلك الثوب من الجوخ فإنه يعتقد أنه يشاهد شبحاً يجر وراءه أغطيته الطويلة. والمشهد لا يقل روعة خلال النهار لأن مجموعة من الفراشات والذبابات اللامعة والكولبرى والدرة الخضراء وأبو زريق ذي اللون الأزوري، هذه المجموعة تأتي لتتعلق بهذا الطحلب، مما يحدث عند ذلك أثر نجود من الصوف الأبيض حيث يكون العامل الأوروبي قد

طرز عليها حشرات وعصافير ساطعة.

«في هذه الدور الصغيرة الضاحكة التي هيأتها الروح الكبرى كنا نستريح في الظل. وعندما تنزل الرياح من السماء لكي تهز شجرة الأرز الكبيرة، وعندما يترنح القصر الهوائي المبني على أغصانها ليعوم مع العصافير والسائحين النائمين تحت ملجأ، وعندما تخرج ألف تنهيدة من الدهاليز ومن عقد البناء المتحرك، يخيل إليك أن عجائب العالم القديم لا شيء أمام هذا الصرح الصحراوي.

«كنا كل مساء نشعل ناراً كبيرة ونبني كوخ السفر بواسطة قشرة مرتفعة على أربعة أوتدة. وإذا قتلت دجاجة رومية أو ورشان، وهو نوع من الحمام البري، أو تدرجاً من الغابات، علقناها أمام السنديانة المضاءة على طرف عصا زرعت في الأرض وتركنا للهواء مهمة برم فريسة الصياد. وكنا نأكل نوعاً من الطحلب يدعى تريب Tripes الصخور وقشورا محلاة من السنور وتفاحاً من شهر أيار لها طعم الدراق وتوتة العليق. شجرة الجوز السوداء وشجرة القيقب والسماق كانت تمون طاولتنا بالخمر. وبعض الأحيان كنت أذهب لأفتش بين القصب عن نبتة تحتوي زهرتها المستطيلة مثل بوق على قدح من الندى الصافي. وكنا نشكر العناية الإلهية التي وضعت على ساق زهرة هذا النبع العذب وسط المستنقعات الفاسدة، كما وضعت الأمل في أعماق القلوب التي قرحها الحزن، وجعلت الفضيلة تتدفق من أعماق مصائب الحياة.

«وللأسف سرعان ما اكتشفت أني خدعت بالهدوء الظاهر على أتالا. وكنا كلما تقدمنا تزداد حزناً. وغالباً ما كانت ترتجف بلا سبب وتدير رأسها بسرعة. كنت أفاجئها وهي ترمقني بنظرة عاطفية هائمة كانت تنقلها مني إلى السماء بكآبة عميقة. وكان ما يخيفني هي فكرة مختبئة في أعماق نفسها كنت ألمحها في عينيها. كانت أتالا تجذبني ثم تدفعني عنها فتحيي بذلك آمالي، ثم تدمرها إذ كلما اعتقدت أنني اجتزت مسافة في قلبها كنت أجد نفسي في المكان ذاته. وكم من مرة قالت لي: «يا حبيبي الشاب أحبك مثل ظل الغابة وسط النار! إنك جميل مثل الصحراء بكل زهراتها ونسماتها. وإذا انحنيت عليك ارتجف وإذا وقعت يدي على يدك يبدو لي كأنني سأموت. وذلك اليوم عندما رمى الهواء شعرك على وجهي بينما كنت تسترخي على صدري حسبت أني أشعر باللمسة الخفية للأرواح اللا منظورة. نعم رأيت العناق في جبل أكون Occone وسمعت أحاديث الرجال الذين شبعوا من الأيام، ولكن عذوبة الجداء وحكمة الشيوخ أقل لذة من كلماتك. يا شاكتاس الشقي لن أصبح أبداً زوجتك!».

«إن التناقضات المستمرة لحب أتالا، لم تكن تستطيع أن تسيطر على رجل ولو إلى حد ضعيف: هي المفعمة بالأهواء كانت أيضاً مفعمة بالقوة. كان علينا أن نعبدها أو نبغضها.

«بعد خمس عشرة ليلة من السير السريع دخلنا في سلسلة جبال الليجاني Allégany، كما وصلنا إلى أحد فروع نهر التنسي

– Tenase وهو نهر يصب في الأوهايو Ohio. وبمساعدة نصائح أتالا بنيت زورقاً دهنته بصباغ شجرة الخوخ وذلك بعد خياطة القشرات بواسطة جذور الصنوبر. ثم ركبت الزورق مع أتالا واستسلمنا لمجرى النهر. القرية الهندية ستيكوا Sticöe مع قبورها ذات الشكل الهرمي وأكواخها ذات الأنقاض ظهرت إلى يسارنا على منعطف نتوء، وقد تركنا إلى اليمين وادي كيو Keow الذي ينتهي بمشهد أكواخ جور Jore العالقة بجبهة الجبل الذي يحمل الإسم نفسه. النهر الذي يجرنا كان يجري بين صخور عالية يمكن من طرفها الأعلى مشاهدة الشمس وهي تغيب. هذه الأماكن المنعزلة لم تضطرب على الإطلاق بوجود الإنسان، ولم نشاهد سوى صياد هندي يشبه، وهو متكىء على قوسه المجمد بلا حراك على حد صخرة، يشبه تمثالاً نصب في الجبل تكريماً لجان هذه الصحارى.

أتالا وأنا ضممنا سكوتنا إلى سكوت المشهد. وفجأة أطلقت ابنة المنفى في الهواء صوتاً مفعماً بالعاطفة والكآبة كانت تغني الوطن الغائب قائلة:

«سعداء هم أولئك الذين لم يشاهدوا دخان الأعياد الغريب والذين لم يجلسوا إلا إلى ولائم آبائهم!

«ولو أن عصفور أبو زريق من نهر الميشاسيبيه قال للعصفور الذي لا مثيل له في الفلوريد: لماذا تشكو بحزن؟ أليس لديك هنا مياه وظلال جميلة وكل أنواع المراعي كما هي الحال في

غاباتك؟ ـ فإن جواب العصفور الهارب الذي لا مثيل له سيكون: عشي هو في الياسمين ومن سيجلبه لي؟ وهل عندك شمس سهلي المعشب؟

«سعداء هم أولئك الذين لم يشاهدوا دخان الأعياد الغريب والذين لم يجلسوا إلا إلى ولائم آبائهم!

«بعد ساعات من المشي المتعب يجلس المسافر بحزن يتأمل من حوله سقوف الرجال. ليس للمسافر مكان يريح فيه رأسه. ويدق المسافر على باب الكوخ ويضع قدمه وراء الباب ثم يطلب الضيافة، ولدى إشارة من يد صاحب الكوخ يعود المسافر ليأخذ قومه ثم يرجع إلى الصحراء.

«سعداء هم أولئك الذين لم يشاهدوا دخان الأعياد الغريب والذين لم يجلسوا إلا إلى ولائم أبائهم!

«أيتها القصص الرائعة التي رويت حول الموقد، أيتها المسارات الناعمة، يا عادات الحب العريقة والضرورية جداً للحياة، لقد ملأت أيام أولئك الذين لم يغادروا قط مسقط رأسهم! قبورهم في وطنهم، مع غياب الشمس ودموع أصدقائهم وسحر الدين.

«سعداء هم أولئك الذين لم يشاهدوا دخان الأعياد الغريب والذين لم يجلسوا إلا إلى ولائم أبائهم».

«هكذا كانت تغني أتالا. ولا شيء كان يقاطع أنينها باستثناء

صوت زورقنا الخافت فوق الموج. وفي مكانين أو ثلاثة فقط كان نينها يلاقي صدى خفيفاً يقود بدوره إلى صدى آخر أضعف، وهذا إلى صدى ثالث أكثر ضعفاً أيضاً: كان يخيل للمرء أن أرواح عاشقين كانا سيئي الحظ في الماضي مثلنا قد اجتذبهما هذا اللحن المؤثر، فراحت تتنهّد بأصواتها الأخيرة في الجبل.

ومع ذلك فإن الوحدة، ووجود الحبيب باستمرار، فضلاً عن مصائبنا نفسها، كل ذلك كان يضاعف كل لحظة من حبنا. وبدأت قوى أتالا تتركها، والشهوات التي هدمت قلبها كانت في طريقها إلى التغلب على طهارتها. كانت تتضرع بصورة مستمرة إلى أمها كأنما أتالا تريد تهدئة طيفها الغاضب. وأحياناً كانت تسألني ما إذا كنت أسمع صوتاً نائحاً وأشاهد السنة اللهب تخرج من الأرض. أما بالنسبة إليّ فقد انهكني التعب، إلا أني كنت دائماً اشتعل بالرغبة والشهوة. ولما كنت أفكر أنه يمكن أن أكون قد ضعت إلى غير رجعة وسط هذه الغابات فقد كنت مستعداً ألف مرة لكي أمسك بزوجتي بين ذراعي وألف مرة كنت أعرض عليها بناء كوخ على هذه الشواطىء حيث ندفن معا. ولكنها قاومت دائماً: «فكر يا صديقي الغريب ان المحارب مدين لوطنه. وما هي قيمة المرأة بالنسبة إلى الموجبات التي عليك أن تقوم بها! تشجع يا ابن أوتاليسي ولا توشوش ضد قدرك أبداً. قلب الرجل يشبه اسفنجة النهر التي تارة تشرب ماء عذباً في أوقات الهدوء وطوراً تنتفخ بالماء العكر عندما تعكر

السماء المياه. فهل يحق للاسفنجة أن تقول: كنت أظن لن يكون هناك عواصف أبداً والشمس لن تكون محرقة أبداً؟».

«آه يا رنيه إذا كنت تخشى اضطرابات القلب فحذار الوحدة: إن الشهوات الكبيرة وحيدة، وإن نقلها إلى الصحراء يكون بمثابة تسليمها إلى أمبراطوريتها. لقد أرهقتنا الهموم والمخاوف وتعرضنا للوقوع في أيدي الهنود الأعداء وللغرق في المياه. لذعتنا الأفاعي ونهشتنا الوحوش ونحن لا نجد إلا غذاء ضئيلاً ولا نعرف إلى أي جهة نوجه خطواتنا وقد بدا لنا أن مصائبنا بلغت حداً لا يمكن أن يزاد عليها، عندما جاء حادث وأوصلها إلى أوجها.

«لقد كان اليوم السابع عشر منذ ذهابنا من الأكواخ: شهر تموز بدأ مجراه وكل شيء ينبىء بالعاصفة. ونحو الساعة التي تعلق فيها السيدات المسنات عصا المحراث على أغصان الأشجار، وعندما تنسحب الدرات إلى جوف السرو، تلبدت السماء بالغيوم. وانطفأت أصوات الوحدة وسكتت الصحراء وسيطر على الغابات هدوء عام. وسريعاً ما امتد قصف الرعد في غابات قديمة قدم العالم وخرجت منها أصوات مهيبة. وخوفاً من أن تجرنا المياه استعجلنا للوصول إلى ضفة النهر وانسحبنا إلى غابة.

«وكان هذا المكان أرض مستنقعات فتقدمنا بجهد تحت عقد من الفشاغ بين دوالي الكرمة وأشجار النيلة والفاصوليا

والعارشات الزاحفة التي كانت تعرقل أرجلنا مثل الشباك. كانت الأرض الاسفنجية ترتجف حولنا، كل لحظة كنا على وشك أن تغرقنا المستنقعات. وكانت حشرات لا تحصى ووطاويط كبيرة الحجم تعمي العيون. وكانت الأفاعي ذات الأجراس أو الجلجليات تفح من كل الجهات، فضلاً عن الذئاب والدببة والشرة والنمور الصغيرة التي كانت تأتي لتختبىء في هذه الخلوات وتملؤها بزئيرها.

«اشتد الظلام ودخلت الغيوم الواطئة تحت ظلال الغابات ثم تمزقت الغيمة ورسم البرق معيناً سريعاً من النار. وأخذت ريح عاتية خرجت من الغروب تدفع الغيوم فوق الغيوم وكانت الغابات تنحني وانفتحت السماء بلا انقطاع ومن خلال ثغراتها كانت تشاهد سماوات جديدة وحقول مضطرمة. يا له من مشهد فظيع ورائع! وقد أشعلت الصاعقة الغابات وامتد الحريق كضفائر من اللهب وأخذت أعمدة من الشرارات والدخان تحاصر الغيوم التي كانت تلفظ صواعقها وسط الاحتراق الواسع. عند ذلك غطت الروح الكبرى الجبال بظلمات كثيفة. ومن وسط هذه الفوضى الواسعة النطاق ارتفع هدير غامض من الرياح وانين الاشجار وعويل الحيوانات المفترسة ودوي البرق وسقوط الرعد المتواصل الذي كان يصفر وهو ينطفىء في المياه.

«إن الروح الكبرى تعرف! وفي تلك اللحظة لم أشاهد سوى أتالا ولم أفكر إلا فيها. وتحت جذع شجرة سندر مائل استطعت أن أحميها من سيول المطر. كنت جالساً تحت الشجرة ممسكاً

بحبيبتي على ركبتي وأنا أحمي قدميها العاريتين بين يدي. كنت أسعد من الزوجة الجديدة التي تشعر للمرة الأولى بثمرتها تختلج على صدرها.

«أصغينا إلى صوت العاصفة. وفجأة شعرت بدمعة من أتالا تسقط على صدري: فصرخت «يا عاصفة القلب هل هذه نقطة من مطرك!» ثم قبلت التي أحبها: وقلت لها: «أتالا، إنك تخبئين عني شيئاً. افتحي لي قلبك يا رائعتي! إنه لمريح حقاً أن ينظر صديق إلى روح صديقه! خبريني عن السر الآخر من الألم الذي تتعذبين لاخراسه. آه إنني أرى إنك تبكين وطنك». قالت: «يا ابن الرجال كيف أبكي وطني ووالدي لم يكن من بلد أشجار النخيل!» ماذا، «أجبت بتعجب عميق، أن والدك لم يكن من بلد أشجار النخيل! فمن هو الذي وضعك إذاً على هذه الأرض؟ أجيبي». فنطقت أتالا بهذه الكلمات: «قبل أن تجلب والدتي في زواجها من المحارب سيماغان ثلاثين فرساً أصيلة وعشرين جاموساً ومئة عيار من زيت البلوطة وخمسين جلداً من جلد القندس وخيرات كثيرة أخرى، قبل ذلك كله كانت والدتي قد تعرفت على رجل أبيض. غير أن والدة والدتي رمت بالماء في وجهها وأجبرتها على الزواج من الشهم سيماغان الذي يشبه الملك، والمبجل في شعبه كأنه جني ولكن والدتي قالت لزوجها الجديد: «إنني حامل فاقتلني». فأجابها سيماغان: «فلتحمني الروح الكبيرة من عمل كهذا، لن أقطعك ولن أقطع

أنفك ولا أذنيك لأنك كنت صادقة ولم تخدعي مضجعي. إن ثمرة أحشائك ستكون ثمرتي ولن أزورك إلا بعد ذهاب عصفور حقل الرز عندما يلمع القمر الثالث عشر». في هـذا الوقت خرجت من أحشاء أمي وبدأت أنمو وأنـا فخورة كـالاسبانيـة وكالمتوحشة. وقد جعلتني أمي مسيحية حتى يصبح إلاهها وإله والدي هو إلهي أيضاً. ثم أخذ حزن الحب يلحق بها فنزلت إلى القبو المزين بالجلود والذي لا خروج منه».

«هكذا كانت قصة أتالا». وماذا كان اسم أبيك أيتها اليتيمة المسكينة؟ قلت لها، وماذا كان الرجال يسمونه على الأرض وأي اسم كان يحمل بين الجان؟» ـ «لم أغسل قط قدمي والدي، قالت أتالا، والشيء الوحيد الذي أعرفه هو أنه كان يعيش مع شقيقته في سان ـ أوغستان وأنه كان دائمًا وفياً لوالدتي. وكان اسمه فيليب بين الملائكة غير أن الرجال كانوا يسمونه لوبيز. ولدى سماعي هذه الكلمات صرخت صوتاً دوى في كل العزلة وقد امتزج صوتي مع صوت العاصفة. صرخت وأنا أشهق وقد ضممت أتالا إلى صدري: «يا شقيقتي! يا ابنة لوبيز ابنة الرجل الذي أحسن إلي!» فسألتني وقد استولى عليها الخوف عن مصدر اضطرابي، ولكنها عنـدما علمت أن لـوبيز هـو ذلك المضيف الكريم الذي تبناني في سان أوغستان والذي تـركته لاستعيـد حريتي، عراها الارتباك والفرح.

«كانت كثيرة على قلبنا تلك الصداقة التي زارتنا وضمت حبها

إلى حبنا. ومن ذلك الحين فإن مقاومة أتالا أصبحت بلا جدوى. وعبثاً كانت تحاول أن ترفع يدا إلى صدرها والقيام بحركة غير مألوفة كنت قد أمسكت بها وسكرت من أنفاسها وشربت السحر كله من شفتيها. حملتُ زوجتي بين ذراعي ونظري مرتفع نحو السماء على ضوء البرق بحضور الخالق الخالد. يا لها من أبهة زفاف جديرة بمصائبنا وبعظمة حبنا! أيتها الغابات الرائعة التي كنت قد تركت عرائشك وقببك مثل ستار مضجعنا في سقفه، يا شجرات الصنوبر التي كنت تشكلين مشاعل زفافنا، أيها النهر الفائض، أيتها الجبال الهادرة، أيتها الطبيعة المريعة السامية، ألم تكوني سوى جهاز أعد لخداعنا وأما كان في وسعك أن تخبئي للحظة بين ويلاتك الحافلة بالأسرار، سعادة رجل؟.

«لم تعد أتالا تبدي إلا مقاومة ضعيفة. وقد لمست لحظة السعادة عندما اخترق برق عنيف أعقبه دوي الصاعقة، كثافة الظلال، وملأ الغابة بالكبريت والضوء وحطم شجرة على أقدامنا. فهربنا. يا للمفاجأة! خلال الصمت الذي أعقب ذلك سمعنا صوت جرس! وقد أصغينا بذهول إلى ذلك الصوت الغريب في الصحراء. وفي تلك اللحظة نبح كلب من بعيد ثم اقترب وجدد نباحه وأقبل إلى أرجلنا وهو يعوي من الفرح. وكان رجل عجوز وحيد يتبعه وهو يحمل فانوساً وسط ظلمات الغابة. وصرخ عند ما رآنا: «فلتبارك العناية الإلهية! كنت أفتش

عنكما منذ وقت طويل. وأن كلبنا شعر بكما منذ بداية العاصفة فقادني إلى هنا. يا إلهي كم هما شابان! أيها المسكينان! لا بد أنهما تألما كثيراً. فلنذهب. لقد جلبت جلد الدب وسيكون لهذه المرأة المسكينة! وهذا قليل من الخمر داخل ثمرة الكرنيب التي نحملها. لنحمد الله على كل ما صنع! إن رحمته كبيرة ورأفته بلا حدود!».

«وكانت أتالا قد ركعت على قدمي رجل الدين فقالت له: «يا قائد الصلاة أنا مسيحية والسماء هي التي أرسلتك لتنقذني» - «يا ابنتي، قال الناسك وهو يدفعها، عادة نقرع جرس الإرسالية في الليل وفي العواصف لندعو الغرباء. ومثل أخواننا في جبال الألب علمنا كلبنا كيف يكتشف السائحين التائهين».

«بالنسبة لي كنت أفهم بالكاد ما يقوله الناسك. كانت هذه المحبة تبدو لي فوق مستوى الإنسان إلى حد أنني ظننت نفسي في حلم. وعلى ضوء الفانوس الصغير الذي كان يحمله رجل الدين شاهدت ذقنه وشعره وقد ابتلا بالماء، وقدميه ويديه ووجهه تدمى من شوك العليق.

وهتفت أخيراً: «أيها الشيخ، ما هذا القلب الذي تملكه أنت الذي لم يخش أن تضربه الصاعقة؟» ـ «أخاف؟ أجاب الأب مع شيء من الحرارة، أخاف عندما يكون رجال في خطر وأستطيع أن أقدم لهم المساعدة؟ إذا شعرت بالخوف أكون غير جدير بخدمة السيد المسيح!» ـ «ولكن هل تعلم، قلت له، إنني لست

مسيحياً ؟» .

فأجابني: « أيها الشاب هل سألتك عن دينك ؟ إن السيد المسيح لم يقل « دمي سيغسل هذا ولن يغسل ذاك». لقد مات من أجل الجميع ولم ير في جميع البشر سوى أخوة وعاثري حظ . إن ما اعمله هنا قليل جداً وستجدان في مكان آخر مساعدات أخرى ، ولكن الفضل لا يرجع إلى الكهنة . وهل نحن الوحيدون الضعفاء سوى أدوات فظة لعمل سماوي ؟ ومن هو الجندي الجبان الذي يتراجع عندما يتقدم القائد وهو يحمل الصليب بيده وعلى جبهته إكليل من الشوك ، يتقدم أمامهم لمعونة البشر ؟ » .

«هذه الكلمات أثرت في قلبي فسقطت دموع الاعجاب والحنان من عيني. «يا ولديّ الحبيبين» قال المبشر إنني أرعى في هذه الغابة قطيعاً صغيراً من إخوانكم المتوحشين. وإن مغارتي هي في الجبل وقريبة من هنا. تعالا لكي تشعرا بالدفء عندي. لن تجدا كل رفاهية الحياة ولكنكما ستجدان ملجأ، ويجب أن نشكر الرأفة الإلهية على ذلك لأن هناك كثيرين من الناس الذين ينقصهم ذلك».

الفلاحون

هناك أشخاص أبرار لهم ضمير مرتاح إلى حد أنه لا يمكن المرء أن يقترب منهم من غير أن يشترك في الطمأنينة التي تنبعث من قلوبهم ومن كلماتهم. وكلما مضى الرجل الوحيد في الكلام كنت أشعر بأهواء تهمد في أعماق نفسي، حتى أن العاصفة في السماء بدت كأنها تبتعد لدى سماع كلامه. وقد تبعثرت الغيوم سريعاً لكي تسمح لنا بمغادرة عزلتنا. خرجنا من الغابة وبدأنا الصعود من وراء جبل شاهق. وكان الكلب يمشي أمامنا وهو يحمل على طرف قضيب الفانوس المطفأ. كنت أمسك بيد أتالا ونتبع المبشر. وكان غالباً ما ينظر إلى الوراء ليشاهدنا وهو يتأمل بشفقة مصائبنا وشبابنا. كان يتكىء على عصا بيضاء ومن رقبته تدلى كتاب. قامته مرتفعة ووجهه شاحب ونحيف وملامحه بسيطة وصادقة. ولم تكن له الملامح الميتة والممسوحة لرجل ولد بلا أهواء. لاحظنا أن أيامه كانت قاسية، وتجاعيد جبهته كانت تظهر آثار جراح الأهواء التي شفتها الطهارة كما شفاها حب الله والإنسان. وعندما كان يكلمنا وهو واقف بلا حراك وذقنه طويلة

وعيناه شاخصتان بتواضع إلى الأرض وبصوته العطوف الودود، كان كل شيء فيه يوحي الهدوء والسمو. ومن شاهد مثلي الأب أوبري Aubry وهو يتمشى وحيداً مع عصاه وكتاب الصلوات في الصحراء يكون قد كون فكرة صحيحة عن الرحالة المسيحي على الأرض.

«وبعد نصف ساعة من السير الخطر في ممرات الجبل وصلنا إلى مغارة المبشر. فدخلنا إليها وسط اللبلاب والعمامة الرطبة التي أسقطها المطر من الصخور. ولم يكن في هذا المكان سوى ضفيرة من أوراق البابايا وثمرة كرنيب من أجل غرف المياه وبعض أوعية من الخشب ومغرفة وافعى اليقة. وعلى حجر يستعمل كطاولة رأينا صليباً وكتاب المسيحيين.

«أسرع رجل الأيام القديمة إلى إشعال نار بواسطة العارشة الجافة ثم حطم الذرة بين حجرين وعمل منها قرصاً من الحلوى وضعه تحت الرماد لكي ينضج. وعندما تلون قرص الحلوى على النار بلون ذهبي جميل قدمه لنا مع قشطة الجوز في وعاء من القيقب. ولما جلب المساء الهدوء والسكون عرض علينا خادم الروح الكبرى أن نذهب ونجلس على مدخل المغارة. تبعناه إلى هذا المكان الذي كان يطل على مشهد شاسع واسع الأطراف. لقد تبددت بقايا العاصفة نحو الشرق. أما نيران الحريق الذي اشتعل في الغابات بسبب الصاعقة فقد كانت لا تزال تلمع من بعيد، وعلى قدم الجبل كانت غابة من الصنوبر قد سقطت في

الوحل. وكان النهر يسوق بلا نظام الفخار المبلل وجذوع الأشجار وجثث الحيوانات وأجسام الأسماك الميتة التي كان بطنها الفضي يعوم على سطح المياه.

«وسط هذا المشهد روت أتالا قصتنا إلى العبقري العجوز في الجبل، وقد بدا قلبه متأثراً وانهمرت دموع على ذقنه: «يا ابنتي، قال لاتالا، يجب أن تقدمي ألامك إلى الله الذي من أجل مجده عملت الكثير فإنه سيمنحكما الراحة. انظري إلى هذه الغابات والدخان ينبعث منها وإلى السيول وهي تجف وإلى الغيوم وهي تتبدد، أتعتقدين أن الذي يستطيع أن يهدىء مثل هذه العاصفة لن يستطيع تهدئة اضطرابات قلب الإنسان؟ وإذا ليس لديك عزلة أحسن يا ابنتي العزيزة فإنني أقدم لك مكاناً بين القطيع الذي كان لي الشرف لأن أدعوه إلى يسوع المسيح. سأعلم شاكتاس وسأعطيك إياه كزوج عندما يصبح جديراً بذلك».

«وعند هذه الكلمات وقعت على ركبتي الرجل الوحيد وأنا أذرف دموع الفرح. ولكن أتالا أصبحت شاحبة كالموت. ثم رفعني العجوز بلطف ولاحظت عند ذلك أن يديه مشوهتان. وحالا فهمت أتالا مصائبه وصاحت: «إنهم المتوحشون».

«عاد الاب يتكلم بابتسامة ناعمة فقال: «يا ابنتي، ماذا يشكل هذا بالنسبة الى ما تحمله معلمي الالهي؟ واذا كان الهنود الوثنيون قد انزلوا فيّ العذاب فانهم عميان مساكين سيعيد الله لهم البصر والنور في يوم من الايام. بل ان حبي لهم يزداد

بنسبة اضرارهم بي . لم استطع البقـاء في وطني حيث كنت رجعت وحيث شـرفتني ملكة عـظيمة بمشـاهدة هـذه الآثار الضعيفـة لارساليتي. وهل هناك مكافأة ابهى واروع اتلقـاهـا على اعمالي من الحصول من رئيس ديننا علي الأذن بالاحتفال بالـذبيحة الالهية بهاتين اليدين المبتـورتين؟ ولم يبق ، بعدما حصلت على مثل هذا الشرف، غير ان احاول ان اكون جديراً به: رجعت الى العالم الجديد امضي ما تبقى من حياتي في خدمة الهي. ومنذ ثلاثين سنة وانا اسكن هذه العزلة وغداً يكون قد مضى اثنان وعشرون سنة على امتلاكي هذه الصخرة. وعندما وصلت الى هـذه الاماكن لم اكن اجـد سوى عـائلات متشـردة متوحشـة العادات بائسـة الحياة. وقـد اسمعتهم كلام السـلام فراحت عاداتهم تتلطف بالتدريج. انهم يعيشون الآن متجمعين في اسفل هذا الجبل. لقد حاولت، وانـا اعلمهم سبل الخـلاص، ان اعلمهم في الوقت نفسه فنون العيش الأولى، ولكن دون ان اذهب بهم بعيداً، بل مبقيـاً هؤلاء الناس الطيبين ضمن اطار البساطة التي تصنع السعادة.

«وبالنسبة اليّ فقد خشيت ازعاجهم بوجودي فانسحبت الى هذه المغارة حيث يجيئون لاستشارتي. وهنا بعيداً عن الرجال اعبد الله وسط عظمة هذه العزلات، واستعد للموت الذي تنبئني به ايامي المتقدمة في العمر».

«لدى انتهائه من هذه الكلمات ركع الرجل الوحيد عـلى

ركبتيه، ففعلنا مثله. وشرع بصوت عال يتلو صلاة، واتالا تجاوبه عليها. وكان برق صامت لا يزال يفتح السموات في الشرق وعلى غيوم الغروب كانت ثلاث شموس تسطع معاً. وكانت الثعالب التي شتتتها العاصفة هنا وهناك تمد افواهها السوداء على حافة الهاوية. وكان يسمع حفيف النباتات التي ترفع سيقانها المنكسرة بعدما جففتها نسمة المساء.

«ثم دخلنا الى المغارة حيث مد الناسك سريراً من طحلب السرو لاتالا. كان ذبول عميق يرتسم في عيني هذه العذراء وحركاتها وهي تنظر الى الأب اوبري كما لو كانت تريد ان تبوح له بسر من الاسرار. لكن شيئاً ما كان يمسكها، سواء وجودي او بعض الخجل، او عدم جدوى الاعتراف. في الليل سمعتها تنهض وتبحث عن الرجل الوحيد، ولكن لما كان اعطاها سريره فقد ذهب ليتأمل جمال السماء وللصلاة لله على قمة الجبل. وقد قال لي في اليوم التالي انه كان من عادته حتى في الشتاء ان يتفرج على الغابات وهي تهز قممها العارية وعلى الغيوم وهي تطير في السماء، مصغياً الى الرياح والسيول وهي تزمجر وتهدر في العزلة. هكذا اضطرت اتالا للرجوع الى سريرها حيث نامت. ومن اسفي اني، وقد ملأني الامل، لم ار في ضعف اتالا سوى علامات موقتة من التعب.

«في اليوم التالي استيقظت على اغنيات الكردينال وطيور الهمبر التي كانت تعشعش في اشجار الاقاقيا والغار والتي كانت تحيط

بالمغارة. وذهبت لاقطف وردة من المغلولية وضعتها وهي مبللة بدموع الصباح على رأس اتالا النائمة. كنت آمل، حسب دين بلدي، ان تنزل روح ولد مات على صدر امه، ان تنزل على هذه الزهرة داخل نقطة من الندى، وان حلماً سعيداً سيحمل هذه الروح الى صدر زوجتي المقبلة. ثم اخذت افتش عن مضيفي فوجدته ينتظرني جالساً على جذع شجرة صنوبر سقطت من فرط الشيخوخة، وقد ارتفع ثوبه في جيبتيه وامسك سبحة في يده. عرض علي ان اذهب معه الى مركز الارسالية بينما كانت اتالا لا تزال ترتاح، فقبلت عرضه واخذنا الطريق فوراً.

«ولدى نزولنا من الجبل شاهدت شجرات سنديان رسمت عليها الجان كما يبدو حروفاً غريبة. وقال لي الناسك انه هو الذي رسم هذه الاحرف وانها ابيات لشاعر قديم يدعى هومير، وبينها ايضاً بعض الحكم لشاعر اقدم من هومير يدعى سليمان. كان ثمة تناغم خفي لا اعرف بالضبط ما هو، بين حكمة الازمان هذه، والابيات التي نخرها العشب، وهذا الرجل الوحيد الذي نقش السطور، وهذه السنديانات التي استعملها الرجل الوحيد وكأنها كتب.

«ان اسمه وسنه وتاريخ ارساليته كانت ايضاً قد سجلت على قصبة في السهل، عند اقدام هذه الاشجار. وقد تعجبت لسرعة عطب هذا الاثر التذكاري الاخير: «انه سيدوم اكثر مني، اجابني الاب، وستكون قيمته اكبر من الخير القليل الذي قمت به».

«ومن هناك وصلنا الى مدخل واد حيث شاهدت شيئاً رائعاً: لقد كان جسراً طبيعياً شبيهاً بجسر فرجينيا Virginie الذي ربما سمعت عنه. ان الرجال يا ولدي، لاسيما رجال بلدك، غالباً ما يقلدون الطبيعة، ولكن تقليدهم للطبيعة هو دائماً صغير. وليس هذا شأن الطبيعة عندما تبدو وكأنها تقلد اعمال الرجال وذلك بتقديمها لهم نماذج. فعند ذلك ترمي بجسر من قمة جبل الى قمة جبل آخر وتعلق طرقاً في الغيوم وتنشر انهراً للقنوات وتحفر روابي للاعمدة وتحفر بحاراً من اجل احواض.

«مررنا تحت العقد الوحيد لهذا الجسر ووجدنا انفسنا امام رائعة اخرى: مقبرة هنود البعثة او غابات الموت lestBocages de la mort. الاب اوبـري سمح لاتباعه الحديثي التنصر بان يدفنوا موتاهم على طريقتهم وان يحتفظوا، عوض مقابرهم، بالاسم المتوحش. لقد قدس هذا المكان بوضع صليب فقط. وكانت ارض المقبرة مقسومة كالحقل المشترك للحصـاد، اقساماً عدة تساوي عدد العائلات، كـل قسم يشكل وحـده غابـة كانت تختلف عن الاخرى حسب ذوق اولئك الذين زرعوها. وكانت ساقية تتعرج بلا ضجة وسط هذه الغابات تسمى ساقية السلام. وكان هذا الملجأ الضحوك للارواح مغلقاً من الشرق بواسطة الجسر الذي مررنا تحته، وربوتين تحدانه من الشمال والجنوب. ولم تكن له فتحة سوى من الغرب حيث ارتفعت غابة كبيرة من اشجار الصنوبر جذوع هذه الاشجار الحمراء المرخمة بالاخضر

تشبه، وهي تصعد بلا اغصان حتى قمتها، اعمدة مـرتفعة. وهذه الجذوع هي الباحة لمعبد الموت. وكان يسوده صوت ديني شبيه بهدير صامت لارغن تحت قبة كنيسة. ولكن عندما يدخل المرء الى اعماق المعبد لا يسمع سوى زقزقات العصافير تحتفل بعيد خالد في ذكرى الاموات.

«عندما خرجنا من الغابة اكتشفنا قرية مركز الارسالية الواقعة على ضفة بحيرة وسط سهل مـزروع بالاشجـار. وكان يمكن الدخول الى هذا المكان بواسطة طريق مفعم بالمانوليا واشجار السنديان الاخضر التي تحف باحدى تلك الطرق القديمة قرب الجبال التي تقسم الكنتكي Kenueky عن الفلوريد Florides. ولما شاهد الهنود قسهم في السهل تركوا اعمالهم وهرعوا اليه. قام بعضهم بتقبيل ثوبه والبعض الاخر بمساعدته على المشي. والامهات كن يرفعن بين اذرعهن اولادهن الصغار لكي يشاهد هؤلاء رجل السيد المسيح، والذي كان يبكي. وكان يستفهم وهو يمشي عما يجري في القرية يقدم نصيحة لهذا او يؤنب ذاك بلطف. وكان يتحدث عن الحصاد المعد للقطاف وعن الاولاد الذين يجب تعليمهم وعن الالام التي يجب مواساتها، ويدخل الله في كل ما يقول.

«وصلنا ونحن مصحوبون هكذا الى اسفل صليب كبير كان على الطريق. هنا اعتاد خادم الله ان يحتفل باسرار دينه. قال مخاطباً الجمهور: «ايها الاعزاء الحديثو التنصر، لقد جاءكم اخ

واخت. ولمزيد من السعادة فانني ارى ان العناية الالهية قد بسطت حمايتها البارحة على حصادكم. وهذان سببان كبيران لشكرها. فلنقدم اذاً الذبيحة المقدسة وليقدم كل واحد منكم خشوعاً عميقاً وايماناً متوهجاً واعترافاً لا نهاية له بالجميل وقلباً متواضعاً».

«قال الكاهن ذلك ولبس قميصاً ابيض من قشرة شجرة التوت. ثم سحبت الاوعية المقدسة من خيمة على قدم الصليب، وهيىء المذبح على بقعة من الصخر، ونقلت المياه من السيل المجاور، وقدم عنقود من العنب البري خمر الفداء. وقد ركعنا جميعاً في الاعشاب المرتفعة. وبدأ الاحتفال.

«كان الفجر الظاهر وراء الجبال يشعل الجبهة الشرقية وكان كل شيء من الذهب او الورد في العزلة. والكوكب الذي اعلن عن نفسه بكثير من البهاء خرج اخيراً من هوة من النور والتقى شعاعه الاول القربان المنذور الذي كان الكاهن في اللحظة نفسها يرفعه في الهواء. يا لسحر الدين! يا لروعة العبادة المسيحية! ناسك عجوز يقوم مقام مقدم التضحية، وصخرة مقام المذبح، وصحراء مقام الكنيسة، ومتوحشون ابرياء مقام الحضور.

«كلا، لا اشك ابداً انه في اللحظة التي كنا نسجد، كانت المعجزة الكبرى تتحقق بنزول نزل على الارض، فانا كنت اشعر به ينزل في قلبي.

«وبعد الذبيحة، حيث لم يكن ينقصني سوى ابنة لـوبيـز ،ذهبنا الى القرية. وهناك سيطر المزيج المؤثر من الحياة الاجتماعية ومن حياة الطبيعة؛ في زاوية غابة السرو من الصحراء القديمة اكتشفنا زرعاً ينبت والسنابل تتدفق كالذهب على جذع السنديانة التي سقطت. وقد قامت رزمة صيف مقـام شجرة عمـرها ثـلاثة قرون. وفي كل مكان كانت تشاهد الغابات وقد سيطرت عليها السنة اللهب تنفث دخاناً كبيراً في الهواء، فيما سكة الحراثة تتنزه ببطء بين انقاض الجـذور. وكان مسـاحو الاراضي يقيسـون الأرض سلاسل طويلة وآخرون يعيدون تحديد الملكيات. وقد هجر العصفور عشه وتحول مأوى الحيوان الى كوخ. وكان يسمع هدير المطارق، كانت ضربات الفأس تصعد، للمرة الاخيرة، اصداء تنتهي مع نهاية الاشجار التي كانت تشكل ملجأ لها.

«كنت اتوه بنشوة وسط هذه المشاهد التي ازدادت جمالاً بفضل اتالا واحلام السعادة التي كنت اهدهد بها قلبي. كنت انظر باعجاب الى انتصار المسيحية على الحياة المتوحشة. كنت ارى الهندي يتمدن عن طريق الدين واشاهد الاعراس البدائية للرجل والأرض: الرجل، عن طريق هذا الميثاق العظيم، يترك للارض ارث عرقه، والأرض تتعهد ان تحمل باخلاص الحصاد والاولاد ورماد الرجال.

«وقدموا الى المبشر ولداً فعمّده وسط الياسمين المزهر، على ضفـة نبع، بينما كان نعش يـذهب الى غابـات الموت وسط

الالعاب والاعمال. وتلقى عروسان البركة الزوجية تحت شجرة سنديان ثم ذهبنا في ما بعد لنسكنها في زاوية من الصحراء. كان القس يمشي امامنا وهو يوزع البركة هنا وهناك على الصخرة والشجرة والنبع كما في ما مضى، وحسب كتاب المسيحيين بارك الله الارض اللامزروعة باعطائها ارثاً لآدم. كان هذا الموكب، وهو يتبع رئيسه الوقور من صخرة الى صخرة، كان يمثل لقلبي الذي ملأه الحنو، هجرة العائلات الأولى عندما كان سام Sem مع اولاده يتقدم وسط العالم المجهول وهو يتبع الشمس التي كانت تمشي امامه.

«اردت ان اعلم من الناسك القديس كيف يسوس اولاده، فاجابني بمجاملة كبيرة: «لم اعطهم اي قانون. لقد علمتهم فقط ان يحب بعضهم بعضاً وان يصلوا لله وان يأملوا في حياة احسن افضل: ان كل قوانين العالم تكمن في ذلك. انت ترى وسط القرية كوخاً اكبر من الاكواخ الاخرى. انه يستعمل كنيسة في موسم الشتاء. وهم يتجمعون فيه مساء وصباحاً لتسبيح الله، وعندما اغيب فهناك عجوز يقوم بالصلاة لان الشيخوخة هي، مثل الامومة، نوع من الاكليروس. ثم نذهب لنعمل في الحقول، واذا كانت الممتلكات مقسومة حتى يتمكن كل فرد من تعلم الاقتصاد الاجتماعي، فان الحصاد يوضع في مخازن مشتركة للغلال وذلك محافظة على المحبة الاخوية. اربعة شيوخ يوزعون بالتساوي انتاج العمل والكد. ويمكن ان يضاف الى ذلك

احتفالات دينية وكثير من الاناشيد والتراتيل، والصليب حيث قدمت الذبيحة، وشجرة الدردار التي اغط تحتها في الايام الطيبة، وقبورنا القريبة من حقولنا القمحية، وانهارنا حيث اغطس الاولاد الصغار والسان جان Saint — jean العائدة لهذه البيتاني Bethanie الجديدة، اذا اضفت كل ذلك فيمكنك ان تكون فكرة كاملة عن مملكة السيد المسيح هذه».

«لقد ادخلت كلمات الرجل النشوة الى نفسي وشعرت بتفوق هذه الحياة المستقرة والمنشغلة على حياة المتوحش التائهة والعاطلة عن العمل.

آه يا رنيه! اني لا اتفوه بشيء ضد العناية الالهية، ولكني اعترف باني لا اتذكر هذا المجتمع الانجيلي من دون ان اعاني مرارة الاسف. كم كان مجرد كوخ مع اتالا على هذه الضفاف سيجعلني سعيداً! هناك كانت تنتهي جميع جولاتي، وهناك، مع زوجة، وسط جمع من الناس لا يعرفونني، أخفي سعادتي في اعماق الغابة حيث اعبر مثل هذه الانهر التي ليس لها حتى اسم في الصحراء. وعوضاً عن هذه الطمأنينة وهذا السلام اللذين كنت اتجرأ على وعد نفسي بهما، اي اضطراب امضيت فيه ايامي! ان اكون لعبة دائمة في يد القدر، وان اتحطم على كل الشواطىء وان انفى لوقت طويل من بلدي دون ان اجد لدى رجوعي سوى كوخ مهدم واصدقاء في القبر: ذلك كان مصيري، مصير شاكتاس.

المأساة

اذا كان حلم سعادتي حياً فلقد كانت حياته قصيرة. وكانت اليقظة تنتظرني عند مغارة الرجل المنفرد. وقد فوجئت وانا اصل اليها وسط النهار بعدم رؤية اتالا تركض للقائنا.

ولا ادري كيف استولى عليّ الهول المفاجىء. وباقترابي من المغارة لم اكن اتجاسر على مناداة ابنة لوبيز. وقد فزعت ايضاً مخيلتي اما من الصوت او من الصمت اللذين قد يعقبان صرخاتي. وقد ازداد خوفي من الليل الذي كان يسيطر على مدخل الصخرة فقلت للمبشر: «انت الذي ترافقه السماء وتقويه ادخل الى هذه الظلال».

«كم هو ضعيف الرجل الذي تسيطر عليه الاهواء! وكم هو قوي الرجل الذي يطمئن الى الله! كانت الشجاعة في هذا القلب المؤمن الذي اذبلته ست وسبعون سنة هي اكبر من كل نشاط صباي. لقد دخل رجل السلام الى المغارة وبقيت في الخارج وقد استولى عليّ الرعب. وسريعاً ما خرجت من اعماق الصخرة وشوشة ضعيفة شبيهة بتنهدات. فصرخت بعدما استجمعت

قواي وتقدمت في ظلام الكهف... يا ارواح ابائي، انت وحدك تعرفين المشهد الذي صعقني.

«كان الرجل المنفرد قد اشعل مشعلاً من شجر الصنوبر امسكه بيد مرتجفة فوق سرير اتالا، وقد بدت هذه المرأة الجميلة الشابة متكئة على مرفقها شاحبة اللون وشعرها أشعث وقطرات العرق المضني تلمع على جبهتها. وكانت نظراتها نصف المطفأة تحاول ايضاً التعبير عن حبها فيما فمها يحاول ان يبتسم. بقيت بلا حراك كأن صاعقة اصابتني، عيناي جامدتان وذراعاي ممدودتان وشفتاي نصف مفتوحة، وخيمت لحظة صمت عميق بين الاشخاص الثلاثة الذين كانوا يشكلون هذا المشهد المؤلم وكان الرجل الوحيد اول من خرق الصمت قال: «هذا مجرد حمّى سببها التعب واذا استسلمنا لمشيئة الله فانه سيشفق علينا».

«لدى سماعي هذه الكلمات فان الدم المتوقف استأنف جريانه في قلبي. وبمرونة متوحش مررت فجأة من الافراط في الخوف الى الافراط في الثقة. ولكن اتالا لم تتركني هكذا زمناً طويلاً. فقد اشارت لنا بالاقتراب من سريرها وهي تهز رأسها بحزن.

«وقالت بصوت ضعيف مخاطبة رجل الدين: «ابتاه انني الامس لحظة الموت. وآه انت يا شاكتاس، اصغ من دون يأس الى السر المشؤوم الذي خبأته عنك حتى لا اشقيك كثيراً وحتى اطيع والدتي. وحاول ان لا تقاطعني باشارات من الالم قد

تعجل في انقضاء اللحظات التي تبقت من حياتي. لدي اشياء كثيرة ارويها وبخفقات هذا القلب التي تتباطأ وبهذا العبء البارد الذي يحمله صدري اشعر انني لن استعجل بما فيه الكفاية».

«بعد لحظات من الصمت تابعت اتالا هكذا :

«ان قدري التاعس بدأ تقريباً قبل ان اولد. حملت بي امي وسط الشقاء. لقد ارهقت احشاءها فولدتني واحشاؤها تتمزق. ولما يئسوا من بقائي على قيد الحياة، ولكي تنقذ حياتي، فقد نذرت امي نذراً: لقد وعدت ملكة الملائكة بانني سأكرس لها طهارتي اذا استطعت الخلاص من الموت. وهذا نـذر قاتل يدفع بي سريعاً الى القبر.

«فقدت والدتي عندما بلغت سن السادسة عشرة. وقد دعتني قرب سريرها ساعات قبل موتها وقالت لـي في حضور مبشر كان يواسيها في لحظاتها الأخيرة: «يا ابنتي تعرفين النذر الذي عملته من اجلك فهل تريدين تكذيب امك؟ آه يا حبيبتي اتالا! اتركك في عالم غير جدير بالمحافظة على مسيحية وسط وثنيين يضطهدون الهك والهي، وهو الاله الذي بعد ان منحك الحياة حفظها لك بمعجزة. يا ابنتي العزيزة انك بقبولك نقـاء العذارى تكونين قد تخليت عن هموم الكوخ وعن الاهواء المشؤومة التي ازعجت امك! تعالي يا حبيبتي واقسمي على صورة والدة المنقذ، وبين يدي هذا القس القديس وامك التي تعـاني سكرات المـوت، اقسمي بانك لن تخوني ابداً وجه السماء. فكري انني قد تعهدت

من اجل انقاذ حياتك، واذا لم تفِ بوعدي فانك ستغرقين روح امك في عذاب خالد».

«آه يا امي لماذا تكلمت هكذا؟ ايها الدين الذي هو مصدر آلامي وسعادتي، يا سبب ضياعي وعزائي في آن! وانت يا شاكتاس، يا هوى يضنيني حتى في احضان الموت، الا ترى الآن يا شاكتاس سبب عذابنا! لقد ذرفت الدموع بغزارة والقيت بنفسي على صدر امي ووعدت بتنفيذ كل ما وعدت به. والقى المبشر عليَّ الكلمات الرهيبة واعطاني الكتيفية التي تربطني الى الابد. وقد هددتني امي باللعنة اذا لم اف بنذرها. وبعدما اوصتني بسر لا يمكن انتهاكه نحو الوثنيين الذين يضطهدون ديننا فارقت الحياة وهي تعانقني.

«لم اتبين بادىء بدء مخاطر قسمي. لم اكن اشاهد من حولي، انا المليئة بالنشاط والمسيحية الحقيقية والفخورة بالدم الاسباني الذي يجري في عروقي، سوى رجال غير جديرين بطلب يدي. وقد هنأت نفسي على ان ليس لي من مزوج سوى اله والدتي وصادفتك ايها السجين الجميل، واشفقت لمصيرك وتجاسرت وكلمتك على محرقة الغابة. وعند ذلك شعرت بعبء نذري».

«ولما انتهت اتالا من لفظ هذه الكلمات شددت قبضتي ونظرت الى المبشر بمظهر مهدد وصرخت: «هذه هي الديانة التي قدمتها لي! فليمت القسم الذي يحرمني اتالا وليمت الاله الذي يعاكس الطبيعة! ايها الرجل القس ماذا جئت تعمل في هذه

الغابات؟»

«قال العجوز بصوت مخيف: «جئت لأنقذك ولاكبح اهواءك ولامنعك ايها المجدف من ان تجر على نفسك غضب السماء! يليق بك ايها الشاب الذي دخل بالكاد في معترك الحياة، ان تشكو من الامك! اين علامات الامك؟ اين الظلمات التي تحملها؟ اين فضائلك التي وحدها يمكنها ان تعطيك حقاً بالشكوى؟ واي خدمة اديت؟ واي عمل طيب قمت به؟ ايها الشقي انك لا تقدم لي سوى الاهواء وتتجرأ على اتهام السماء!؟ وعندما ستمضي كالاب اوبري ثلاثين سنة في المنفى ستكون اقل تسرعاً للحكم على نيات العناية الالهية، وستفهم عند ذلك انك لا تعرف شيئاً وانك لست شيئاً وانه لا يوجد عقاب قاس ولا الام رهيبة لا يستحق الجسد الفاسد ان يعانيها».

«كان البرق الذي يخرج من عيني العجوز ولحيته التي تضرب صدره، وكانت كلماته الصاعقة تجعله شبيهاً باله. ووقعت على ركبتي وقد ارهقتني مهابته وسألته العفو عن غضبي.

«فاجابني بلهجة ناعمة ادخلها تأنيب الضمير الى اعماق روحي: «يا ولدي انني لم اوبخك من اجل نفسي. ويا للاسف معك كل الحق يا ولدي: جئت لاعمل قليلاً في هذه الغابات وانا اقل خدام الله جدارة به. ولكن يا ولدي لا يجب اتهام السماء! سامحني اذا كنت قد اهنتك ولكن فلنستمع الى شقيقتك. قد يوجد هناك دواء علينا ان لا نتعب من الامل يا شاكتاس.

انها ديانة الهية هذه الديانة التي جعلت من الرجاء فضيلة!»

وعادت اتالا تقول: «يا صديقي العزيز لقد شهدت معاركي ومع ذلك فانك لم تشاهد منها الا القسم الضئيل. كنت اخفي عنك الباقي. كلا ان العبد الاسود الذي يروي من عرقه رمال الفلوريد الحامية هو اقل بؤساً مني. كنت ادعوك الى الهرب مع اني متأكدة من اني ساموت اذا ابتعدت عني، ولما خشيت الهرب معك في الصحارى رحت مع ذلك الهث للوصول الى ظلال الغابات. آه لو لم يكن من الموجب سوى ترك الاقرباء والاصدقاء والوطن وحتى لو لم يكن ممكناً (وهذا شيء فظيع) سوى فقدان روحي! ولكن ظلك يا امي! ان ظلك كان دائماً يعاتبني على ما اسببه له من عذاب! لقد كنت اسمع شكاواك وكنت ارى السنة لهب الجحيم تضنيك. كانت ليالي جافة ومفعمة بالاشباح وايامي في النهار موحشة وكان ندى الليل يجف وهو يتساقط على جسدي المحترق. وكنت افتح شفتي للنسمات. والنسمات، عوض ان تنعشني تشتعل من نار انفاسي. يا له من عذاب ان اراك دائماً بقربي بعيداً عن كل البشر وسط عزلات عميقة وان اشعر انه يوجد بينك وبيني حاجز لا يمكن قهره! ان اقضي حياتي وانا راكعة عند قدميك، ان اخدمك كعبد لك، ان اهيء لك طعامك وسريرك في زاوية مجهولة من العالم. . كان يمكن كل ذلك ان يشكل بالنسبة لي السعادة القصوى، وقد كنت الامس هذه السعادة ولم أكن أستطيع التمتع بها. أي خطة

لم احلم بها واي حلم لم ينسجه هذا القلب الكئيب! واحياناً كنت، وانا اعلق عيني عليك، اذهب الى حد الشعور ببغض الرغبات الحمقاء المذنبة، فاحياناً كنت اتمنى ان ابقى معك كأنك المخلوق الوحيد الحي على الارض. ثم اشعر بالوهمية توقفني في فوراتي الشنيعة فاتمنى لو تتدمر هذه الالوهية شرط ان اجري وانا مشدودة بين ذراعيك من هاوية الى هاوية مع انقاض الاله والعالم! وحتى هذه اللحظة... هل اقول؟ هل اقول وقد اخذ الخلود يغمني، وسامثل امام القاضي الذي لا يلين، وفي الوقت الذي، من اجل اطاعة امي، اشاهد طهارتي تنهش حياتي؟ آه انه لتناقض فظيع ان احمل معي اسفي من كوني لم اكن لك!»

«قاطعها المبشر قائلاً: «يا ابنتي ان آلامك تخدعك. هذا الافراط في الهوى الذي تستسلمين اليه نادراً ما يكون صواباً وليس من طبيعة الامور. لذلك فهو اقل ذنباً امام الله لانه يشكل شيئاً خطأً في العقل بدلاً من شيء فاسد في القلب. يجب اذاً ان تبعدي عنك هذه الفورات التي لا تليق ببراءتك. ولكن اعرفي ايضاً يا ابنتي العزيزة ان مخيلتك الطائشة قد اقلقتك اكثر من اللزوم بخصوص نذرك. ان الدين لا يتطلب ابداً تضحية لا يتحملها البشر. ان مشاعر الدين الحقيقية وفضائله المعتدلة هي فوق المشاعر المتحمسة والفضائل المصطنعة لبطولة مزعومة. ولو كنت سقطت ايتها النعجة التائهة لكان الراعي الصالح فتش عنك ليرجعك الى القطيع. ان كنوز الندم كانت مفتوحة لك:

تلزمنا سيول من الدم لكي نمحو اغلاطنا في اعين الناس ولكن دمعة واحدة تكفي امام الله. اطمئني اذاً يا ابنتي العزيزة ان وضعك يتطلب الهدوء فلنتوجه الى الله الذي يشفي كل جراح خادميه. واذا كانت ارادة الله، كما آمل، هي ان تتخلصي من هذا المرض فانني ساكتب الى مطران كيبك quebec فـان له السلطات اللازمة لكي ينصح بحلك من نذرك الذي يشكل نذراً بسيطاً وستنهين حياتك بقربي مع زوجك شاكتاس».

«لدى سماعها هذه الكلمات من العجوز استولى على اتالا تشنج طويل لم تخرج منه الا لكي تظهر علامات الم مخيف. ماذا؟ قالت اتالا وهي تشبك يديها بانفعال، كان هناك اذاً دواء! يمكن ان أصبح في حل من نذري؟ «نعم يا ابنتي، اجاب الاب، ولا يزال يمكنك ذلك حتى الان». فصرخت اتالا: «لقد فات الاوان! هل يجب ان اموت في اللحظة التي اعلم انه كان يمكنني ان اكون سعيدة! ليتني تعرفت قبل الآن على هذا العجوز القديس! لكنت اليوم تمتعت بسعادة لا توصف مع شاكتاس... كان ذلك سيكون اكثر مما استحق من السعادة» فقلت لها وانا امسك احدى يديها: «هدئي من روعك، ستتذوقين هذه السعادة.» «ابداً ابداً، قالت اتالا» «كيف؟» قلت لها فصرخت: «انك لا تعلم كل شيء. بالامس كان وقت العاصفة... كنت على وشك ان اخرق نذري. كنت ساغرق امي في السنة لهب الهاوية وكانت لعنتها ستحل علي كنت ساكذب امام الله الذي

انقذ حياتي. عندما كنت تقبل شفتي المرتجفتين لم تكن تعلم انك كنت لا تعانق الا الموت!»ـ «ايتها السماء! صرخ المبشر، يا ابنتي العزيزة ماذا فعلت؟»ـ «جريمة يا امي، قالت اتالا ونظرها تائه، ولكنني لم اكن اخسر سوى نفسي وكنت انقذ امي.»ـ «انهي حديثك اذاً» صرخت وقد استولى علي الذعر. فاضافت: «كنت تنبأت بضعفي، وعندما تركت الكوخ اخذت معي...» «ماذا؟ «قلت في شيء من الرعب»! السم «قال الاب. انه في أحشائي» صرخت اتالا.

«افلت المشعل من يد الكاهن ووقعت انا كالميت قرب ابنة لوبيز فامسك العجوز بكل منا بين ذراعيه ورحنا نحن الثلاثة نبكي على السرير الكئيب.

«فلنستيقظ! فلنستيقظ! قال الناسك الشجاع وهو يشعل ضوءاً! اننا نضيع لحظات ثمينة. لنتصد بشجاعتنا المسيحية لهجمات المصيبة: الحبل في العنق والرماد على الرؤوس فلنرم بانفسنا على قدمي الخالق لكي ننشد رحمته او لكي نخضع لاوامره. ربما لم يفت الوقت بعد يا ابنتي. كان عليك ان تجديني مساء امس.ـ «يا للاسف يا ابي، قالت اتالا، فتشت عنك الليلة لكن السماء ارادت ان تعاقبني على اخطائي فابعدتني عنك.

ومع ذلك فان كل محاولة انقاذ كانت ستبوء بالفشل لأن الهنود انفسهم، برغم مهارتهم في السموم، لا يعرفون علاجاً للسم

الذي اخذته يا شاكتاس! احكم على تعجبي عندما رأيت ان الضربة لم تكن مفاجئة الى الحد الذي كنت انتظره! ان حبي قد ضاعف قواي وان روحي لن تستطيع ان تفترق عنك بسرعة»

«أزعجت رواية اتالا، لا بشهيق، ولكن بتلك الفورات التي لا يعرفها الا المتوحشون. رحت اتقلب على الارض وانا الوي ذراعي وانهش يدي. وكان القس العجوز يتنقل بين الاخ والاخت بعطف رائع ويساعدنا بالف طريقة. وكان يعرف، بهدوء قلبه وتجارب سنيّه، كيف يوصل كلامه الى نفسنا الفتية وكان دينه يجعله ينطق برقة اكثر الهاباً من اهوائنا نفسها. هذا القس الذي كان يضحي نفسه كل يوم منذ اربعين سنة لخدمة الله والانسان في هذه الجبال، الا يذكرك باضاحي اليهود الكبرى التي كان ينبعث دخانها بشكل دائم في الاماكن العالية امام الله؟»

«حاول عبثاً أن يجلب دواء لألم أتالا. أن التعب والحزن والسم والهوى تفتك اكثر من كل السموم مجتمعة. لقد اجتمعت كلها لخطف هذه الزهرة من الوحدة. وفي المساء ظهرت علائم مخيفة على اتالا اذ ان استرخاء عاماً استولى على اعضائها كما ان اطراف جسمها بدأت تبرد: «المس اصابعي، كانت تقول لي، الا تجدها تجمدت؟ فلم اعرف بماذا اجيب ووقف شعر رأسي من الرعب. ثم اضافت: «بالامس يا حبيبي كانت لمسة واحدة منك تجعلني ارتجف والآن لا احس ابداً بيدك ولم اعد اسمع

صوتك. الاشياء الموجودة في المغارة تختفي الواحدة بعد الاخرى. اليست هي العصافير تغني؟ وهل اقتربت الشمس من المغيب الان؟ يا شاكتاس ان اشعتها ستكون جميلة في الصحراء وهي تقع على قبري!»

«ولما شعرت اتالا ان كلماتها هذه كانت تجعلنا نذرف الدموع بغزارة قالت لنا: «سامحاني يا صديقَي الحبيبين انني ضعيفة كثيراً ولكن ربما ساصبح اقوى. ولكن ان اموت وانا في ريعانّ الشباب عندما كان قلبي مليئاً بالحياة! يا رئيس الصلاة اشفق علي. اسندني. هل تعتقد ان امي راضية بأن الله سيغفر لي ما فعلته؟»

اجابها الكاهن الطيب وهو يسكب الدموع ويمسحها باصابعه المرتجفة والمبتورة: «يا ابنتي كل مصائبك نتجت عن جهلك. ان تربيتك المتوحشة وفقدان التعليم اللازم هما اللذان جعلاك تضيعين. لم تكوني تعلمين ان مسيحية لا تستطيع ان تتصرف بحياتها: عزي نفسك اذا يا نعجتي العزيزة ان الله سيسامحك بسبب بساطة قلبك. ان والدتك والمبشر المتهور الذي كان يوجهها كانا مذنبين اكثر منك. لقد تجاوزا سلطاتهما بانتزاعهما منك ذلك النذر. ولكن ليحل عليهما سلام الله! لقد قدمتم انتم الثلاثة مثلاً فظيعاً عن مخاطر التهور وعن نقص في الاطلاع الديني. اطمئني يا ابنتي ان الذي يسبر غور الكلاوي والقلوب سيدينك وفقاً لنواياك الطاهرة ولن يحاكمك على عملك وان كان خطأ.

«اما عن الحياة فاذا كان الوقت قد حان لكي تنامي نومك الابدي فانك يا ابنتي العزيزة لن تخسري سوى شيء قليل بخسارتك لهذا العالم! وبرغم الوحدة التي عشت فيها عرف الاحزان. وما رأيك لو انك كنت شاهدت الام المجتمع ثم بلغت شواطىء اوروبا فطرق سمعك ذلك الصراخ الطويل من الالم الذي يتصاعد من الارض القديمة؟ ان ساكن الكوخ وساكن القصر يتألمان في هذا العالم. وقد شوهدت الملكات وهن يبكين كنساء عاديات وكم فوجىء الناس بقدرة الملوك على ذرف الدموع!

«هل تتأسفين على حبك؟ يا ابنتي كأنك تبكين حلماً! هل تعرفين قلب الرجل وهل يمكنك ان تعدي تقلبات رغبته؟ من الاجدر ان تعدي الامواج التي يقذف بها البحر في العاصفة. يا اتالا ان التضحيات والحسنات لا تشكل روابط ابدية: فيوم من الايام -ربما يقبل الاشمئزاز مع الشبع ويصبح الماضي لا شيء ولا تشاهدين عند ذلك الا مساوىء زواج فقير ومحتقر. ولا شك يا ابنتي ان اجمل الحب كان ذلك الحب بين الرجل والمرأة اللذين صنعهما الخالق وقد اعدت جنة لهما فقد كانا بريئين خالدين. كاملين في الروح والجسد. كانا متناسبين في كل شيء. لقد خلقت حواء لادم كما خلق آدم لحواء، واذا هما لم يستطعا الاحتفاظ بهذا الوضع من السعادة فاي زوجين يمكنهما ذلك بعدهما؟ ولن احدثك قطعاً عن زواج الرجال الاولين، عن ذلك

الزواج الذي لا يوصف، عندما كانت الشقيقة زوجة لاخيها وعندما كان الحب والصداقة الاخوية تمتزجان في قلب واحد، وعندما كانت طهارة احدهما تزيد من ملذات الآخر. لقد اضطربت كل هذه الزيجات لأن الجسد انساب الى المعبد ذي العشب الاخضر حيث كانوا يضحون الجدي، وساد الحسد تحت خيمة ابراهيم، وحتى ساد في تلك الاسرة نفسها حيث كان البطارقة يتذوقون كثيراً من الفرح الى حد كانوا ينسون معه موت امهاتهم.

« هل منيت النفس يا ابنتي بان تكوني اكثر براءة وسعادة في روابطك من هذه العائلات المقدسة التي انحدر منها السيد المسيح ؟ وانني اوفر عليك تفاصيل هموم العائلة والنزاعات والعتاب المتبادل وشغل البال وكل هذه المضايقات السرية التي كانت تحرس مخدة السرير الزوجي لأن المرأة تجدد آلامها كلما اصبحت اما . انها تتزوج وهي تبكي . وكم من الالم يكمن في خسارة مولود كان يرضع ثم يموت على صدرك. كان الجبل مفعماً بالتأوهات ولا شيء يعزي راحيل لأن اولادها ماتوا . هذه المرارة الملتصقة بالحنان الانساني قوية الى حد انني شاهدت في وطني سيدات كثيرات وقد احبهن ملوك يتركن البلاط لكي يدفن انفسهن في اروقة الاديرة ويشوهن هذا الجسد الثائر الذي ليست ملذاته سوى عذابات .

« ولكن قد تقولين ان هذه الامثال الاخيرة لا تهمك ولا

تعنيك ، وان طموحك كان ينحصر في العيش في كوخ مظلم مع رجل وقع اختيارك عليه ، وانك لا تفتشين عن عذوبة الزواج بقدر ما تبحثين من مفاتن ذلك الجنون الذي يسميه الشباب الحب. إنه الوهم. إنه الخرافة. إنه الخيلاء. إنه حلم مخيلة مجروحة! وأنا أيضاً يا ابنتي عرفت اضطرابات القلب. إن هذا الرأس لم يكن اصلع ولا كان هذا الصدر هادئاً بالحد الذي يبدو لك اليوم. آمني بخبرتي: اذا كان في وسع الرجل وهو مستمر في حبه ان يقدم دائماً شعوراً يتجدد، فان الوحدة والحب سيضعانه في مستوى الاله لانهما لذة الخالق الابدية. ولكن روح الرجل تتعب ولا تحب ابداً الشيء نفسه بالكمال. هناك دائماً نقاط لا يمكن معها قلبان ان يلتقيا، وهذه النقاط تكفي لكي تجعل الحياة لا تطاق.

«واخيراً يا ابنتي العزيزة ان الخطأ الاكبر الذي يرتكبه البشر وهم يحلمون بالسعادة هو انهم ينسون الموت الملتصق والمتعلق بطبيعتهم: فهناك نهاية.

«عاجلاً ام اجلاً، ومهما كانت سعادتك، فان هذا الوجه الجميل سيتحول الى تلك الصورة المنتظمة التي يعطيها القبر عائلة آدم، وحتى عين شاكتاس لن تستطيع ان تتعرف عليك بين شقيقاتك في القبر. الحب لا يبسط ابداً سيطرته على دود النعش. ماذا اقول؟ يا باطل الاباطيل! ماذا اقول عن قوة الصداقات على الارض! هل تريدين يا ابنتي العزيزة معرفة

مداها؟ اذا بعث رجل بعد موته بسنوات اشك كثيراً انه سيقابل بالفرح حتى بين اوليئك الذين ذرفوا الدمع المدرار على ذكراه. ذلك بانه سرعان ما تقوم روابط اخرى وعادات اخرى، لان التقلب والتبدل هما من طبيعة الانسان ولان حياتنا تشكل شيئاً صغيراً حتى في قلوب اصدقائنا!

«فاشكري اذاً الرأفة الالهيـة يا ابنتي العـزيزة التي تنشلك بسرعة من وادي البؤس هذا. اللباس الابيض واكليل العذارى الساطع بدءا يتهيئان لك فوق الغيوم وبدأت اسمع ملكة الملائكة تناديك: «تعالي يا خادمتي الكريمة تعالي يا يمامتي تعالي واجلسي على عرش من الطهارة بين كل هذه الفتيات اللواتي ضحـين جمالهن وشبابهن لخدمة الانسانية ولتربية الاطفال ولاعمال الندم الرائعة. تعالي ايتها الوردة الصدفية المتزهدة، تعالي واستريحي على صدر السيد المسيح. ان هذا النعش، وهو السرير الزوجي الذي اخترته لنفسك لن يخدع ابداً وان عناق زوجك السماوي لن ينتهي ابداً!»

«وكما تهدِّىء أشعة النار الاخيرة الرياح وتنشد الهدوء في السماء فان كلام العجوز الهادىء هدأ الاهواء في صدر حبيبتي ولم تعد تبدو تهتم سوى بآلامي وبالوسائـل التي من شأنها ان تجعلني استطيع تحمل خسارتي! فاحياناً كانت تقـول لي انها ستموت سعيدة اذا وعدتها بان اكف عن البكاء، واحياناً كانت تحدثني عن امي وعن وطني. كانت تسعى الى تحويل انتباهي عن الالم

الحاضر بان توقظ في نفسي الماً مضى.

كانت تحثني على الصبر وعلى الفضيلة وتقول لي: «لن تبقى تعساً على الدوام، واذا امتحنتك السماء اليوم فذلك لكي تجعلك تشعر بالرحمة تجاه آلام الاخرين. القلب يا شاكتاس يشبه تلك الانواع من الاشجار التي لا تعطي بلسمها من اجل جراح الرجال الا عندما يكون الحديد قد جرحها هي».

«بعدما تكلمت هكذا، استدارت نحو المبشر ساعية لديه الى العزاء الذي منحتني اياه. وبالتناوب معزية ومعزاة كانت تعطي وتتلقى كلمات الحياة على سرير الموت.

«ومع ذلك كان الناسك يضاعف من حماسته وجهده. لقد تنشطت عظامه الهرمة بلهيب المحبة وكان، وهو يهيىء الادوية ويشعل النار وينعش السرير، يقدم دائماً عظات تثير الأعجاب عن الله وعن سعادة الصالحين. كان يبدو وقد امسك بمشعل الدين في يده انه يسبق اتالا الى القبر ليدلها على عجائبه الخفية وكانت المغارة المتواضعة ملآنة بعظمة الموت. ولاشك ان الارواح السماوية كانت متنبهة لهذا المشهد حيث الدين يتصارع وحده مع الحب والشباب والموت.

«لقد انتصرت هذه الديانة الالهية. وكان انتصارها يظهر خلال حزن مقدس كان يعقب في قلوبنا فورات الاهواء الاولى. وعند منتصف الليل بدت اتالا كأنها انتعشت لكي تردد

الكلمات التي نطق بها رجل الدين على حافة سريرها. وبعد قليل مدت لي يدها وكان صوتها يسمع بالكاد وقالت لي: «يا ابن اوتاليسي هل تتذكر تلك الليلة الاولى التي ظننتني فيها عذراء الحب الاول؟ انه نذير فريد عن مصيرنا وقدرنا!» ثم توقفت وعادت تقول: «عندما افكر انني اتركك الى الابد فان قلبي يبذل جهداً كبيراً لينتعش الى الحد الذي اشعر فيه انني ساصبح خالدة من قوة الحب. ولكن يا الهي لتكن مشيئتك!» وصمتت اتالا بعد لحظات ثم اضافت: «لم يبق لي الا ان اسألك العفو عن الالام التي سببتها لك . لقد عذبتك كثيراً بكبريائي ونزواتي يا شاكتاس . ان قليلا من التراب يلقى على جسدي سيضع عالماً كلياً بينك وبيني وسيخلصك الى الابد من ثقل مصائبي . » .

«اجبتها وقد اغرقتني الدموع: «اسامحك؟ الست انا سبب كل مصائبك؟»

«يا صديقي، قالت وهي تقاطعني، جعلتني سعيدة جداً، واذا كان لي ان اعود فابدأ الحياة فانني سافضل سعادة حبك بعض اللحظات في منفى تعس على حياة راحة في وطني».

«وهنا انطفأ صوت اتالا. ظلال الموت انتشرت حول عينيها وفمها وراحت اصابعها التائهة تفتش عن شيء ما. كانت تتكلم

بصوت منخفض مع ارواح غير منظورة. وسرعان ما قامت بجهد وحاولت دون جدوى ان تنزع من رقبتها الصليب الصغير ورجتني انا ان انزعه بنفسي وقالت لي: «عندما كلمتك للمرة الاولى شاهدت هذا الصليب يلمع في ضوء النار على صدري. انه كل ما تملك اتالا .لـويـز والدك ووالدي قد بعث به الى والدتي بعد ولادتي بـايام، فتلق مني هـذا الارث يا شقيقي واحتفظ به كـذكـرى لمصائبي. سوف تلجأ الى هـذا الاله، الـه المحرومين وعـاثـري الحظ، وسط احزان حياتك. يا شاكتاس لي رجاء أخـير اقوله لك يا صديقي، ان زواجنا سيكون قصيراً على الارض لكنه بعد هذه الحياة يشكل حياة اطول. كم هو فظيع ان افترق عنك الى الأبد. انني اسبـقـك اليوم وسانتظرك في ملكوت السماء. واذا كنت اجببتني فتعلم من الدين المسيحي الذي هيأ لقاءنا. ان هذا الدين يضع امام عينيك معجزة لانه يجعلني استطيع ان اتركك من دون ان تغرق في قلب اليأس وعذابه. ولكن يا شاكتاس لا اريد منك سوى وعد بسيط. اعرف كثيراً ماذا تكلف المطالبة بقسم. وربما يفصلك هذا النذر عن امرأة اسعد مني... اماه، سامحي ابنتك. ايتها العذراء أمسكي غضبك. انني اقع من جديد في نقاط ضعفي وانني اختلس منك يا الهي الافكار التي لا يجب ان تكون الا لك!»

«وعدت اتالا، وقد اثـخـنتني آلامي، بان اعتنق في يوم من الايام الديانة المسيحية. ولدى هذا المشهد قام الرجل المنفرد ومد

ذراعيه نحو قبة المغارة صارخاً: «حان الوقت لأن ندعو الله هنا!»

«وما كاد ينطق بهذه الكلمات حتى بدا لي كأن قوة من فوق الطبيعة اجبرتني على الركوع واحناء الرأس على طرف سرير اتالا. وفتح الكاهن مكاناً سرياً كانت توجد فيه جرة من الذهب، مغطاة بغطاء من الحرير، ثم سجد ليتعبد بعمق. وفجأة بدت المغارة منورة وسمعت في الهواء كلمات الملائكة وصوت القيثارة السماوي. وعندما سحب الرجل المنفرد من خيمته الوعاء المقدس ظننت اني اشاهد الله نفسه يخرج من سفح الجبل.

«وفتح الكأس واخذ بين اصابعه قربانا ابيض كالثلج واقترب من اتالا وهو يلفظ كلمات سرية. وكانت عينا هذه القديسة شاخصتين الى السماء في نشوة. كل آلامها بدت كأنها قد توقفت، وتجمعت كل حياتها على فمها. وانفتحت عيناها قليلاً لتفتشا باحترام عن الاله المخبأ في الخبز الصوفي. ثم قام العجوز يغمس قطعة من القطن في زيت منذور فيمسح به صدغ اتالا ثم يتطلع لحظة الى الفتاة الميتة وفجأة تنطلق منه هذه الكلمات: «اذهبي ايتها الروح المسيحية اذهبي والتحقي بخالقك!» فصرخت وانا ارفع رأسي المنحني وانظر الى الوعاء حيث كان الزيت المقدس: «يا ابي هل سيرجع هذا الدواء الحياة لاتالا؟ «نعم يا ولدي، قال العجوزوهو يقع بين ذراعي، نعم. وكانت اتالا قد فارقت

الحياة»

وهنا وللمرة الثانية منذ بدء روايته اضطر شاكتاس للتوقف عن الكلام. كانت دموع تغرقه. صوته لم يكن يطلق سوى كلمات متقطعة. وقام الساشام الاعمى وفتح صدره وسحب منه صليب اتالا.

«ها هو ذا صرخ قائلاً، ضمان المحنة! يا رنيه يا ولدي انك تراه ولكنني لا اراه! قل لي بعد كثير من السنين الم يتغير الذهب؟ الا ترى فيه اثر دموعي؟ وهل يمكنك ان تتعرف الى المكان الذي لمسته قديسة بشفتيها؟ كيف لم يصبح شاكتاس بعد مسيحياً؟ واية اسباب سياسية او وطنية تافهة امسكته حتى الان ليبقى في اخطاء آبائه؟ كلا لا اريد ان اتأخر اكثر من ذلك. ان التراب يناديني: متى ستنزل الى القبر وماذا تنتظر لتعتنق الديانة الالهية؟ ايها التراب لن تنتظرني طويلاً: فعندما يقوم كاهن بتجديد شباب هذا الرأس الذي بيضته الأحزان، آمل عند ذلك اللقاء باتالا. ولكن فلننه ما تبقى من قصتي».

الجنازة

«لن احاول ابداً يا رنيه ان اصف لك اليوم اليأس الذي استولى عليّ عندما لفظت اتالا نفسها الاخير. ان ذلك يقتضي نشاطاً اكثر مما تبقى لي. كما يتوجب على عيني المغلقتين ان تنفتحا للشمس لتسألاها عن الدموع التي سكبتاها تحت نورها. نعم ان هذا القمر الذي يسطع الان على رؤوسنا سيتعب من اضاءة عزلات الكنتكي، والنهر الذي يحمل الان زوارقنا سيوقف مجرى مياهه قبل ان تتوقف دموعي عن الانسكاب لاجل اتالا! وخلال يومين بكاملهما فان كلمات الناسك لم تكن لتؤثر فيّ. ولم يكن هذا الرجل الممتاز وهو يحاول تهدئة خواطري يستعمل اسباباً دنيوية، بل كان يكتفي بان يقول لي: «يا ولدي هذه ارادة الله». ثم يشدني بين ذراعيه. ولم اكن لاعتقد ابداً انه يوجد عزاء كبير في هذه الكلمات القليلة التي قالها الرجل المسيحي الذي اذعن لارادة الله! ولم امر انا شخصياً في مثل هذه التجربة.

«لقد استطاع حنان رجل الله وصبره ان يتغلبا اخيراً على عناد

ألمي. وخجلت من الدموع التي كنت اسكبها امامه. وقلت له: «يا ابي، يكفي. لا تدع اهواء رجل شاب تقلق راحة ايامك. دعني احمل بقايا زوجتي. سادفنها في زاوية ما. واذا كتبت لي الحياة فأحاول ان اكون جديراً بهذه الاعراس الابدية التي وعدتني بها أتالا».

«ارتجف الاب من الفزع عندما شاهدني وانا استرجع شجاعتي فهتف: يا دم السيد المسيح، دم معلمي الالهي، اعترف هنا بافضالك! إنك ستنقذ ولا شك هذا الشاب. يا الهي اكمل صنيعك واعد السلام الى هذه الروح المضطربة ولا تترك من مصائبه سوى ذكريات متواضعة نافعة».

«رفض الرجل البار ان يترك لي جسد ابنة لوبيز لكنه عرض عليَّ ان يحضر اتباعه الحديثي التنصر وان يدفن جسد اتالا بكل الابهة المسيحية. لكنني رفضت ذلك بدوري.

«قلت له: مصائب اتالا وفضائلها كانت مجهولة من البشر. وقبرها الذي سنحفره خلسة بايدينا، فليكن هو بدوره مجهولاً». واتفقنا ان نذهب في اليوم التالي عند طلوع الشمس لكي ندفن اتالا تحت الجسر الطبيعي في مدخل غابات الموت. كما قررنا ان نمضي الليل ونحن نصلي قرب جسد هذه القديسة.

«وفي المساء نقلنا جثتها الغالية الى فتحة في المغارة كانت تطل على الشمال وقد لف الرجل الناسك الجسد بقطعة من الكتان

الأوروبي، نسجته أمه. وكانت هذه القطعة الثروة الوحيدة التي بقيت له من وطنه ومنذ وقت طويل كان يعدها لقبره الخاص. وكانت اتالا مستلقية على عشب اخضر من نبتة الحساسة وكانت قدماها ورأسها وكتفاها وقسم من صدرها مكشوفة. وكان في شعرها زهرة من المنيولا الذابلة.... الزهرة التي وضعتها على سريرها البتول لكي تصبح خصبة. وان شفتيها مثل برعم الورد المقطوف منذ يومين كانت تبدوان واهيتين ومبتسمتين، وفي خديها الابيضين الناصعين بعض الاوردة الزرقاء. وكانت عيناها مغمضتين وقدماها الصغيرتان متعانقتين ويداها وكأنهما من المرمر تضغطان صليباً من خشب الابنوس على قلبها، وكتفية نذرها تلتف على رقبتها. وكانت تبدو مبتهجة بملاك الكآبة وبالنوم المزدوج المؤلف من البراءة ومن القبر. لم اشهد في حياتي شيئاً سماوياً اكثر من ذلك. وكان يخيل لمن يجهل ان هذه الصبية كانت الى حين حية، انها تمثال للطهارة النائمة.

«لم يتوقف الكاهن عن الصلاة كل الليل. كنت جالساً بصمت قرب رأس سرير حبيبتي المأتمي. كم كان رأسها الفاتن، قبل ايام، يستلقي على ركبتي! وكم من مرة انحنيت عليها لكي اسمع واتنفس نفسها. ولكن لا يخرج الان صوت واحد من هذا الصدر اللامتحرك. وعبثاً رحت انتظر ان يستيقظ الجمال.

«خلع القمر مشعله الضوئي الشاحب على هذه السهرة المأتمية. وقد ارتفع القمر خلال الليل كعذراء بيضاء جاءت

لتبكي فوق نعش احدى صديقاتها. وسرعان ما نشر القمر في الغابات ذلك السر الكبير من الكآبة الذي يجب ان يرويه لشجرات السنديان ولشواطىء البحار القديمة. ومن حين الى حين كان الكاهن يغمس غصناً مزهراً في ماء منذور.ثم يهز الغصن الرطب ويعطر الليل من بلسم السماء. واحياناً يردد بلحن قديم ابياتاً لشاعر قديم قائلاً: «لقد عبرت كزهرة وجففت مثل عشب الحقول. ولماذا اعطي النور لبائس واعطيت الحياة لاولئك الذين يتألمون من مرارة القلب؟»

«وهكذا غني الرجل المسن. وكان صوته الوقور الموزون يذهب متدحرجاً في سكون الصحارى.

«كان اسم الله والقبر يخرج من كل الاصداء ومن كل السيول ومن كل الغابات. وكان سجع يمامة فرجينيا وسط انهمار سيل في الجبل ورنين الجرس الذي ينادي المسافرين، كل ذلك يمتزج بهذه الاغاني المأتمية فيخيل للمرء انه يسمع في غابات الموت جوقة الاموات البعيدة تجيب على صوت الرجل المنفرد.

«وقام حاجز من الذهب في الشرق وصرخ الصقر فوق الصخور ودخلت عصافير السمور في تجاويف اشجار الدردار. كان ذلك اشارة لموكب اتالا. فحملت الجسد على كتفي ومشى الناسك امامي وهو يحمل رفشاً. وبدأنا النزول من صخرة الى صخرة وكان التقدم في السن والموت يبطئان ايضاً من سرعة خطواتنا. ولدى رؤية الكلب الذي وجدنا في الغابة والذي كان

رسم لنا وهو يقفز من الفرح طريقاً آخر، بدأت اذرف الدموع بغزارة. كان شعر اتالا الطويل الذي تلعب به نسمات الصباح ينشر غطاء ذهبياً على عيني. وكنت انوء تحت الحمل فاضعه مضطراً على العشب واجلس بجانبه لاستعيد قواي. واخيراً وصلنا الى المكان المحدد فنزلنا تحت الجسر. وكان يشاهد رجل متوحش شاب وناسك عجوز وهما راكعان واحد امام الآخر في الصحراء ويحفران بايديهما قبراً لفتاة مسكينة تمدد جسدها بالقرب من هناك في مجرى السيل الجاف.

«وعندما انتهى عملنا نقلنا الجمال الى سريره القرميدي. يا للاسف! كنت آمل في ان احضر لها سريراً آخر! علقت عيني ولاخر مرة على وجه اتالا بعدما اخذت قليلاً من التراب بيدي واحتفظت بسكوت رهيب. ثم نشرت تراب الرقاد على جبهة عمرها ثمانية عشر ربيعاً فرأيت ملامح شقيقتي تختفي تدريجياً. فتنتها تختبىء تحت ستار الابدية وقد ارتقى صدرها لبعض الوقت فوق الارض كزهرة زنبق ابيض من وسط قرميد قاتم. وصرخت عند ذلك: «انظر يا لوبيز الى ابنك وهو يدفن ابنتك!» ثم انهيت تغطية اتالا بتراب الرقاد.

«رجعنا الى المغارة واسررت الى المبشر بعزمي على الاستقرار قربه. وقد اكتشف هذا القديس الذي كان يعرف قلب الرجل، اكتشف افكاري وخديعة ألمي وقال لي: «يا شاكتاس ابن أوتاليسي، عندما كانت اتالا حية كنت ارجوك بنفسي ان تبقى

الى جـانبي، ولكن الآن مصيرك تغـير: انك مجبـر بوطنـك. صدقني يا ابني ان الآلام ليست ابدية ولابد ان تنتهي آجلا ام عاجلاً، لان قلب الرجل ينتهي. ذلك هو احد اسباب شقائنا. ليس في وسعنا حتى ان نبقى اشقياء لمدة طويلة. ارجع الى نهر الميشاسيبيه . اذهب وعز امك التي تبكيك كل يوم والتي هي في حاجة لمساعدتك. علم نفسك من دين اتالا عندما تجد الفرصة، وتذكر انك وعدتها بان تكون طاهراً ومسيحياً. اما انا فسأحرس هنـا قبرهـا. اذهب يـا ابني، ان الله وروح شقيقتـك وقلب صديقك العجوز ستتبعك».

«هذه كانت كلمات رجل الصخرة. كانت سلطته كبيرة جداً وحكمته عميقة الى حد لا يمكن معه الا طاعته . ومنذ اليوم التالي تركت ضيفي الوقور الذي اعطاني نصائحه الاخيرة وهو يشدني الى صدره، كما اعطاني بركته الاخيرة ودموعه الاخيرة. ومررت على القبر ففوجئت بسرير صغير كان يظهر من فوق الموت كما يشاهد ساري سفينة غرقت. فقدرت ان الناسك جاء ليصلي على القبر خلال الليـل. وقد جعلني هـذا البرهـان على الصداقة والايمان ابكي وابكي. وكنت على وشك ان افتح القبر لاشاهد حبيبتي مرة اخرى ولكن هاتفاً دينياً امسكني عن ذلك. فجلست على الارض التي قلبت منذ قليل وبقيت مدفوناً وسط احلام مريرة واضعاً مرفقي على ركبتي ورأسي فيِ يـديّ. آه يا رنيـه، هناك رحت جدياً افكر في تفاهة حياتنا وفي تفاهة مشاريعي! يا

ولدي ومن لم يقم بمثل هذا التفكير! انني لم اعد سوى ايل عجوز اكتسي من السنين بالبياض. فعلى الرغم من تراكم ايام عديدة على رأسي وعلى الرغم من تجربة طويلة في الحياة لم التق الرجل الذي لم يخدع في احلام سعادته ولا القلب الذي لم يقاس جرحاً خفياً. ان أصفى قلب في الظاهر يشبه البئر الطبيعية وسهل الألاشو Alachua : يبدو سطح الماء هادئاً وصافياً ولكن عندما تنظر الى عمق الحوض تشاهد تمساحاً كبيراً تغذيه البئر بمائها.

« وبعدما رأيت الشمس تطلع وتغيب على هذا المكان المؤلم وفي اليوم التالي ولدى سماع اول صوت للقلق تهيأت لاترك القبر المقدس . وقد تركته كأنني تركت الحد الذي يجب ان انطلق منه الى صراط الفضيلة . ثلاث مرات استحضرت روح اتالا ، وقد رد الجني على صوتي ثلاث مرات تحت القبة المأتمية. ثم أدّيت التحية للشرق ومن بعيد في طرقات الجبل شاهدت الناسك يذهب الى كوخ رجل فقير. ثم صرخت وانا اركع على ركبتي واعانق القبر: « نامي بسلام في هذه الأرض الغريبة ايتها الفتاة الكثيرة الشقاء! وكثمن لحبك ولنفيك ولموتك ستهجرين حتى من شاكتاس! » عندئذ ذرفت امواجاً من الدموع وانا افترق عن ابنة لوبيز ثم نزعت نفسي من هذه الاماكن وانا اترك على قدم صرح الطبيعة صرحاً اكثر هيبة : قبر الفضيلة المتواضع » .

الخاتمة

روى شاكتاس بن أوتاليسي، الناتشه، هذه القصة للأوروبي رنيـه وقد رددها الآباء لأولادهم. وأنا، المسافـر إلى الأراضي البعيدة، رويت بوفاء ما علمني إياه الهنود. وقد رأيت في هذه القصة لوحة للشعب الصياد وللشعب الفلاح، كما رأيت الدين، أول قوة مشترعة للبشر، ورأيت مخاطر الجهل والتحمّس للدين في صراعها مع الحق والمحبة والروح الحقيقية للانجيل. كما رأيت صراعات الأهواء والفضائل في قلب بسيط. وأخيراً رأيت انتصار المسيحية على الشعور الأكثر اندفاعاً وعلى الخوف الأكثر رعباً وهما الحب والموت. وعندما أخبرني رجل من السيمينول هذه القصة وجدتها مثقفة كثيراً وجميلة إلى حد الكمال، لأنه وضع فيها زهرة الصحراء وفتنة الكوخ وبساطة في التحدث عن الألم، لا أزعم أني كنت وفياً لها في طريقة سرديب. وبقي، بعد، شيء واحد عليّ أن أعرفه. كنت أتساءل ماذا حل بالأب أوبري ولا أحد كان في استطاعته أن يجيبني وكنت سأظل على جهـلي. لو لم تكتشف العناية الإلهية التي تقود كل شيء ما كنت أفتش عنه.

وإليكم كيف حصلت الأمـور: لقد تجـولت في شواطىء نهر المشاسيبيه الذي كان يشكل في ما مضى الحد الجنوبي لـ «النوفيل فرانس». كانت رغبتي أن أشاهد في الشمال المعجزة الأخرى لتلك الأمبراطورية وهي شلالات نياغارا. وصلت قريباً من هذه الشلالات في البلد القديم للأغونوسيوني Agonnonsioni عندما شاهدت ذات صباح وأنا اجتاز سهلاً امرأة جالسة تحت شجرة وهي تمسك بطفل ميت على ركبتيها. فاقتربت بلطف من الأم الشابة وسمعتها تقول:

«لو كنت بقيت معنا يا ولدي العزيز لكانت يدك قد وترت القوس بِاناقة! وكانت ذراعك قد كبحت جماح الدب الهائج، وعلى قمم الجبال خطواتك قد تحدت الجدي وهو يعدو. أيها يا فاقم الصخرة الأبيضّ لقد ذهبت وأنت صغير جـداً إلى بلد الأرواح! وكيف تعمل لكي تعيش فيه؟ إن أباك ليس هناك لكي يعزيك بصيده. سوف تبرد ولن تعطيك أي روح جلوداً لكي تغطي جسمك.

آه! عليّ أن أسرع لالتحق بك لكي أغني لك أغنيات وأقدم لك صدري».

كانت الأم الشابة تغني بصوت مـرتجف وتهز الـطفل عـلى ركبتيها وترطب شفتيه من الحليب الأمومي. كانت تقدم للموت بسخاء كل العناية التي تعطى للحياة.

كانت تريد ان تجفف جسد ولدها على غصون شجرة حسب

العادة الهندية لكي تحمله إلى قبور آبائه. ثم جردت المولود الجديد من ثيابه ونفخت قليلاً على فمه وقالت: «يا روح ابني، أيتها الروح الفاتنة، إن أباك قد خلقك في الماضي على شفتي بواسطة قبلة، ولكن ويا للأسف فإن شفتي ليست لهما القدرة لاعطائك ولادة جديدة». وكشفت عن صدرها وعانقت هذه البقايا الباردة التي كانت انتعشت من نار القلب الأمومي لو أن الله لم يحتفظ لنفسه وحدها بالنفس الذي يعطي الحياة. ثم نهضت واخذت تفتش بنظرها عن شجرة يمكنها أن تعرض ابنها على أغصانها. واختارت شجرة القيقب ذات الزهور الحمراء المكشكشة بشرائط من الأبينوس والتي تنبعث منها العطور المتوحشة. بإحدى يديها أنزلت الأغصان السفلى وعلى يدها الأخرى وضعت الجسد، ثم تركت الغصن الذي استعاد وضعه الطبيعي وهو يحمل جثة البراءة مختبئة بين أوراق الشجر العطرة.
آه كم هي مؤثرة هذه العادة الهندية! لقد شاهدتك في حقولك الموحشة أيتها الآثار الفخمة العائدة للكراسيس Crassus وللقياصرة Césars وإنني أفضل عليك هذه القبور المبعثرة في الهواء والعائدة للرجل المتوحش، كما أفضل هذه الأضرحة المكسوة بالزهور والخضرة والتي تعطرها النحلة وتهزها النسمة، وحيث يبني البلبل عشه ويصدح بأغنيته النائحة. وإذا كانت جثة فتاة شابة علقتها يد عشيق على شجرة الموت تبعث الفتنة فإن الفتنة تتضاعف عندما تكون البقايا لطفل محبوب وضعته أم في مسكن العصافير الصغيرة.

واقتربت من المرأة التي كانت تئن على شجرة القيقب، ووضعت يدي على رأسها وصرخت صرخات الألم الثلاث. ومن دون أن أحدثها أخذت مثلها غصناً وأبعدت الحشرات التي كانت تطن حول جسد الطفل. ولكني احترست من أن أفزع يمامة مجاورة. أما الهندية فقالت لها «يا يمامة إذا لم تكوني روح ولدي التي طارت فإنك ولا شك أم تفتش عن شيء لتبني به عشاً. خذي من هذا الشعر الذي لن أغسله بعد الآن في ماء الأسكين، خذي منه لتجعلي صغارك ينامون، ولتحفظهم الروح الكبيرة لك!».

ولكن الأم بكت من الفرح وهي تشاهد تهذيب الرجل الغريب... وفيما نحن كذلك، اقترب شاب وقال: «يا ابنة سالوتا Céluta اسحبي ولدنا ولن نقيم طويلاً بعد الآن هنا وسنذهب عند مطلع أول الشمس». فقلت عند ذاك: «أيها الأخ أتمنى لك سماء زرقاء وكثيراً من الجداء ومعطفاً من القندس، والأمل. ألست أنت من هذه الصحراء؟». «كلا، أجاب الشاب، نحن منفيون ونفتش عن وطن». ثم خفض المحارب رأسه إلى صدره وراح بطرف قوسه يسقط رؤوس الأزهار. ورأيت أن في أعماق هذه القصة دموعاً. فالتزمت الصمت. ثم سحبت المرأة الطفل من أغصان الشجرة وأعطته زوجها لكي يحمله. عندئذ قلت: «هل تسمحان لي بأن أشعل ناراً الليلة؟». فأجاب المحارب: «لا كوخ لنا، فإذا أردت أن تتبعنا فإننا نخيم على ضفة الشلالات».

فأجبت: «إنني أريد ذلك». وذهبنا معاً.

وصلنا الى ضفة الشلالات التي كانت تعلن عن نفسها بهدير فظيع. انها مؤلفة من نهر نياغارا الذي يخرج من بحيرة اريه Erié ويصب في بحيرة اونتاريو وعلوه العمودي يبلغ ١٤٤ قدماً. ومن بحيرة اريه حتى السو Saut يجري النهر بانحدار سريع. وعند السقوط لا يشبه نهراً بل يشبه بحراً تتدفق سيوله عند فتحة الهاوية الفاغرة. وينقسم الشلال فرعين ويتعرج بشكل حدوة حصان. وبين الشلالين تتقدم جزيرة وقد حفرت في الارض وتتدلى باشجارها وسط فوضى الامواج. وتستدير كتلة النهر التي تتدفق نحو الجنوب على شكل اسطوانة واسعة ثم تجري على شكل طبقة من الثلج وتسطع في الشمس بكل الالوان. وتنزل الكتلة التي تسقط نحو الشرق وسط ظل مخيف ويخيل للمرء انها عمود ماء من الفيضان. والف قوس قزح تنحني وتتشابك، على الهاوية. وعندما يسقط الماء على الصخرة المهتزة يرقد على شكل زوبعة من الزبد ترتفع فوق الغابات مثل دخان حريق واسع. وتزين المشهد اشجار الصنوبر واشجار الجوز وصخـور ممزقة على شكل اشباح. وتنزل نسور جرفها مجرى الهواء وهي تحوم في اعماق الهوة. وهناك حيوانات شرهة تتعلق بواسطة ذيولها المرنة على طرف غصن منحدر لكي تصطاد في الهوة حيث الظبـاء الضخمة والدببة. وبينما كنت اتأمل هذا المشهد بلذة ممزوجة بالرعب تركتني الهندية وزوجها. وفتشت عنهما وانا اصعد النهر فوق الشلال وسرعان ما وجدتهما في مكان مناسب لحزنهما: كانا

مستلقيين على العشب مع عجوزين قرب بعض الهياكل العظمية البشرية المغطاة بجلود الحيوانات. وتعجبت لما كنت اشاهده منذ ساعات. جلست قرب الام الصبية وقلت لها: «ما كل هذا يا شقيقتي؟» فاجابتني: «يا شقيقي هذه أرض الوطن. انها رماد اجدادنا الذين يتبعوننا في منفانا». «وكيف وصلتم الى مثل هذه المصيبة؟» فاجابت ابنة سالوتا: «نحن بقايا الناشاز. فبعد المجزرة التي ارتكبها الفرنسيون بحق امتنا لكي ينتقموا لاشقائهم، فان اشقاءنا الذين تمكنوا ان يهربوا من المنتصرين وجدوا مأوى عند جيراننا الشيكاساس Chikassas. بقينا هنا مدة طويلة ونحن مطمئنون ولكن قبل سبعة اشهر استولى الرجال البيض من فرجينيا على اراضينا مدعين انها اعطيت لهم من ملك في اوروبا. وقد رفعنا اعيننا الى السماء وحملنا بقايا اجدادنا واخذنا طريقنا خلال الصحراء. لقد انجبت خلال المسيرة. ولما كان حليب صدري سيئاً بسبب الالم فقد جعل الطفل يموت». وكانت الام الشابة وهي تقول ذلك تمسح عينيها بشعرها فبكيت انا ايضاً. ثم ما لبثت ان قلت: «يا شقيقتي فلنعبد الروح الكبيرة، ان كل شيء يحصل بامرها. كلنا مسافرون وقد كان اباؤنا مثلنا ولكن ثمة مكاناً حيث سنستريح. ولو لم اكن اخشى ان اكون متطفلاً كالرجل الابيض لسألتك اذا كنت سمعت شيئاً عن الناتشه شاكتاس؟».

لدى سماعها هذه الكلمات نظرت الهندية اليّ وقالت: «من

كلمك عن شاكتاس الناتشه؟« فاجبت: «انها الحكمة»، فقالت الهندية: «ساقول لك ما اعرف لانك ابعدت الذباب عن جسد ولدي ولانك قلت كلاماً جميلاً عن الروح الكبيرة. انني ابنة الاوروبي رنيـه الذي تبناه شاكتاس. وان شاكتاس الذي تعمد ورنيه الشقي قد هلكا وسط المجزرة».

فقلت منحنيـاً: ان الانسان يتنقل دائماً من الم الى آخـر. ويمكنك ان تعلميني شيئاً عن اخبار الاب اوبـري؟ «فقالت: لم يكن اوفر حظاً من شاكتاس. ان الشيروكوا Chéroquois وهم اعداء للفرنسيين قد دخلوا إلى مركزه وقادهم إلى هناك صوت الجرس الذي كان يقرع لنجدة المسافرين. كان الاب أوبري يمكنه ان يهرب وينقذ نفسه ولكنه لم يشـأ ان يترك اولاده، وبقي ليشجعهم بامثولته على الموت. لقد احترق وهو يتعذب كثيراً ولم يستطعوا ان ينتزعوا منه صوتاً يمكن ان يسيء الى الهه أو الى وطنه. ولم يتوقف خلال تعذيبه عن الصلاة لجلاديه او التعاطف مع مصير الضحايا. ولكي ينتزعوا منه اشارة او علامة ضعف فان الشيروكوا جلبوا قرب قدميه رجلاً متوحشاً مسيحياً كانـوا شوهوه بشكل مريع. ولكنهم فوجئوا كثيراً عندما شاهدوا الرجل الشاب يركع ويقبل جراح الناسك العجوز الذي كان يصرخ فيه: «يا ولدي لقد عرضونا للفرجة امام الملائكة وامام الرجال». فـاهتاج الهنـود ووضعوا قضيب حـديد سـاخن احمر في حلق الناسك لكي يمنعـوه من الكلام. وعنـدما لم يعـد في امكان الناسك تعزية الرجال فارق الحياة.

«ويقال ان الشيروكوا الذين تعودوا مشهد تعذيب المتوحشين بدوام وبمثابرة لم يتمكنوا من الامتناع عن الاعتراف بان شجاعة الاب اوبري المتواضعة كانت تحتوي على شيء لم يعرفوه، ويتفوق على كل شجاعة الارض. وان كثيراً منهم وقد اذهلهم هذا الموت اعتنقوا المسيحية.

«وبعد سنوات فان شاكتاس، لدى رجوعه من ارض الرجال البيض، علم بمصائب رئيس الصلاة فذهب ليجمع رماده ورماد اتالا. وصل الى حيث كان يقع مركز الارسالية ولكنه استطاع بالكاد ان يتعرف عليه! وقد فاضت البحيرة وتحول السهل الى مستنقع، والجسر الطبيعي انهار ودفن تحت انقاضه قبر اتالا وغابات الموت. وقد تجول شاكتاس طويلاً في هذا المكان وزار مغارة الناسك التي وجدها ملآنة بالشوك والعليق وفي داخلها ظبية كانت ترضع رشاها. فجلس على صخرة ليلة الموت حيث لم ير الا بعض الريش الواقع من جناح عصفور مر عابراً. وبينما كان يبكي خرجت افعى المبشر الاليفة من العليق المجاور وجاءت ترتوي على قدميه. فقام شاكتاس وضمها الى صدره، كونها الصديق الوفي الذي صمد وحده وسط هذه الانقاض وقد روى ابن اوتاليسي انه لدى اقتراب الليل غالباً ما كان يشاهد ظلال اتالا والاب اوبري ترتفع وسط بخار الغسق، وهذه الرؤ ياملأتـه برعب ديني وبفرح محزن.

«وبعدما فتش دون جدوى عن قبر شقيقته وقبر الناسك كان

على وشك ان يترك هذه الامكنة، فاخذت ظبية المغارة تقفز امامه وقد وقفت عند قدم صليب مركز الارسالية. وكان هذا الصليب محاطاً لنصفه بالماء وخشبه قد قرضه الطحلب، كما ان بجع الصحراء كان يحط على ذراعيه المنحدرتين. وشعر شاكتاس بان الطبيعة الحافظة للجميل قد قادته الى قبر مضيفه. فحفر تحت الصخرة التي كانت تستعمل في الماضي كمذبح ووجد فيها بقايا رجل وامرأة. ولم يشك قطعا في ان هذه البقايا هي بقايا الكاهن والعذراء والتي ربما دفنتها الملائكة في هذا المكان، فلفها بجلود الدببة وسار على طريق بلده حاملاً اياها على كتفيه حيث كانت ترن كجعبة الموت. وفي الليل كان يضعها تحت رأسه ويحلم احلام الحب والفضيلة. ايها الرجل الغريب يمكنك ان تشاهد هنا هذا الغبار مع غبار شاكتاس نفسه!».

عندما انتهت الهندية من التلفظ بهذه الكلمات نهضت واقتربت من الرماد المقدس وسجدت امامه بصمت. ثم ابتعدت بخطوات كبيرة وصرخت: «هكذا يمر على الارض كل ما كان طيباً وطاهراً وحساساً! ايها الرجل لست سوى حلم مؤلم. انك لا توجد الا بالمحنة ولست شيئاً الا بحزن روحك وكآبة افكارك الابدُية».

شغلتني هذه الافكار طوال الليل. وفي اليوم التالي وعند طلوع النهار تركني مضيفاي. وكان المحاربون الشباب قد فتحوا المسيرة والزوجات يسرن في الاخير. وكان المحاربون

يحملون رفات القديسين بينما النســاء يحملن اطفالهن الحديثي الولادة والرجال المسنون يسيرون في الوسط وقد وضعوا بـين اجدادهم واحفادهم، بين الذكريات والامل، بين الوطن الضائع والوطن القادم. آه كم تجري دموع عندما يغادر المرء هكـذا مسقط رأسـه وعندمـا يشاهـد من اعلى رابيـة المنفى، وللمرة الاخيرة، السقف الذي تغذى تحته ونهر الكوخ الذي لا يزال يجري بحزن خلال حقول الوطن الوحيدة!

«ايها الهنود التعساء الذين شاهدتهم يتيهون في صحارى العالم الجديد مع رفات اجدادهم، انتم الذين اعطوني الضيافة برغم بؤسهم، لن استطيع ان اردها لكم اليوم، لاني اهيم مثلكم تحت رحمة البشر. وقد كنت اقل حظاً منكم في منفاي فلم احمل معي عظام ابائي.



مدام دو ریکامییه ملهمه شاتوبریان



حين وصل رنيه عند الناتشيز اضطر ان يتزوج امرأة لكي يتمشى مع عادات الهنود. ولكنه لم يكن يعيش معها. وكان ميل الى الكآبة يجره نحو اعماق الغابة حيث كان يمضي وحيداً اياما كاملة. كان يبدو متوحشا بين المتوحشين. وباستثناء شاكتاس والده بالتبني والاب سويل Souël المبشر في قلعة روزالي Rosalie كان رنيه قد تخلى عن العلاقات مع البشر. وقد سيطر هذان العجوزان بقوة على قلبه: الاول بسبب تساهل محبب والاخر بسبب قساوة متطرفة. ومنذ صيد الكاستور، عندما روى الساشام الاعمى مغامراته لرنيه وهذا يرفض ان يتحدث عن مغامراته الخاصة. وقد اراد شاكتاس والمبشر ان يتعرفا على المصيبة التي قادت رجلا اوروبيا كريم النسب الى القرار الغريب بان يدفن نفسه في صحارى لويزيان، لكن رنيه كان

يقول دائماً، كدافع لرفضه الجواب، ان قصته غير ذات شأن، وليس فيها سوى محض افكار واحاسيس. ثم كان يضيف : «اما الحدث الذي جعلني اصمم على الانتقال الى اميركا، فواجبي ان ادفنه في النسيان الأبدي».

وانقضت بضع سنوات على هذا المنوال من دون ان يتمكن العجوزان من ان ينتزعا منه سرَّه. وذات يوم تلقى رسالة من اوروبا بواسطة مكتب الارساليات الخارجية ضاعفت من حزنه الى حد أنه كان يتهرب حتى من صديقيه العجوزين. مما زادهما الحاحا عليه لكي يفتح لهما قلبه. وقد سعيا الى ذلك بقدر من اللطف والسلطة، في آن ، اضطره اخيراً لارضائهما، فاجتمع عند ذلك بهما لكي يروي لهما لا مغامرات حياته لأنه لم يمر بأي مغامرات ولكن ليروي لهما ، مشاعر روحه السرية.

في ٢١ من الشهر الذي يسميه المتوحشون «قمر الزهور» ذهب رنيه الى كوخ شاكتاس، وتأبط الساشام وقاده الى تحت شجرة ساسفراس على ضفة نهر الميشاسيبيه. ولم يتأخر الأب سويل عن المجيء في الموعد المحدد. وكان الفجر يطلع. وبعد مسافة في السهل كانت تشاهد قرية الناتشيز مع غابتها من اشجار التوت واكواخها التي تشبه خلايا النحل. وظهرت الجالية الفرنسية وحصن روزالي من اليمين على ضفة النهر. وكانت الخيم والمنازل التي بني نصفها والقلاع التي بوشر بناؤها

والأراضي المستصلحة للزراعة والتي ملأها العبيد ومجموعات البيض والهنود، كان ذلك كله يشكل في هذه الفسحة الصغيرة التناقض الموجود بين العادات الاجتماعية والعادات المتوحشة. في اتجاه الشرق، في العمق، كان ظهور الشمس قد بدأ بين القمم المتكسرة لجبال الابالاش Apalaches التي ترتسم كاحرف لازوردية في اعالي السماء الذهبية. وفي الغرب كان نهر الميشاسيبيه يدفع امواجه وسط صمت رائع ويشكل حافة المشهد بعظمة خارقة.

اعجب الرجل الشاب والمبشر بعض الوقت بهذا المشهد الجميل وهما يشفقان على رجل الساشام الذي لم يعدٍ يستطيع التمتع به. ثم جلس الأب سويل وشاكتاس على العشب الأخضر عند جذع الشجرة واخذ رنيه محله بينهما. وبعد لحظة من الصمت خاطب صديقيه القديمين على النحو الآتي: «لا استطيع وانا ابدأ روايتي الا ان اشعر بالخجل. ان السلام الذي يسود قلبيكما ايها العجوزان المحترمان، وهدوء الطبيعة من حولي، يجعلان وجهي يحمر خجلاً من اضطرابي الروحي».

«كم ستشفقان علي! وكم سيبدو لكما قلقي الدائم بائساً! انتما اللذان استنفدتما كل احزان الحياة ماذا تفكران عن رجل شاب بلا قوة وبلا فضيلة، رجل يجد في نفسه عذابه ولا يستطيع ان يشكو الا من الاضرار التي يحدثها لنفسه؟ لا تديناه فقد عوقب كثيراً!

«لقد كلفت امي حياتها لدى مجيئي الى هذا العالم، وقد سحبت من احشائها بواسطة الحديد. كان لي شقيق باركه والدي لأنه ابنه البكر. اما انا فقد سلموني باكراً الى ايد غريبة وربيت بعيداً عن السقف الابوي.

«كان مزاجي عنيفا وطبعي متقلباً. كنت انتقل من الضجة والفرح الى الصمت والحزن، اجمع من حولي اصدقائي الشباب ثم اتركهم فجأة لأذهب واجلس على انفراد لأتأمل الغيمة الهاربة او اسمع المطر وهو يقع على الأوراق.

«وكنت أرجع كل خريف الى القصر الأبوي الواقع وسط الغابات قرب بحيرة في مقاطعة بعيدة.

«ولما كان لا بد من الخجل والكبت امام والدي، فلم اكن لارتاح الا قرب شقيقتي اميلي Amélie. ان انسجاما لذيذا في المزاج والذوق قد وحد بيني وبين هذه الشقيقة بصورة وثيقة. كانت اكبر مني سنا بقليل. وكنا نعشق تسلق الهضاب معا والاندفاع على سطح البحيرة واجتياز الغابات عند سقوط الأوراق: كانت هذه نزهات لا تزال ذكراها تملأ روحي بالملذات. يا اوهام الطفولة والوطن الا تضيعين عذوبتك ابداً؟

«كنا مرات نتمشى بصمت ونحن نصغي الى هدير الخريف الأصم او الى صوت الأوراق اليابسة التي كنا نجرها بحزن تحت

خطواتنا، ومرات كنا في العابنا البريئة نطارد السنونو في المراعي، وقوس القزح على الهضاب الممطرة، ومرات كنا نتمتم اشعارا يوحي بها لنا مشهد الطبيعة. كنت شابا لذا كنت اكتب الشعر. ليس هناك اكثر شاعرية من قلب ابن السادسة عشرة في نضارة اهوائه . ان صباح الحياة هو مثل صباح اليوم مليء بالطهارة والصور والانسجام.

«وغالباً ما سمعت، أيام الأحاد والأعياد، وفي الغابة الكبيرة ومن خلال الاشجار، رنين الجرس البعيد الذي كان ينادي رجل الحقول الى المعبد. وكنت اسمع بصمت هذه الوشوشة الورعة وانا مسنود على جذع شجرة الدردار. كل رنة من رنات برونز الجرس كانت تحمل الى روحي البسيطة براءة العادات الريفية وهدوء الوحدة وفتنة الدين والكآبة اللذيذة لذكريات طفولتي الأولى: آه اي قلب، لو كان سيئاً، لم يختلج لصوت اجراس مسقط رأسه، وتلك الأجراس التي اهتزت فرحاً على سريره والتي اعلنت قدومه الى الحياة وسجلت اول نبضة لقلبه، والتي نشرت في كل الاماكن المحيطة فرحة والده، وآلام امه وافراحها التي لا توصف؟ ان كل شيء يوجد في الاحلام البهيجة حيث يغرقنا صوت جرس مسقط رأسنا: الدين والوطن والعائلة والسرير والقبر والماضي والمستقبل.

«صحيح اننا كنا، اميلي وانا نتمتع اكثر من غيرنا بهذه الافكار الرزينة والناعمة، لأنه كان لكل منا بعض الحزن في

اعماق قلبه. لقد ورثنا ذلك عن الله او عن امنا.

«غير ان والدي اصيب بمرض سابقه خلال ايام قلائل الى القبر، ولقد فارق الحياة بين ذراعي. تعلمت ان اعرف الموت على شفتي الذي كان اعطاني الحياة. هذا الانطباع كان كبيراً وما زال قائما. كانت تلك اول مرة يظهر فيها خلود الروح بوضوح اما عيني.

«ظاهرة اخرى ثبتت لي هذه الفكرة العالية: ان الملامح الابوية اتخذت في النعش شكلاً ساميا، فلماذا لا يكون هذا اللغز العجيب كاشارة لخلودنا؟ ولماذا لم يحفر الموت الذي يعلم كل شيء على جبين ضحيته اسرار عالم آخر؟ ولماذا لا اجد في القبر رؤ ية كبيرة عن الخلود؟

«اميلي، وقد انهكها الألم، انسحبت الى اعماق برج حيث كانت تسمع دوي غناء كهنة الموكب ورنين الجرس المأتمي تحت قبة القصر القوطي.

«رافقت والدي الى مثواه الأخير حتى انغلقت الأرض على جثته وضغط الخلود والنسيان عليه بكل قوتها. وفي المساء كان عدم الاكتراث يمر على قبره وباستثناء ابنته وولده فقد بدا كأن شيئاً لم يكن.

«اصبح علينا ان نغادر البيت الابوي الذي اصبح ارث شقيقي. وانسحبت مع اميلي عند اقرباء قدامى.

«توقفت أمام سبل الحياة، هذه السبل الخادعة، ورحت اتفحصها الواحدة تلو الأخرى غير متجاسر على سلوك احداها. وكانت اميلي تحدثني عن سعادة الحياة الدينية وتقول لي انني الرابط الوحيد الذي يشدها الى الدين. كانت تقول ذلك وعيناها ترمقاني بحزن.

«وغالباً ما كنت اتوجه، وقد اثرت فيَّ هذه المحادثات الورعة، الى دير مجاور لمكان اقامتي الجديدة. وفي لحظة من اللحظات استولى عليَّ اغراء الاختباء فيه. كم هم سعداء اولئك الذين انهوا رحلتهم دون ان يغادروا المرفأ والذين لم يعشوا مثلي اياما عديمة الجدوى على الأرض.

«ان الاوروبيين الدائمي الحركة والجلبة، مضطرون ان يبنوا العزلات لأنفسهم وكلما اصبح قلبنا صاخباً ومفعمًا بالضجيج اجتذبنا الهدوء والسكون. وهذه الملاجىء المفتوحة في بلادنا للبؤساء والضعفاء غالباً ما تكون مخبأة في اودية صغيرة تحمل الى القلب الشعور الغامض بالمصيبة والامل في مأوى، واحياناً تكتشف هذه الملاجىء في مواقع عالية حيث الروح الدينية مثل نبتة الجبال تبدو كأنها ترتفع الى السماء لتقدم لها عطورها.

«لا ازال اشاهد هذا المزيج المهيب من المياه والغابات، كذلك الدير القديم حيث فكرت ان اختلس حياتي من نزوات القدر. ولا ازال اتوه عند الغروب في تلك الاروقة الداوية المنعزلة.

«وعندما كان الفجر يضيء نصف إضاءة ركائز القناطر ويرسم ظله على الجدار المقابل، كنت اتوقف لأتأمل الصليب الذي يشير إلى حقل الموت والأعشاب الطويلة التي تنمو بين أحجار القبور. أيها الرجال الذين عاشوا بعيداً عن العالم ومروا من سكون الحياة الى سكون الموت، كم كانت قبوركم تملأ قلبي قرفاً من الأرض! فجأة غيرت خططي، سواء بسبب التقلب الطبيعي عندي او بسبب مواقف مسبقةلديضد حياة الدير. وقررت ان أسافر . فودعت شقيقتي التي ضمتني بين ذراعيها بحركة كانت تشبه الفرح كما لو أنها سعيدة بأن تتركني، ولم أستطع أن أمنع نفسي من التفكير، بمرارة ، في تناقض الصداقات الإنسانية.

«ومع ذلك اندفعت وحيداً، وأنا مفعم بالنشاط، فوق ذلك المحيط العالمي العاصف الذي لم أكن لأعرف مرافئه ولا صخوره. لقد زرت باديء بدء الشعوب التي لم تعد موجودة، فقد ذهبت لأجلس على أنقاض روما واليونان، وهما بلدان لهما من التاريخ والذكريات ما لهما، وحيث القصور مدفونة في التراب وأضرحة الملوك مخبأة في العليق. إنها قوة الطبيعة وضعف الرجل! إن قشة من العشب تخترق رخام هذه القبور الأكثر صلابة والتي لن يتمكن كل هؤلاء الأموات من رفعها ابداً!

«احياناً كان يظهر عمود عال وهو واقف وحده في صخرة كما ترتفع فكرة كبيرة، على مراحل، في روح دمرها الزمن والشقاء.

«كنت أتأمل في هذه الآثار التذكارية خلال كل ما مر بي من حوادث وفي كل ساعات النهار. وأحياناً كانت الشمس التي شهدت إرساء أساسات هذه المدن تغيب بهية امام عيني، على أنقاضها ، وأحياناً كان القمر، وهو يطلع في سماء صافية بين قارورتي رفات وقد تحطم نصفهما-كان يضيء لي القبور الشاحبة. وعلى ضوء هذا الكوكب الذي يغذي الأوهام كنت أعتقد اني اشاهد جنّي الذكريات جالساً يفكر الى جانبي.

«ولكنني تعبت من التفتيش في هذه النعوش حيث لم أكن لأحرك معظم الأحيان سوى غبار مجرم.

«لقد أردت أن أرى إذا كانت الأجناس الحية تقدم لي فضائل أكثر أو مصائب أقل من الأجناس التي تلاشت. وبينما كنت أتنزه ذات يوم في مدينة كبيرة وأنا امر وراء قصر، في ساحة متفرقة ومقفرة، شاهدت تمثالاً يشير بإصبعه إلى مكان مشهور بتضحية. أذهلني السكون الذي يسيطر على هذه الأماكن والهواء وحده يئن حول الرخام المأساوي. العمال ينامون بلا اكتراث عند قدم التمثال او ينحتون حجاراً وهم يصفرون. سألتهم عن معنى هذا الأثر التذكاري: بعضهم تمكن بالكاد أن يجيبني وأما الباقون فكانوا يجهلون الكارثة التي يرويها هذا الأثر. وقد علمتني هذه الحادثة اكثر من أي شيء آخر الحجم الحقيقي لأحداث الحياة، وكم نحن تافهون في النهاية. ماذا حل بأولئك الأشخاص الذين أحدثوا كثيراً من الضجة؟ لقد تقدم الزمن خطوة وتجدد وجه

الأرض.

«كنت افتش في رحلاتي أكثر ما افتش عن الفنانـين وعن أولئك الرجال اصحاب النزعة الإلهية الذين يغنون الله على نغم القيثارة وعن سعادة الشعوب التي تحترم القوانين والدين والقبور.

«إن هؤلاء المنشدين هم من سلالة إلهية. إنهم يملكون الموهبة الوحيدة الأكيدة التي اهدتها السماء الى الأرض. حياتهم بسيطة وسامية ، كأنهم يحتفلون بالآلهة بفم من الذهب وهم ابسط الرجال ويتحدثون مثل الرجال الخالدين او مثل الأطفال. إنهم يفسرون قوانين الكون ولا يمكنهم فهم ابسط شؤون الحياة. إن لهم افكاراً رائعة عن المـوت ويموتـون وهم لا يشعرون مثـل الأطفال الحديثي الولادة.

«على قمم كاليدونيا انشد لي آخر شاعر غنائي سُمع في هذه الصحارى، القصائـد التي كان بـطل من الأبطال يعزّي بها شيخوخته. كنا جالسين على أربعة أحجار قضمها الطحلب، وكان سيل يجري عند أقدامنا، والجدي يرعى على مسافة بين أنقاض برج. وكان هواء البحار يصفر عـلى الخليج في كـونا Cona حالياً، وضعت الـديانـة المسيحية، وهي إبنـة الجبال العالية، صلباناً على الآثار التذكارية لأبطال مورفن Morven ولما كانت مسالمة بقدر ما هي آلهة سلما Selma نعشق الحرب، فقد اخذت المسيحية تحرس القطيع حيث كان فينقال Fingal يشن حرباً ، كما أنها نشرت ملائكة في الغيوم التي كانت تسكنها

اشباح قاتلة.

«قدمت لي ايطاليا القديمة الضاحكة مجموعة روائها . وبأي رعب مقدس وشاعري كنت اتوه في هذه الأبنية الواسعة. التي كرستها الفنون للدين! يا لها متاهة من الأعمدة! وما أروع هذا التعاقب في عقود الجسور! وكم هي جميلة تلك الأصوات التي تسمع حول القبب وتشبه هدير الأمواج في المحيط ووشوشة الرياح في الغابات أو صوت الله في معبده! إن المهندس المعماري يبني، بمعنى من المعاني، افكار الشاعر ويجعلها قابلة للمس الحواس.

«ماذا تعلمت مع كل هذا التعب! لا شيء أكيد بين القدامى ولا شيء جميل بين الحديثين . إن الماضي والحاضر يشكلان تمثالين غير مكتملين: أحدهما سحب وهو مبتور من بين أنقاض السنين والآخر لم يحصل بعد على كماله من المستقبل.

«ولكن ربما، يا صديقي الكبيرين، انتما خصوصاً رجلا الصحراء، الم تتعجبا لكوني، في روايتي لرحلاتي، لم أحدثكما مرة واحدة عن آثار الطبيعة؟

«ذات يوم صعدت إلى قمة جبل الأتنا، وهو بركان يحترق وسط جزيرة. رأيت الشمس تطلع في الأفق الشاسع الأبعاد من فوقي، وكانت صقليا تبدو منحصرة في نقطة على قدمي بينما البحر منبسط من بعيد في الفضاء. ووسط هذا المشهد العمودي

كانت الأنهر تبدو لي خطوطاً جغرافية مرسومة على خريطة. ولكن بينما كانت عيناي من جهة تشاهد هذه الأشياء فقد كانت من جهة اخرى تغرق في فوهة الأتنا الذي اكتشفت احشاءه المحترقة بين فورات من البخار الأسود.

«إن رجلاً مفعمًا بالأهواء جالساً على فوهة بركان وهو يبكي على الناس الذين بالكاد يشاهد منازلهم عند قدميه. ليس، بلا شك ايها الشيخان، سوى شيء جدير بشفقتكما. ولكن مهما كان رأيكما في رنيه فإن هذا المشهد يقدم لكما صورة عن خلقه وعن سيرته: فلقد كان امام أعيني، طوال حياتي خلق شاسع ولا يمكن ادراكه بالحواس، وهوة مفتوحة إلى جانبي».

«نطق رنيه بهذه الكلمات واسترسل فجأة في الأحلام. وكان الأب سويل ينظر إليه بتعجب الساشام العجوز الأعمى الذي لم يعد يسمع الرجل الشاب يتكلم، يتساءل بدوره عن هذا السكوت.

كان نظر رنيه عالقاً على مجموعة من الهنود يمرون بفرح في السهل. وفجأة بدا عليه التحنق وهتف:

«أيها المتوحشون السعداء! ليتني استطيع التمتع بالسلام الذي يرافقكم دائمًا. بينما كنت أجتاز الأفكار والامصار مع قليل جداً من الجدوى، فإنكم وانتم جالسون بهدوء تحت سندياناتكم، تدعون الأيام تمر دون أن تعدوها. إن حجتكم كانت تستند إلى

حاجاتكم وكنتم تصلون، أحسن مني، إلى ثمرة الحكمة مثل الطفل بين الألعاب والنوم. وإذا كانت هذه الكآبة التي تنبعث من زيادة في السعادة تدخل إلى روحكم أحياناً، فإنكم لا تلبثون أن تخرجوا من هذا الحزن العابر ونظركم المرتفع نحو السماء يفتش عن ذلك الشيء المجهول الذي يشفق على المتوحش المسكين».

وهنا انطفأ صوت رنيه من جديد وانحنى على صدره. فصرخ به شاكتاس بصوت منفعل وهو يمد ذراعه في الظل ويأخذ بذراع ولده:

«يا ولدي! يا ولدي العزيز». ولدى سماعه هذه اللهجة فإن شقيق أميلي ، الذي استعاد وعيه واحمر وجهه من الإنزعاج، رجا والده لكي يسامحه. عندئذ قال المتوحش العجوز: «يا صديقي الشاب ان حركات قلب كقلبك لا يمكن أن تكون متساوية، فالتزم فقط بالإعتدال في خلقك الذي سبب لك كثيراً من الضرر. وإذا كنت تتألم أكثر من غيرك لشؤون الحياة، فلا يجب أن تتعجب فإن الروح الكبيرة لا بد أن تستوعب ألماً أكثر من الروح الصغيرة. تابع قصتك. لقد جعلتنا نجتاز قسماً من اوروبا فعرفنا الآن على وطنك. إنك تعلم أنني رأيت فرنسا وأي روابط ربطتني بها، أود أن اسمع عن ذلك القائد الكبير الذي غاب والذي كنت قد زرت كوخه الرائع. يا ولدي، لم أعد أحيا إلا بالذاكرة. إن عجوزاً مع ذكرياته يشبه شجرة سنديان متهرمة في

غاباتنا: شجرة السنديان هذه لم تعد تزين نفسها بأوراقها. ولكنها تغطي أحياناً عريها بنباتات غريبة نبتت على فروعها القديمة».

«هدأت هذه الكلمات رنيه فاستأنف قصة قلبه قال: «للأسف يا أبي لن أستطيع أن أحدثك عن ذلك العصر العظيم الذي لم أشاهد في طفولتي سوى نهايته والذي انتهى عندما أصبحت في وطني. ولم يحدث تبدل أكثر مفاجأة وأكثر إثارة للإعجاب عند شعب من الشعوب مثل هذاالتبدل، فمن سحر العبقرية الى احترام الدين الى رصانة العادات، انحدر كل شيء فجأة إلى مرونة في الفكر وإلى الإلحاد والفساد.

«لذلك كنت آمل ، دون جدوى، أن أجد في بلدي ما يهدىء قلقي وهذه الحميًا التي تلاحقني إلى كل مكان. إن دراسة العالم تعلمني شيئاً ومع ذلك لم تعد لدي لذة الجهل.

«كانت شقيقتي، ويتصرف لا يفسر، تبدو وكأنه يلذها أن تزيد من قلقي فهي غادرت باريس قبل وصولي ببضعة أيام. كتبت لها أنني أنوي اللحاق بها لكنها سارعت وأجابتني لكي تحولني عن هذا المشروع، بحجة أنها لم تكن أكيدة من المكان الذي ستستدعيها إليه أعمالها . استولى عليَّ عند ذلك تفكير حزين عن الصداقة، الصداقة التي يخمدها الحضور ويمحوها الغياب ولا تصمد أمام المصيبة وحتى أقل من ذلك أمام الإزدهار!

«وسرعان ما وجدت نفسي منفرداً في بلدي أكثر مما لو كنت

على أرض غريبة. كنت أريد ان أرمي بنفسي لبعض الوقت في عالم لا يقول لي شيئاً ولا يسمعني. وان روحي التي لم يضنها بعد أي هـوى كانت تفتش عن شيء يمكن أن تتعلق به، لكنني لاحظت أنني كنت أعطي أكثر مما أتلقى. ولم يكونوا ليطلبوا مني لغـة سامية ولا شعوراً عميقاً. ولم يكن يشغلني سوى تصغـير حياتي لأضعها في مستوى المجتمع. ولما نسبوا إلي في كل مكان الفكر الخيالي، ولما كنت أخجل من الدور الذي كنت ألبسه، ولما كنت قد اشمأزيت شيئاً فشيئاً من الأشياء ومن الـرجال قررت أن انسحب إلى ضاحية لأعيش فيها وأنا مجهول كلياً.

«وجدت باديء بدء مايكفي من اللذة في هذه الحياة القاتمة والمستقلة. ولما كان لا احد على الاطلاق يعرفني فقد اختلطت بالجمهور : إنها صحراء شاسعة من الرجال.

«كنت أجلس في كنيسة لا يتردد اليها ناس كثيرون وأقضي ساعات طويلة في التأمل . شاهدت نساء مسكينات وقد جئن ليسجدن امام العلي القدير، أو خطّاً يركعون في التوبة والندم. ولم يكن أحد ليخرج من هذا المكان بدون وجه صاف. الجلبة التي كانت تسمع في الخارج كانت تبدو وكأنها امواج الأهواء وعواطف العالم جاءت لتلفظ انفاسها على قدم معبد الله . أيها الإلـه العظيم الـذي شاهـدت دموعي وهي تتسـاقط في هذه العزلات المقدسة، إنك تعرف كم من مرة ألقيت بنفسي عند قدميك لكي اتضرع إليك بأن تنزل عن كاهلي ثقل الوجود او

تغير الرجل العجوز الكامن في نفسي ومن لم يشعر أحياناً بحاجة إلى أن يتجدد وأن يستعيد شبابه في مياه السيل وأن يغمس روحه في ينبوع الحياة؟ ومن لم يجد نفسه أحياناً وقد انهكه عبء فساده الشخصي دون أن يستطيع أن يعمل أي شيء كبير ونبيل وعادل؟

«وفي سكون المساء كنت اعود وأسلك طريق عزلتي وأنا اتوقف على الجسور لمشاهدة غياب الشمس، كانت هذه، وهي قلبت بخار المدينة، تتأرجح بطيئة في سائل من الذهب. مثل رقاص ساعة القرون. ثم كنت انسحب مع هبوط الليل خلال متاه في الشوارع المنفردة. وكنت، وأنا اشاهد الأشعة تلمع في منازل الناس، أنتقل بالفكر إلى وسط مشاهد الألم والفرح التي تضيئها وافكر انه تحت مثل هذا العدد من السقوف المسكونة، لم يكن لي صديق. وسط تفكيري كانت الساعة في برج الكاتدرائية القوطية تدق دقاتها الموزونة ويتردد صداها في كل المدى من كنيسة إلى كنيسة. ويا للأسف! فإن كل ساعة في المجتمع تفتح قبراً وتجعل الدموع تنهمر.

«هذه الحياة التي ابهجتني مع البداية لم تلبث ان اصبحت حياة لا تطاق. كنت أتعب من تردد المشاهد والأفكار نفسها، فأخذت أسبر أعماق قلبي وأتساءل عما كنت أريد. لم اعرف لكنني اعتقدت فجأة اني ساجد الغابات ممتعة.

«وها أنا فجأة اقرر ان انهي ، في منفى ريفي، حياة ابتدأتها بالكاد والتهمت فيها قروناً.

«وتبنيت هذا المشروع بالحماسة التي ابذلها في كل مخططاتي، وذهبت بسرعة لكي أدفن نفسي في كوخ مثل ما ذهبتُ في الماضي لكي اتجول حول العالم .

«يتهمونني بأن لي طبعاً متقلباً وبأني لا أستطيع التمتع طويلاً بالوهم نفسه، وبأني فريسة مخيلة تستعجل الوصول إلى أعماق ملذاتي كما لو انها تعبانــة بها. واتهموني بأني أمر فوق الهدف الذي يمكنني أن أصل اليه: وا اسفاه ! كل ما هناك اني ابحث عن خير مجهول يلاحقني الحدس به. هل هي غلطتي إذا وجدت حدوداً في كل مكان وإذا كان الشيء الذي انتهى لا يشكل بالنسبة إلي أي قيمة؟ ومع ذلك أشعر انني أحب تشابه مشاعر الحياة ولو كنت لا أزال أملك جنون الإعتقاد بالسعادة لكنت فتشت عنها في السعادة.

«الوحدة المطلقة ومشهد الطبيعة سرعان ما أغرقاني في حالة ربما لا يمكن وصفها. كنت بلا أهل بلا أصدقاء، وبكلمة. وحيداً على الأرض، ولم اتمتع بعد بالحب، وكان ثمة فيض من الحياة يرهقني. احياناً كان يحمر وجهي فجأة وأشعر أن سواقي من الحمم المضطرمة تجري في قلبي، واحياناً كنت أصرخ صرخات خارجة عن إرادتي. وكان الليل ايضاً منزعجاً من أحلامي ومن أرقي وسهري. كان ينقصني شيء لملء هوة وجودي: كنت أنزل

الى الوادي ثم اصعد الى الجبل وأنا أنادي بكل قوة رغباتي ان يتحقق لي حب مثالي. كنت اعانق هذا الحب العتيد في الرياح ويخيل الي اني اسمعه في أنين النهر. كان كل شيء يمثل ذلك الشبح الخيالي، حتى النجوم في السماء وحتى مبدأ الحياة في العالم.

«ومع ذلك فإن هذه الحالة من الهدوء والإنزعاج، من الفقر والفن لم تكن تخلو من نبض المفاتن. ذات يوم كنت أتلهى بتجريد غصن صفصاف من أوراقه فوق ساقية وأعلق فكرة على كل ورقة كان التيار يسحبها. إن ملكاً يخاف فقدان عرشه في ثورة مفاجئة لا يخاف اكثر من خوفي في كل حادث كان يهدد أنقاض غصني. يا لضعف البشر! يا لطفولة القلب الإنساني الذي لا يشيخ أبداً! إلى أي درجة من الطيش يمكن عقلنا السامي ان ينحدر! وهل صحيح أيضاً أن كثيراً من الرجال يعلقون مصيرهم على أشياء قليلة القيمة مثل أوراق الصفصاف؟

«ولكن كيف يمكن التعبير عن هذه المجموعة من المشاعر العابرة التي كنت أشعر بها في نزهاتي؟ إن الأصوات التي تبعثها الأهواء في فراغ قلب وحيد تشبه الوشوشة التي تطلقها الرياح والمياه في سكون الصحراء: المرء يتمتع بها ولكنه لا يمكنه أن يصفها.

«وقد فاجأني الخريف وسط هذه الشكوك: لقد دخلت بنشوة في أشهر العواصف. فأحياناً كنت أتمنى أن أكون محارباً يتوه

وسط الرياح والغيوم والأشباح وأحياناً كنت أحسد حتى مصير الراعي الذي أشاهده يدفىء يديه على نار العليق البسيطة، تلك النار التي أشعلها في زاوية من الغابة .كنت اسمع أغانيه الكئيبة التي تذكرني بأن الغناء الطبيعي للرجل في كل بلد هو غناء حزين حتى لو عبر عن السعادة. إن قلبنا هو أداة غير كاملة ، انه ربابة تنقصها الأوتار نضطر معها الى إطلاق نغمات الفرح بالوتر المكرس للتنهدات.

«في النهار كنت اهيم وسط الخليج الذي ينتهي عند الغابات وكم كان شيء قليل يكفي لأحلامي! ورقة يابسة يدفع الهواء بها أمامي ، كوخ دخانه يتصاعد إلى قمم الشجرة المعراة، والعشب الذي يرتجف عندما تهب ريح الشمال، جذع السنديانة، صخرة منعزلة، مستنقع مقفر حيث يشوش الخيزران الذابل! ولقد استوقفتني طويلاً قبة الجرس المنفردة التي كانت ترتفع من بعيد في الوادي ، وكم لاحقت بعيني العصافير العابرة التي كانت تمر فوق رأسي. وكنت اتصور الضفاف المجهولة والمناخات البعيدة التي تذهب العصافير اليها، واتمنى لو أكون على أجنحتها وكانت غريزة خفية تعذبني، بأني لم أكن انا نفسي سوى مسافر، ولكن صوتاً من السماء كان يبدو كأنه يقول لي: «أيها الرجل، إن موسم رحيلك لم يأت بعد، انتظر حتى تهب ريح الموت، عندئذ ستنشر طيرانك نحو تلك المناطق المجهولة التي ينشدها قلبك».

«إنهضي بسرعة، أيتها العواصف المرغوبة التي ستحملين رنيه في فضاء حياة أخرى! قلت ذلك ومشيت بخطوات كبيرة ووجهي مشتعل والهواء يصفر في شعري ولا أشعر بالمطر ولا بالصقيع، وأنا مبتهج ومعذب وكأن شيطان قلبي قد استولى عليّ. وفي الليل كانت تبدو لي، ريح الشمال تهز كوخي والأمطار تتساقط كالسيول على سقفي وانا اشاهد من خلال نافذتي القمر يشق الغيوم المتراكمة مثل سفينة باهتة تفلح الأمواج، كان يبدو لي ان الحياة تتضاعف في اعماق قلبي، وأن في وسعي ان اخلق عالماً بأسره. آه لو كان في استطاعتي ان تتقاسم معي امرأة الفورات التي كنت أشعر بها! يا الله ! ليتك أعطيتني امرأة حسب رغباتي، وليتك مثل أبي الأول جلبت لي بيدك حواء من أضلعي... أيها الجمال السماوي! لكنت سجدت أمامك ثم أخذتك بين ذراعي لأتضرع إلى الخالق بأن يعطيك بقية حياتي.

«ولكن للأسف، كنت وحيداً على الأرض! إن ارتخاء خفياً قد استولى على جسدي. والقرف من الحياة الذي شعرت به منذ طفولتي عاد الي بقوة جديدة. وسرعان ما تمنع قلبي عن تزويد أفكاري بالغذاء ولم أكن لأشعر بوجودي إلا من خلال شعور عميق بالضجر.

«صارعت مرضي ولكن من دون اكتراث ومن دون أن يكون لي قرار ثابت بالتغلب عليه. وأخيراً ولما لم استطع أن أجد دواء

لهذا الجرح الغريب في قلبي هذا الجرح الذي لم يكن موجوداً في أي مكان وفي الوقت نفسه كان موجوداً في كل مكان، عندئذ قررت أن افارق الحياة.

«أيها الكاهن الخاضع للعلي القدير، والذي تسمعني ، اسمع واغفر لرجل تاعس كادت السماء تحرمه عقله. لقد كان قلبي مفعمًا بالدين ولكنني كنت أفكر كملحد. كان قلبي يحب الله ولكن فكري كان يتجاهله، ولم تكن محادثاتي وتصرفاتي ومشاعري وافكاري سوى تناقضات وظلمات وأكاذيب ولكن هل يعرف الرجل دائمًا ماذا يريد؟ وهل هو متأكد مما يفكر به؟

«كل شيء كان يهرب مني، الصداقة، العالم والعزلة. جربت كل شيء وكان كل شيء مشؤوماً لي. وبعدما طردني المجتمع وهجرتني أميلي جاءت الوحدة لتوحشني، فماذا كان بقي لي؟ كأن الوحدة هي الخشبة الأخيرة التي تمسكت به آملاً أن تنقذني، وها اشعر بها هي أيضاً تغرق في الهاوية!

«ولما كنت قد صممت على أن اتخلص من عبء هذه الحياة فقد قررت أن أضع كل تفكيري في هذا العمل الأحمق. ولا شيء كان يدعوني إلى العجلة، ولم أحدد لحظة الرحيل وذلك من أجل التلذذ طويلاً باللحظات الأخيرة من وجودي ولكي أجمع كل قواي، مثل ذلك الرجل القديم، حتى أشعر بروحي وهي تهرب مني.

«ومع ذلك وجدت من الضروري أن اتخذ التدابير المتعلقة بثروتي . هكذا كنت مضطراً ان أكتب لأميلي. وتضمنت رسالتي اليها بعض العتب على نسيانها لي، وراح يرشح من كلماتي الحنين شيئاً فشيئاً. لقد ظننت الى حين أنني خبأت سري جيداً الا ان شقيقتي التي تعودت أن تقرأ في ثنايا روحي. كشفت السر بدون عناء. لقد استولى عليها الهلع من نبرة الكبت التي كانت تسود رسالتي ومن اسئلتي عن قضايا لم اكن لأهتم بها على الإطلاق. وبدلاً من ان تجاوبني على رسالتي جاءت وفاجأتني.

«لكي يعرف المرء ماذا كانت مرارة ألمي وفوراتي الأولى لدى مشاهدتي أميلي من جديد عليه أن يتصور أن أميلي كانت الشخص الوحيد في العالم الذي أحببته، وأن مشاعري جاءت لتمتزج مع حلاوة ذكريات طفولتي. استقبلت أميلي إذاً بنوع من النشوة في القلب. لقد مر وقت طويل دون أن أجد شخصاً يسمعني ويمكنني أمامه ان افتح روحي!

«وقالت لي اميلي وهي ترتمي بين ذراعي: يا ناكر الجميل تريد أن تموت وشقيقتك موجودة! إنك تشك في قلبها؟ لا لزوم لأي تفسير ولا لأي عذر، أعرف كل شيء، لقد فهمت كل شيء كما لو أنني كنت معك. هل تخدعني أنا التي شاهدت ولادة مشاعرك الأولى؟ هذا هو خلقك التعس وظلمك. أقسم لي وأنا أشدك إلى صدري بأنها المرة الأخيرة التي تستسلم فيها إلى جنونك أقسم أنك لن تضع حداً لحياتك أبداً.

«كانت أميلي وهي تنطق بهذه الكلمات تنظر إليَّ بشفقة وحنان وتغطي جبهتي بالقبلات، لقد كانت تقريباً أماً، وكانت أكثر حنواً من ذلك. ولكن يا للأسف! فإن قلبي قد انفتح لكل الأفراح ، ومثل الطفل لم أكن أطلب سوى ان يغروني. فاستسلمت لسيطرة أميلي. وقد طلبت مني قسماً رسمياً فقمت بأدائه دون تردد ودون أن أشك أنه من الآن فصاعداً يمكن أن أكون تعيساً.

«انقضى شهر ونحن نعتاد بهجة وجودنا معاً. وفي الصباح وبدلاً من أن أجد نفسي وحيداً، كنت أسمع صوت شقيقتي واحس بنضارة الفرح والسعادة. لقد وهبت الطبيعة أميلي شيئاً إلهياً، فقد كانت روحها تتمتع بالمفاتن البريئة التي يتمتع بها جسدها، حلاوة مشاعرها لا حدود لها، وليس في فكرها إلا العذوبة والحلم وكان يمكن القول أن قلبها وفكرها وصوتهاتتنهد معاً.ان فيها من المرأة الخفر والحب ومن الملائكة الطهارة والنغم.

«حانت اللحظة التي كان عليَّ أن أكفِّر عن كل أعمالي اللامنطقية. وفي هذياني كنت أتمنى الشعور بمصيبة لكي يكون لدي موضوع حقيقي للعذاب: إنها رغبة رهيبة استجاب لها الله في غضبه!

«عن أي سر ساكشف لكما، يا صديقيّ! انظرا إلى الدموع التي تجري من عيني... هل أستطيع حتى ...لأيام خلت لم يكن شيء يستطيع أن ينزع مني هذا السر والآن انتهى كل

شيء!

«فلتدفن هذه القصة إلى الأبد في السكوت، وتذكرا أنها لم ترو إلا تحت شجرة الصحراء.

«كان الشتاء قد أشرف على نهايته عندما لاحظت أن أميلي تفقد الراحة والصحة اللتين كانت تنقلهما إلي. لقد أخذت تصبح غيلة، وكانت عيناها تتجوفان ومشيتها تسترخي وصوتها يصاب بضيق. وذات يوم فاجأتها وهي تبكي على قدم صليب. إن العالم والعزلة وغيابي وحضوري في الليل والنهار، كل ذلك صار يخيفها. كانت تنهدات عفوية تنبعث من شفتيها، أحياناً تقوم بنزهة طويلة دون أن تتعب وأحياناً تجر نفسها بشق النفس. كانت تأخذ شغلها ثم تتركه وتفتح كتاباً دون أن تستطيع قراءته، أو تبدأ جملة لا تكملها ثم تذوب فجأة في الدموع وتنسحب لتصلي.

عبثاً حاولت أن أكشف سرها. وعندما أسألها كانت تجيبني بابتسامة أنها مثلي لا تعرف ماذا بها.

«انقضت ثلاثة أشهر على هذا المنوال وحياتها تسوء يوماً بعد يوم غير أن المراسلات السرية كانت تبدو لي وكأنها سبب دموعها، ذلك لأنها كانت تبدو إما أكثر هدوءاً أو أكثر انفعالاً حسب الرسائل التي تتلقاها. وأخيراً وذات صباح، ولما انقضت الساعة التي كنا نتناول خلالها إفطار الصباح معاً، صعدت إلى غرفتها وطرقت الباب فلم يجب أحد، ففتحت الباب ولم أجد

أحداً في الغرفة. وشاهدت على المدخنة رزمة موجهة إلى عنواني. فأمسكت بها وأنا أرتجف وفتحتها وقرأت تلك الرسالة التي احتفظ بها لكي أنزع عني في المستقبل أية بادرة فرح.

إلى رنيه

«إن السماء تشهد علي، يا شقيقي أنني سأضحي ألف مرة بحياتي لكي أوفر عليك لحظة من العذاب. ولكن بما أنني تعسة فلا أستطيع عمل شيء من أجل سعادتك. ستسامحني إذن لأنني تواريت عن الأنظار كمذنبة. لم أكن لأستطيع أن اقاوم رجاءك ومع ذلك كان يقتضي أن أذهب. يا إلهي، إشفق علي.

«إنك تعلم يا رنيه أنه كان لي دائماً ميل نحو الحياة الدينية وقد حان الوقت لكي أستفيد من إنذارات السماء. لماذا انتظرت طويلاً! فليعاقبني الله. لقد بقيت في العالم من أجلك. . سامحني إنني مضطربة من الخوف بسبب فراقك.

«والآن، يا شقيقي العزيز، إنني أشعر جيداً بالحاجة إلى ذلك الملجأ الذي غالباً ما رأيتك تثور ضده. هناك مصائب تفصلنا إلى الأبد عن البشر: فماذا يحدث عند ذلك للمسكينات لتعيسات؟ إنني مقتنعة بأنك نفسك، يا شقيقي، ستجد الراحة في هذه العزلات الدينية: الأرض لا تقدم شيئاً جديراً بك.

«لن أذكرك أبداً بقسمك، إنني أعرف ولاء كلامك. لقد أقسمت بأنك ستعيش من أجلي. وهل هناك اتعس من التفكير دائمًا بمغادرة الحياة؟ الموت سهل جداً لرجل له خلقك! صدق شقيقتك،إنه من الأصعب أن تعيش.

«ولكن، يا شقيقي، أخرج في أسرع وقت ممكن من العزلة التي ليست نافعة لك. إبحث عن شيء يشغلك. أعرف أنك تضحك بمرارة من هذه الحاجة الموجودة في فرنسا لاحتلال مركز ما. لا تحتقر كثيراً خبرة آبائنا وحكمتهم. ومن الأفضل يا عزيزي رنيه أن نكون قليلاً مثل سائر الرجال وأن يكون لدينا مصائب أقل.

««قد تجد في الزواج مؤاساة لضجرك. إن زوجة وأولاداً سيشغلون أيامك. ومن هي المرأة التي لن تفتش عن أن تجعلك سعيداً! حيوية روحك وجمال عبقريتك ومظهرك النبيل الفتان وهذه النظرة الفخورة المفعمة بالحنو،كل ذلك سيضمن لك حبها وإخلاصها. آه وبأي لذة ستضمك بين ذراعيها وهي تشدك إلى قلبها! إن كل نظراتها وأفكارها ستكون معلقة بك لكي تمنع أي إزعاج لك! وستكون الحب نفسه والبراءة نفسها أمامك، وستشعر أنك وجدت شقيقة من جديد.

«إنني ذاهبة إلى الدير . هذا الدير المبني على شاطىء البحر يناسب حالة روحي. وفي الليل، ومن أعماق غرفتي، سأسمع وشوشة الأمواج التي تغسل جدران الدير. وسأفكر بتلك

النزهات التي كنت أقوم بها معك، وسط الغابات بينما كنا نعتقد أننا سمعنا صوت البحار في قمة أشجار الصنوبر المضطرمة. يا رفيق طفولتي المحبوب لن أراك بعد الآن؟ أنا الأكبر سناً منك بقليل كنت أهزك في سريرك، ولم نحن معاً! آه لو أن قبراً واحداً يجمعنا ذات يوم! ولكن لا: يجب أن أنام وحيدة تحت الرخام البارد في المعبد حيث ترقد إلى الأبـد تلك الفتيات اللواتي لم يعـرفن الحب.

«لا أعرف إذا كنت ستستطيع قراءة هذه الأسطر التي محت نصفها دموعي. وعلى كل حال، يا صديقي فآجلاً أم عاجلاً أما كـان يتحتم أن نفترق؟ وهل أنا في حاجة لكي أحدثك عن تقلب الحياة وعن قيمتها الزهيدة؟ إنك تتذكر الشـاب الـذي غرق في جزيرة فرنسا Ile de France. ولما وصلتك رسالته الأخيرة بعد موته بأشهر فإن جثته كانت قد تلاشت، وفيما كنت أنت تبدأ الحداد عليه في أوروبا كان الحداد عليـه ينتهي في الهند. فما هو الإنسان إذن، هذا الذي تموت ذاكرته بسرعة؟ وإن فئة من أصدقائه لا تعلم بموته إلا تكون الفئة الأخرى قد تعزت عن هذا المـوت. ماذا يا عزيزي رنيه، هل أن ذكراي ستمحي بسرعة من قلبك؟ يا شقيقي إذا كنت قد هربت منك في الزمن فذلك لكي لا أفترق عنك في الأبـديـة».

ملاحظة: «إنني أرفق ربطاً وثيقة هبة أملاكي، وآمل أن لا ترفض علامة الصداقة هذه».

«صاعقة تقع عند قدمي ما كانت لتسبب لي هلعاً أكثر من هذه الرسالة. أي سر كانت أميلي تخبئه عني؟ ومن أجبرها لتعتنق فجأة الحياة الدينية؟ هل علقتني بالوجود بفتنة صداقتها لكي تتركني فجأة؟ آه لماذا جاءت لتحولني عن خطتي! الشفقة استدعتها إلى قربي ولكن سرعان ما تعبت من واجب مضنٍ فأسرعت تترك بائساً لم يكن له سواها على الأرض. يظن البعض أنهم فعلوا كل شيء عندما منعوا رجلاً من أن يموت! هكذا كنت أقول متشكياً، وبعد تحول ورجوع إلى نفسي قلت:
« يا اميلي الناكرة للجميل، لو كنت مكاني ولو كنت مثلي قد ضعت في فراغ الايام لما كان شقيقك قد تركك» .

«ومع ذلك وعندما قرأت الرسالة ثانية، وجدت فيها شيئاً من الحزن والحنان بحيث ذاب قلبي بكامله، وفجأة جاءتني فكرة أعطتني بعض الأمل: لقد تخيلت أن أميلي تملكها حب أحد الرجال فلم تتجاسر على الاعتراف به. كان هذا الظن يبدو لي أنه يفسر كآبتها ورسائلها السرية والنغم المشبوب العاطفة الذي كان ينبعث من رسالتها. فكتبت لها على الفور لأرجوها أن تفتح لي قلبها.

«ولم تتأخر في الجواب على رسالتي ولكن دون ان تكشف لي عن سرها: لقد أعلمتني فقط أنها على وشك أن تنذر النذور.

«نقمت على عناد أميلي وعلى غموض كلماتها وعلى قلة ثقتها

في صداقتي.

«وبعدما ترددت لحظة في القرار الذي كان عليَّ أن أتخذه، صممت أن أذهب إلى ب . . . لأقوم بآخر مجهود لدى شقيقتي إن الأرض التي نشأت فيها كانت على طريقي، وعندما شاهدت الغابات حيث قضيت اللحظات السعيدة الوحيدة في حياتي، لم استطع أن أمسك دموعي، وكان من المستحيل عليَّ أن أقاوم إغراء توديعها الوداع الأخير. «كان شقيقي الأكبر قد باع الإرث الأبدي ولم يكن المالك الجديد يسكنه. وصلت إلى القصر عن طريق شارع الصنوبر الطويلة. اجتزت على قدمي الفسحات المقفرة وكنت أتوقف لأرى النوافذ المغلقة أو المكسور نصفها ولأرى الشوك الذي ينبت على قدم الجدران والأوراق التي تغطي عتبة الأبواب. ولأشاهد ذلك المدخل المنفرد حيث كنت أرى والدي ومستخدميه الأوفياء. وكانت درجات السلم مغطاة بالطحلب، وكان المنثور الشتوي الأصفر ينبت بين أحجارها المنفصلة والمترجرجة. فجأة فتح لي حارس مجهول الأبواب فترددت في اجتياز العتبة، فصرخ الرجل: «هل ستفعل مثلما فعلت تلك الغريبة التي جاءت إلى هنا قبل أيام؟ عندما همت بالدخول أغمي عليها واضطررت إلى حملها وإرجاعها إلى عربتها». كان من السهل علي أن أتعرف إلى الغريبة التي جاءت، مثلي، تفتش في هذه الأمكنة عن الدموع والذكريات!

«غطيت عيني بمنديلي ودخلت سقف اجدادي. اجتزت الغرف

الرنانة حيث لم يكن يسمع سوى وقع خطواتي. كانت الغرف مضاءة قليلاً بالنور الضعيف الذي يدخل بين الدرفات المغلقة. وقد زرت تلك الغرفة حيث فقدت أمي نظرها وهي تلدني، والغرفة التي كان ينسحب إليها والدي والغرفة التي كنت أنام فيها في سريري، وأخيراً الغرفة التي اكتشفت فيها الصداقة بين أحضان شقيقتي. كانت الصالات هادئة والعنكبوت ينسج بيته في الطبقات المهجورة. وخرجت بسرعة من هذه الأماكن -وابتعدت عنها بخطوات كبيرة دون أن أتجاسر على الالتفات كم هي لذيذة، وآه كم هي سريعة اللحظات التي يقضيها الأشقاء والشقيقات في سنواتهم الشابة وهم مجتمعون في كنف أهلهم! إن عائلة الرجل لا تدوم أكثر من يوم واحد، فنفس الله يبددها مثل الدخان. وبالكاد يتعرف الإبن على الأب والأب على الإبن والشقيق على الشقيقة والشقيقة على الشقيق! إن شجرة السنديان تشاهد بلوطاتها تنبت من حولها، وليس الأمر كذلك لأبناء البشر.

عندما وصلت إلى ب... قادوني إلى الدير وطلبت التحدث إلى شقيقتي فأجابوني بأنها لا تستقبل أحداً. فكتبت لها، فأجابتني أنه ما دامت على وشك أن تكرس نفسها لله، فليس مسموحاً لها أن تمنح العالم أي فكرة، وإذا كنت أحبها فعلي أن أتفادى إنهاكها بألمي. وأضافت: ومع دلك فإذا كانت خطتك أن تظهر على المذبح في يوم جهري بعقيدتي وإيماني فتفضل لكي تكون لي بمثابة أب، إن هذا الدور هو الدور الوحيد الجدير بشجاعتك وهو الدور الوحيد الذي يناسب صداقتنا وراحتي.

«هذا الثبات البارد الذي كان يقابل حماسة صداقتي قد ألقى بي في فورات عنيفة. فأحياناً كنت أفكر بالرجوع وأحياناً كنت أريد البقاء لا لشيء إلا لكي اعكر صفو التضحية. كانت جهنم تحثني حتى على أن أطعن نفسي بخنجر داخل الكنيسة وان أخلط تنهداتي الأخيرة بالنذور التي تنتزع مني شقيقتي. وابلغتني رئيسة الدير أنهم هيأوا مقعداً في المعبد ودعتني لكي أحضر الإحتفال الذي سيقام في اليوم التالي.

«عند مطلع الفجر. سمعت أول قرع للأجراس... ونحو الساعة العاشرة، وفي حالة تشبه الاحتضار، جريت نفسي إلى الدير. ليس هناك أكثر مأساوية من هذا المشهد، ولا شيء اكثر ايلاماً للمرء بعد ان يعيش هذا المشهد.

«ملأ الكنيسة جمهور غفير. قادوني إلى مقعد المعبد، فركعت على ركبتي دون أن أعرف أين كنت ولا ماذا قررت. كان الكاهن ينتظرني في المذبح. وفجأة فتحت الستارة وتقدمت اميلي وقد زينت بكل معالم الأبهة في العالم. كانت آية في الجمال. وجهها يحمل شيئاً من المسحة الإلهية إلى حد أنها أثارت حركة من المفاجأة والإعجاب. ولما تغلب علي ألم القديسة المنتصر وأنهكتني عظمة الدين فإن مخططاتي لاستعمال العنف قد تلاشت، وخارت قواي، وشعرت بأنني مربوط بيد قديرة قوية. وبدلاً من اللعنات والتهديدات لم أجد في قلبي سوى عبادة عميقة وأنين الخشوع والخضوع.

«وقفت أميلي تحت قبة. وبدأت مراسم الذبيحة الإلهية في المشاعل ووسط الزهور والعطور. ولدى صلاة التقدمة تجرد الكاهن من زينته ولم يحتفظ إلا بقميص من الكتان. صعد إلى المنبر ويخطاب بسيط ومؤثر وصف سعادة العذراء التي تكرس نفسها لله. وعندما نطق بهذه الكلمات: «ظهرت كأنها البخور يذوب في النار» بدا أن هدوءاً كبيراً وروائح سماوية قد انتشرت في القاعة، وكان الواحد يشعر بأنه في مأمن تحت جناحي اليمامة الصوفية، ويخيل اليه أنه يشاهد الملائكة تنزل على المذبح ثم تصعد إلى السموات ومعها العطور والأكاليل.

«ختم الكاهن موعظته واستعاد ملابسه وتابع الذبيحة. ركعت اميلي على ركبتيها على الدرجة الأخيرة من سلم المذبح، تسندها راهبتان. عند ذلك جاؤ وا ليأخذوني فأقوم بدور الأهل. وكادت اميلي ، لدى سماعها صوت خطواتي المترنحة في المعبد، ان تخور قواها ويغمى عليها. وضعوني الى جانب الكاهن لأقدم له المقص، فتولاني الغضب من جديد، وأوشك أن ينفجر عندما رمقتني أميلي، بعدما استعادت شجاعتها، بنظرة فيها من اللوم والألم ما أذهلني. ها هو الدين ينتصر. وتستغل شقيقتي لحظة اضطرابي وتقدم رأسها إلى الأمام بحركة ملؤها الجسارة . وراح شعرها الرائع يتساقط من كل جهة تحت الحديد المقدس. وقد حل ثوب طويل من الايتامين محل كل ثوب عصري كانت ترتديه ، دون ان يقلل ذلك من تأثيرها. وتوارت هموم جبينها تحت عصابة من

الكتان، واما النقاب السري، وهو رمز مزدوج للطهارة والدين، فقد غطى رأسها العاري. وقد ظهرت جميلة أكثر من أي وقت مضى. كانت عين التائبة عالقة على غبار العالم واما روحها كانت في السماء.

«غير أن أميلي لم تكن قد نطقت بعد بنذورها، ولكي تموت في العالم، يقتضي أن تمر من خلال القبر. هكذا استلقت على الرخام ونشروا عليها قماشة جنائزية قامت أربعة مشاعل على زواياها الأربع. وراح الكاهن، وقد علق البطرشيل في عنقه ووضع الكتاب في يده ، يتلو صلاة الموتى، تساعده جوقة من العذراوات. إيه يا افراح الدين، كم أنت كبيرة ومخيفة! لقد أجبروني أن أركع على ركبتي بقرب هذا الجهاز المحزن. وفجأة خرجت وشوشة غامضة من تحت الحجاب الضريحي، فانحنيت وقد طرقت أذني هذه الكلمات الرهيبة (التي سمعتها وحدي): يا إله الرحمة دعني لا أقوم أبداً من هذا الدير المأتمي، وأغدق نعمك على شقيق لم يشاركني هواي المجرم!».

«لدى سماعي هذه الكلمات التي انطلقت من النعش انكشفت امامي الحقيقة الرهيبة ،طار صوابي وتهالكت على الكفن وضممت شقيقتي بين ذراعي وصرخت: «يا عروس المسيح الطاهرة، تلقي عناقي الأخير من خلال برودة الموت واعماق الخلود التي تفصلك عن شقيقك!.

«كان لا بد لهذه الجلبة والصراخ والدموع من أن تزعج

الإحتفـال، فتوقف الكـاهن وأغلقت الراهبـات الباب وأخـذ الجمهور يهتز ويهيج ويندفع نحو المذبح، فحملوني وأنا فاقد الوعي، ولم أكن ممتناً من الذين جعلوني استرجع وعيي! وقد علمت، وأنا افتح عيني أن الذبيحة انتهت وأن حمى عنيفة قد استولت على شقيقتي، وانها تتوسل الي ان لا أحاول بعد الآن ان اراها. يا لشقاء الحياة! شقيقة تخاف أن تتكلم إلى شقيقها وشقيق يخاف أن يُسمع شقيقته صوته. وخرجت من الدير وكأنني أخرج من أحد أمكنة التكفير حيث تهيؤنا ألسنة اللهب للحياة السمـاوية وحيث يكـون المرء قـد أضـاع كـل شيء كـما في الجحيم.. ما عدا الأمل.

«يمكن المرء أن يجد في روحه قوى يصارع بها مصيبة شخصية، ولكن أن يصبح السبب اللامقصود لشقاء شخص آخر فإن هذا لا يطاق أبداً. أما وقد علمت بما تعاني منه شقيقتي فقد تصورت ما كان عليها أن تقاسي من آلام. وعند ذلك انجلت امامي اموز عديدة لم أكن أستطيع فهمها: هـذا المزيـج من الفرح والحزن الذي أظهرته أميلي لحظة ذهابي إلى السفر، وحرصها على تجنبني لدى رجوعي، وذلك الضعف الذي منعها مدة طويلة من الدخول إلى الدير. لا بد أن تكون المسكينة قد ظنت، مخدوعة، أنها ستشفى! واما المراسلات الغامضة التي انخدعت أنا بها، فلا بد أن تكون نتيجة لمشاريع ترهبنها، ثم استعدادها للنذور، ثم التوصية لي بممتلكاتها.

«هكذا يا صديقي عرفت البكاء من شر لم يكن، هذه المرة وهمياً! وان اهوائي التي كانت غير محدودة لمدة طويلة، قد انقضّت على هذه الفريسة الأولى بكل غضب. وجدتُ نوعاً من الرضى في كمال حزني وأدركت، بحركة سرية من الفرح، أن الألم ليس شعوراً يمكن استنفاده مثل اللذة.

«لقد اردت أن أغادر الأرض قبل أن يأمر العلي القدير بذلك، وكان ذلك جريمة كبيرة، فأرسل الله أميلي لكي تنقذني وتعاقبني في وقت واحد. وهكذا فإن كل فكرة مذنبة وكل عمل إجْرامي يجر وراءه الإضطرابات والمصائب. لقد كانت أميلي تتوسلٍ اليّ كي أعيش، وكان عليّ أن لا أزيد من مصائبها. وفضلاً عن ذلك (يا للغرابة) لم يعد لي رغبة في الموت منذ أن أصبحت بائساً حقاً. لقد أصبح حزني هو شغلي الشاغل يملأ كل لحظاتي.

« عند ذلك اتخذت فجأة ، قراراً آخر. قررت أن أغادر أوروبا وأن أذهب الى اميركا.

«وكانوا يجهزون، في تلك اللحظة نفسها في مرفأ ب.. أسطولاً متجهاً إلى اللويزيان. وتدبرت أمري مع أحد قادة السفن، وابلغت اميلي بخطتي، وانهمكت بالرحيل.

«كانت شقيقتي هذه الأثناء تقرع أبواب الموت، لكن الله الذي خصّها بأول سعفة نخل للعذارى، لم يكن يريد أن

يأخذها إليه بسرعة، ولذلك مُدّد أجل محنتها في هذا العالم. وبعودتها إلى الحياة، الى درب الحياة الشاقة، راحت البطلة، وقد انحنت تحت الصليب، تتقدم بشجاعة لمواجهة الآلام دون أن ترى امامها سوى الإنتصار في المعركة، ودون أن ترى في المزيد من الآلام سوى المزيد من الجد.

«كان من نتائج انهماكي في بيع ممتلكاتي القليلة التي بقيت أو التي تنازلت عنها الّي شقيقتي، كـذلك الإستعـدادات الطويلة للمركب ، فضلاً عن الرياح غير المؤاتية، أن حبستني مـدة طويلة في المرفأ. كنت أذهب كل صباح مستفسراً عن أخبار أميلي وأرجع دائمًا بالمزيد من دوافع الاعجاب والبكاء.

«كنت اهيم دون انقطاع حول الدير على شاطىء البحر. وكنت ارى، خلال شباك صغير مشبك يطل على شـاطىء مقفر. راهبة وهي جالسة في وضع تأمل وتفكير، تحلم امـام المحيط حيث تظهر أحياناً سفينة تقلع نحو أطراف الأرض. وقد رأيتها مراراً، هذه الراهبة نفسها واقفة امام قضبـان شباكهـا الحديدية، تتأمل في البحر وقد أضاءه قمر الليل. وكانت تبدو كأنها تصغي إلى صوت الأمواج التي تتكسر بحزن على السواحل الرملية المنعزلة.

«ما زلت أحسّني اسمع رنين الجرس الـذي كان، خـلال الليل، يدعو الراهبات إلى اليقظة والصلاة. وبينما كان الجرس يدق ببطء والعذارى يتقدمن في سكون نحو معبد الله القدير،

أخذت أجري نحو الدير، وهناك رحت، اصغي وحيداً امام الجدران، بنشوة مقدسة الى الأناشيد التي تخرج من قبة الهيكل مع هدير الموج.

«لا أدري كيف أن كل هذه الأمور، التي كان من المفترض ان تزيد من عذابي، كانت بالعكس تحد منه. اصبحت دموعي أقل مرارة وانا أذرفها فوق الصخور وبين الرياح. وحتى حزني فإنه راح يحمل لي بعض العلاج. إن المرء يتمتع بما هو فذ، ولو كان مصيبة. وجعلني ذلك اعقد الأمل على ان تصبح شقيقتي بدورها أقل بؤساً.

« ثمة رسالة تلقيتها منها قبل سفري، بدت كأنها تؤكد لي هذه الأفكار. في هذه الرسالة تشكو اميلي، بلطف وحنان، من آلامي، وتجزم لي بان مرور الزمن يخفف من آلامها. واضافت: «لم أيأس من السعادة. حتى الافراط في التضحية، الآن وقد تمت التضحية، يساهم في منحي بعض الطمأنينة. إن بساطة صديقاتي وطهارة نذورهن وانتظام حياتهن، كل ذلك ينشر البلسم على أيامي. وعندما اسمع العواصف ترعد وعصفور البحر يأتي ليضرب بجناحيه على شباكي، أفكر أنا، يمامة السماء المسكينة، في السعادة التي حصلت عليها بالعثور على ملجأ من العاصفة. هنا الجبل المقدس، والقمة العالية حيث تسمع آخر أحداث الأرض وأولى جوقات السماء. وهنا يخدع الدين برقة روحاً حساسة: إن الدين يقيم مقام الحب العنيف نوعاً من

القصة المضطربة حيث العشيقة والعذراء تتحدان، وان الدين يطهر التنهدات ويحول شعوراً ملتهباً قابلاً للتلف إلى شعور ملتهب لا يفسد، كما أن الدين يمزج هدوءه السماوي وبراءته بتلك البقية من الإضطراب واللذة لقلب يفتش عن الراحة والحياة تنسحب .

«لا أدري بماذا تحتفظ لي السماء، وإذا هي أرادت أن تنذرني بأن العواصف سترافقني في كل مكان. وكان قد أعطي الأسطول أمر الإبحار، وكانت سفن عدة قد أبحرت عند غياب الشمس. وقد تدبرت أمري في البر لكي أكتب رسالتي الوداعية إلى أميلي. ونحو منتصف الليل، وبينما كنت منشغلاً بهذه الرسالة وأنا أبلل الورق بدموعي، جاء صوت الرياح ليطرق سمعي. فأصغيت وفي وسط العاصفة تبينت طلقات المدفع الإنذارية التي امتزجت بقرعة جرس الدير الحزينة فاندفعت نحو الشاطىء حيث كان كل شيء مقفراً وحيث لم يكن يسمع سوى هدير الموج، وجلست على صخرة: من جهة تمتد الأمواج المتلألئة، ومن جهة أخرى تمتد جدران الدير القائمة التي تضيع في السموات. وكان ضوء ضعيف يظهر على الشباك المشبك. هل هو أنت يا عزيزتي أميلي تسجدين عند قدم الصليب وتبتهلين إلى الله أن يحفظ شقيقك البائس؟ إن العاصفة على الأمواج، والهدوء في عزلتك. كم من البشر تكسروا على صخور البحر عند قدم الدير الذي لا يمكن أن يربكه شيء. ان اللانهاية تنطلق من الجهة

الأخرى لجدار الزنزانة. منارات السفن المضطربة، ومنارة الدير الجامدة وتقلب أقدار الملاح، والعذراء التي تعرف في يوم واحد كل أيام مستقبلها، كل هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن روحاً كروحك يا أميلي، عاصفة مثل المحيط. غَرَق أفظع من غَرَق البحّار: كل هذه اللوحة لا تزال محفورة بعمق في ذاكرتي. يا شمس السماء الجديدة انك تشهدين الآن على دموعي، ويا صدى الشاطىء الاميركي انك تردد صوت رنيه . . . في اليوم التالي لهذه الليلة الرهيبة شاهدت أرض مسقط رأسي تبتعد إلى الأبد وأنا متكىء على طرف سفينتي! وكنت أتأمل طويلاً على الشاطىء التأرجحات الأخيرة لشجرات الوطن وقمم الدير التي كانت تتدنى في الأفق».

«وإذ كان رنيه يقترب من نهاية قصته، سحب ورقة من صدره وأعطاها للأب سويل، ثم ارتمى بين ذراعي شاكتاس وهو يختنق بكاءه تاركاً الوقت للمبشر لكي يقرأ الرسالة التي اعطاه إياها.

وكانت هذه الرسالة موجهة من رئيسة. . . وكانت تحتوي على رواية آخر لحظات الشقيقة أميلي التي ماتت ضحية اندفاعها ومحبتها ورأفتها وهي تعتني بصديقاتها اللواتي أصبن بمرض معدٍ. وكانت اسرة الدير بأجمعها شديدة الحزن ولا عزاء لها. وكانوا ينظرون الى أميلي كقديسة. وقد أضافت رئيسة الدير أنه منذ ثلاثين سنة وهي تدير الدير ولم تشاهد قط راهبة في لطف اميلي ولا راهبة أكثر فرحاً وهي تترك غمرات العالم.

كان شاكتاس يضم رنيه بين ذراعيه والعجوز يبكي. وقال لولده: «يا ولدي ليت الأب أوبري كان هنا. فهو كان يسحب من اعماق قلبه سلاماً يهدىء العواصف، مع انه ليس بغريب عن هذه العواصف. لقد كان القمر في ليل عاصف، وإن الغيوم التائهة لا تقدر ان تحمله في سيرها، بل هو يتقدم بهدوء فوقها لا يتبدل. اما انا فان كل شيء، واأسفاه، يربكني وانساق معه!».

حتى ذلك الحين كان الأب يصغي الى قصة رنيه دون أن ينطق بكلمة واحدة. كان يحمل خفية قلباً رؤوفا، ولكنه كان يتظاهر بطبع لا يلين. غير أن احساس الساشام أخرجه من صمته: «لا شيء، قال لشقيق أميلي، لا شيء يستحق في هذه القصة الشفقة التي تلمسها حولك هنا. انني أرى رجلاً شاباً وقد امتلأ رأسه بالأوهام لا يعجبه شيء وقد أفلت من أعباء المجتمع ليستسلم الى أحلام غير ذات جدوى. ان المرء لا يصبح رجلا متفوقاً إذا نظر الى العالم نظرة كره. ان المرء لا يكره الناس والحياة الا لأنه لا يرى بعيداً. امدد نظرك الى مجال أوسع وسرعان ما تقتنع بأن كل العلل التي تشكو منها هي مجرد عدم. يا له من خجل أن لا تستطيع التفكير في المصيبة الحقيقية الوحيدة في حياتك دون ان تخجل بذلك! ان كل الطهارة وكل الفضيلة وكل أكاليل قديسة بالكاد تجعل مجرد فكرة متاعبك فكرة محتملة. ان شقيقتك قد كفّرت عن غلطتها، ولكن اذا عبرت عن أفكاري هنا، فانني أخشى، بواقع من عدالة مريعة، أن يخرج نذر من

أعماق القبر ويزعج بدوره روحك. ماذا تعمل وحيداً في أعماق الغابات حيث تهدر أيامك وتهمل كل واجباتك؟ هل تقول أن هناك قديسين مدفونين في الصحاري؟ لقد كانوا هنا بدموعهم وكانوا يستعملون الوقت لاطفاء أهوائهم، ذلك الوقت الذي تضيعه لتشعل ربما أهواءك. يا لك من شاب مغرور توهم ان الانسان يستطيع أن يكفي نفسه بنفسه! ان الوحدة سيئة لمن لا يعيش مع الله، انها تضاعف قوى الروح وتنزع عنها في الوقت نفسه كل مبرر لممارسة نفسها. كل من وهب قوى، عليه أن يكرسها لخدمة الناس، واذا ترك هذه القوى بلا جدوى فانه يعاقب أولاً ببؤس خفي ثم آجلاً او عاجلاً ترسل له السماء عقاباً رهيباً.»

اضطرب رنيه لسماع هذا الكلام ورفع رأسه عن صدر شاكتاس. أخذ الساشام الأعمى يبتسم بفمه، وكان لهذه الابتسامة، التي لم ترافقها ابتسامة العينين، شيء غامض وسماوي وقال عشيق اتالا العجوز: «يا ولدي انه يخاطبنا بقساوة، انه يصلح العجوز والرجل الشاب، وهو على حق. نعم يجب أن تتخلى عن هذه الحياة غير الطبيعية المفعمة بالهموم، ليس هناك من سعادة الا في الطرق المشتركة.

«ذات يوم مل نهر الميشاسيبيه، وهو لا يزال قريباً من منبعه، ان لا يكون سوى ساقية صافية رائعة. فطلب ثلوجاً من الجبال ومياهاً من السيول وامطاراً من العواصف، واجتاز ضفافه ودمر

حدوده الفاتنة. في البداية ضعفت الساقية الفخورة بقوتها. ولما رأت ان كل شيء قد أصبح مقفراً عند مرورها، وانها تجري مهجورة في عزلتها، وان مياهها دائمًا عكرة، ندمت على السرير المتواضع الذي كانت حفرته لها الطبيعة، كما ندمت على العصافير والأزهار والأشجار والسواقي التي كانت في ما مضى رفاقاً متواضعة لمجراها الهادىء».

توقف شاكتاس عن الكلام. كان يسمع صوت عصفور «الفلامان» flammant بين القصب يعلن قرب هبوب عاصفة وسط النهار. وقد استأنف الأصدقاء الثلاثة سيرهم على الطريق التي تؤدي الى أكواخهم: كان رنيه يمشي بسكوت بين المبشر الذي يصلي لله والساشام الأعمى الذي يبحث عن طريقه. ويقال انه تحت ضغط العجوزين عاد رنيه إلى زوجته ولكن دون أن يجد لديها السعادة. وقد لقي مصرعه بعد قليل من الوقت مع شاكتاس والأب سويل في المجزرة التي وقعت بين الفرنسيين والناتشيز في اللويزيان. ولاتزال هناك صخرة يشيرون اليها على أنها الصخرة التي كان يذهب ليجلس عليها عند غياب الشمس.

آخر ملوك بني سراج



... ملوك بني سراج لدى صدورها بالفرنسية عام ١٨٢٦

عندما أجبر بوعبدل[1] (أبو عبدالله) Boabdil ملك غرناطة الأخير، على التخلي عن مملكة آبائه، توقف على قمة جبل بادول Padul. ومن هذا المكان كان يمكن مشاهدة البحر الذي بات على الملك السيء الحظ أن يركبه إلى أفريقيا، وكان أيضاً يمكن مشاهدة غرناطة، لافيغا La vega ونهر الكسنيل Xénil الذي كانت ترتفع على ضفته خيم فردينان وإيزابيل. وعن رؤيته هذا البلد الجميل وأشجار السرو التي كانت لا تزال تشير هنا وهناك إلى قبور المسلمين، أخذ بوعبدل يبكي. فقالت لـه السلطانة أيكسة (أو عائشة) Aixa والدته، التي كانت ترافقه في منفاه مع كبار الشخصيات الذين يؤلفون البلاط: «إبك الآن كـالنساء ملكاً لم تعرف أن تحافظ عليه كالرجال». ونزلا من الجبل وغابت غرناطة عن نظرهما إلى الأبد.

توزع مور إسبانيا، الذين لاقوا مصير ملكهم، في أفريقيا.

---

(١) ابقينا معظم اسماء العرب في الترجمة كما كتبها شاتوبريان وكما كان يتداولها الغربيون.

وأقامت قبائل زكريس Zegris وغوملس Gomèles في مملكة فاس Fez التي كانت في الأساس أرض جذورهم. وأما الفانيكس Vanégas والألبس Alabès فقد توقفوا عند الساحل من وهران حتى مدينة الجزائر. وأخيراً استقر بنو سراج Les Abencerages في ضواحي تونس. لقد شكلوا، لدى مشاهدتهم أطلال قرطاجة جالية يمكن تمييزها حتى اليوم من المور في أفريقيا، بسبب أناقة عاداتها وانسانية شرائعها.

حملت هذه العائلات إلى وطنها الجديد ذكرى وطنها القديم. كان «فردوس غرناطة» يعيش دائماً في ذاكرتهم. وكانت الأمهات تردد اسمها للأولاد وهم بعد رضّع ، وكن يهززن اسرّة أطفالهن على أغاني الزكريس وأبناء سراج. وكل خمسة أيام كانت الصلاة تقام في الجامع ويتجه المصلون نحو غرناطة، فيطلبون من الله أن يعيد إليهم أرض الملذات هذه. وعبثاً كانت جزيرة جربه تقدم للمهجرين أثمارها ومياهها وخضرتها وشمسها الساطعة، فبعيداً عن أبراج فرماي Tours vermeilles، لم يكن يوجد لا أثمار لذيذة ولا ينابيع صافية ولا خضرة طازجة ولا شمس جديرة بالمشاهدة. وعندما يُعرض على منفي أن يشاهد سهول البغرادا Bagrada يهز رأسه ويصرخ متنهداً: «غرناطة!».

وكان بنو سراج خاصة يحتفظون بارقّ وأخلص ذكرى عن وطنهم. لقد تركوا بأسف مميت مسرح مجدهم والضفاف التي غالباً ما دوّت بصوت السلاح هذا: «الشرف والحب». وعندما لم

يعودوا يتمكنون من رفع الحراب في الصحارى ولا حمل الخوذ ضمن جالية من الفلاحين، فقد كرسوا أوقاتهم لدراسة المهن البسيطة التي يعتبرها العرب معادلة لمهنة السلاح.

وهكذا أصبح شعب المحاربين هذا، الذي كان في ما مضى يصنع الجراح، منهمكاً بفن معالجة هذه الجراح. وبذلك احتفظوا بقسم من عبقريتهم الأولى، ذلك بأن الفرسان كانوا يضمدون بأنفسهم جراح العدو الذي تغلبوا عليه.

لم يكن كوخ هذه العائلة، التي ملكت القصور في ما مضى، واقفاً في الضيعة الصغيرة العائدة للمنفيين على سفح جبل ماماليف Mamélife، ولكنه بني بين انقاض قرطاجة نفسها، على ساحل البحر، حيث مات سان لويس على الرماد وحيث يشاهد اليوم مكان للعبادة. وعلى جدران الكوخ علقت دروع من جلد الأسد تحمل علامات صورتين لمتوحشين يدمرون مدينة بهراواتهم. وحول هذا الشعار هذه الكلمات: «إنه لشيء قليل!». تلك هي أسلحة أبناء سراج وذلك هو شعارهم. إن رماحاً مزينة بريش أبيض وأزرق، وسترات من الساتان المشطوب، كانت مصفوفة قرب الدروع تلمع بين السيوف والخناجر. وعُلقت هنا وهناك قفازات وشكيمات مزدانة بالأحجار الكريمة وركاب كبيرة من الفضة، وسيوف طويلة طرّزت أغمدتها أيدي الأميرات، ومهامز من الذهب كانت الحسناوات يلبسنها للفرسان الشجعان.

وعلى الطاولات قرب هذه الغنائم التي تؤكد الإنتصار، كانت توضع غنائم السلم: نباتات قطفت على رؤوس جبال الأطلس وفي صحراء الزعرة Zaara، وأن قسمًا كبيراً منها قد جلب من سهل غرناطة. بعضها يهدىء أوجاع الجسم وبعضها الآخر يمتد سلطانه إلى مملكة النفس. وكان أبناء سراج يعجبون خصوصاً بتلك النباتات التي تهدّىء الحسرات التي لا طائل تحتها، والنباتات التي تبدد الأوهام الجنونية وتلك الآمال بالسعادة التي دائمًا تولد ودائمًا تخيب. ولسوء الحظ فإن هذه النباتات الطبية كانت ذات خصائص متضاربة، وغالباً ما كان عطر زهرة في الوطن كنوع من السم لمشاهير المنفيين.

مضت أربع وعشرون سنة منذ الإستيلاء على غرناطة. وأبان ذلك لقي أربعة عشر رجلاً من أبناء سراج حتفهم سواء تحت تأثير تغير المناخ أو بسبب حوادث تائهة وخاصة بسبب الحزن الذي يهدم قوى الإنسان خفية. وكان سليل واحد يشكل الأمل الكامل لهذه الأسرة العريقة. ذلك كان ابن ـ حامت — Aben Hamet، هذا الإبن سراج الذي اتهمته قبيلة الزغري Zégris بأنه أغرى السلطانة الفهيمة Alfaima. لقد كان يجمع في شخصه الجمال والقدرة والمجاملة وكرم أجداده، مع البريق الناعم ودلائل الحزن التي تعطيها المصيبة التي يحملها صاحبها بشهامة. كان في الثانية والعشرين من عمره عندما فقد والده، فقرر أن يقوم بزيارة لبلد أجداده ملبياً هاتف قلبه، وأيضاً من أجل أن يحقق هدفاً كتم أمره عن أمه.

ركب البحر في تونس، وقادته ريح مواتية إلى قرطاجة، فنزل من السفينة وأخذ طريقه إلى غرناطة. وكان يعلن عن نفسه كطبيب عربي جاء ليجمع الأعشاب بين صخور السييرا - نيفادا Sierra-Nevada. وقد حمله بغل هادىء في البلد الذي كان فيه أبناء سراج يطيرون في الماضي على ظهور المقاتلين، وكان دليل يمشي أمامه وهو يقود بغلين آخرين زينا بالأجراس الصغيرة وبباقات وخصلات من الصوف مختلفة الألوان. وقد اجتاز إبن حامت الخليج الكبير وغابات أشجار البلح في مملكة مرسي Murcie. ولقدم هذه الأشجار من النخيل قدّر أن آباءه زرعوها. وقد اخترق قلبه الأسى. هنا يرتفع برج حيث كان الحارس يراقب في زمن الحرب بين المور Les Maures والمسيحيين، وهناك تظهرخرائب يدل أسلوب بنائها على أنها ترجع إلى المور، مما يشكل لابن سراج موضوعاً آخر للألم! وكان يترجل عن بغله وبحجة التفتيش عن نباتات، يختبىء لحظة بين هذه الأنقاض لكي يرخي العنان لدموعه. ثم يأخذ طريقه من جديد وهو يحلم على صوت أجراس القافلة وعلى غناء دليله لمتشابه. ولم يكن هذا الدليل ليقطع أغنيته إلا ليستحث بغليه وهو يطلق عليهما اسمي «جميل» و «قادر» أو ليوبخهما بتسميتهما « كسول » و «عنيد».

أما مشهد قطعان الخراف التي يسوقها راع كأنها جيش في سهول صفراء وغير مزروعة، وأما مشهد بعض المسافرين

المنفردين، فبدلاً من أن يبعث بهجة الحياة في الطريق،كان يجعلها تظهرأكثر حزناً وقفراً. وكان هؤلاء المسافرون يتمنطقون جميعهم بالسيوف، ويتسربلون المعاطف، وقبعة كبيرة منحنية إلى الأمام تغطي نصف وجه الواحد منهم. وكانوا يحيون وهم يمرون إبن ـ حامت الذي لم يكن يميز في هذه التحية النبيلة إلا إسم الله والسيد والفارس. في المساء كان ابن سراج يتوقف في الفندق ويأخذ محله بين الغرباء دون أن يزعجه أحد منهم بفضول متطفل. لم يكن أحد ليكلمه ولا ليسأله، وكانت عمامته وثوبه وأسلحته لا تثير أي دهشة. وكان إبن ـ حامت لا يتمالك من الشعور بالتقدير نحو الغزاة، ما دام الله قد شاء لعرب أسبانيا أن يفقدوا وطنهم الجميل.

وكانت مشاعر أقوى وأعنف تنتظر ابن سراج في نهاية مطافه. إن غرناطة مبنية عند سفح السييرا ـ نيفادا على رابيتين عاليتين يفصل بينهما واد عميق. والمنازل الواقعة على منحدر التلال، في أعماق الوادي، تعطي المدينة شكل قنبلة نصف مفتوحة. ومن هنا جاء إسم المدينة غرناطة. وثمة نهران هما نهر الكسانيل Xénil ونهر الدورو Douro، أحدهما يدحرج قطعاً من الذهب والآخر رمالاً من الفضة. هذان النهران يغسلان سفوح الهضاب ثم يجتمعان ويتعرجان وسط سهل فاتن يسمى الفيغا La véga. وتغطي هذا السهل الذي يشرف على غرناطة، أشجار الكرمة والرمان والتين والتوت والبرتقال وهي محاطة بجبال ذات شكل

ولون يثيران الإعجاب. إن سماء بهيجة وهواء صافياً ولذيذا يحملان إلى الروح إرتخاء يصعب على المسافر العابر أن يتحصن ضده، ويشعر المرء في هذا البلد أن الأهواء الناعمة كانت خنقت الأهواء البطولية لولا أن الحب، ليكون حقيقياً، بحاجة مستمرة إلى صحبة المجد.

وعندما اكتشف ابن ـ حامت قمة الأبنية الأولى في غرناطة أخذ قلبه يخفق بقوة إلى حد اضطر معه أن يوقف بغله. ثم شبك ذراعيه على صدره وبقي صامتاً بلا حراك وعيناه معلقتان على المدينة المقدسة. وقد توقف الدليل بدوره. ولما كان من السهل على الإسباني أن يفهم كل المشاعر السامية فقد بدا متأثراً وأدرك أن رجل المور يشاهد من جديد وطنه القديم. ثم قطع ابن سراج الصمت قال:

«أيها الدليل، أسعدك الله! لا تخف عليَّ الحقيقة، لأن الهدوء كان يسود الأمواج يوم ولادتك وكان القمر قد دخل هلاله. ما هي هذه الأبراج التي تسطع كالنجوم فوق غابة خضراء؟».

«إنها الحمراء» أجاب الدليل.

والقصر الآخر على تلك الهضبة؟» قال إبن ـ حامت.

«إنه الجنراليف Généralife، أجاب الإسباني. في هذا القصر بستان مزروع بالآس حيث يقال أن رجلاً من أبناء سراج فوجىء مع السلطانة الفهيمة Alfaïma. وأبعد من ذلك

الألبيزين Albaizyn وقريباً منا تشاهد أبراج فرماي Les Tours Vermeilles».

كل كلمة تفوه بها الدليل كانت تخترق قلب ابن ـ حامت. ما أقسى أن يلجأ المرء إلى الغرباء ليعرف آثار آبائه وليسمع قصة عائلته وأصحابه يـرويها رجال غير مبالين. وصرخ الدليل واضعاً بذلك حداً لتفكير إبن ـ حامت: «فلنمش أيها المور فلنمش، هكذا أراد الله! وتشجع. أليس فرنسوا الأول سجيناً اليوم في عاصمتنا مدريد؟ إن الله قد أراد ذلك». ونزع قبعته وعمل إشارة كبيرة على شكل صليب ثم ضرب بغاله. أما ابن سراج فقد صاح قائلاً: «لقد كان مكتوباً»، وهو يضغط بدوره على بغله ثم نزل الإثنان نحو غرناطة.

ومرّا قرب شجرة الدردار الكبيرة الشهيرة بالمعركة بين موسا Muçaوسيد كالاترافا Calatrava. ودخلا المدينة من مدخل ألفير Elvire. ثم صعدا الرملة Le Rambla. وسرعان ما وصلا إلى مكان محاط من جميع الجهات بمنازل ذات هندسة مورية. وكان خان مقاماً في هذا المكان لاستقبال رجال المور من أفريقيا الذين كانت تجذبهم تجارة مرابد الفيغا Vega أفواجاً أفواجاً إلى غرناطة. وإلى هناك قاد الدليل إبن ـ حامت.

كان ابن سراج مضطرباً بحيث لم يستطع تذوق ولو بعض الراحة في مسكنه الجديد، إذ أن الوطن كان يعذبه. ولما لم يعد يستطيع مقاومة المشاعر التي كانت تزعج قلبه، خرج ليلاً

ليتجول في شوارع غرناطة. وكان يحاول أن يتعرف بالنظر واللمس على بعض الآثار التذكارية التي وصفها له العجائز. هذا البناء الظاهرة جدرانه خلال الظلمات، ربما كان في الماضي مسكناً لأبناء سراج. وهذا المكان، ربما كانت تقام فيه الأعياد التي حملت المجد لغرناطة حتى السحاب. وهناك كان يمر الراقصون الرباعيون وهم يلبسون البروكار، وهناك كانت تتقدم السفن الشراعية الحربية محملة بالأسلحة والزهور والجنود الخيالة يقذفون النار، ومحملة كذلك بأشجع المحاربين.

ولكن، ويا للأسف، فبدلاً من صوت الأبواق وأغنيات الحب، كان يسود صمت عميق حول ابن ـ حامت. لقد بدلت هذه المدينة الصامتة سكانها وجلس الهازمون يستريحون على أسرة المهزومين. وصاح العربي من أعماق سخطه: «هكذا إذاً، ينام الإسبانيون الفخورون في البيوت التي طردوا أجدادي منها. وأنا، ابن سراج، أسهر مغموراً وحيداً عند باب قصر آبائي!».

وكان ابن ـ حامت يفكر عندئذ بمصير الإنسان وبتقلبات الثروة وبسقوط الأمبراطوريات وبغرناطة هذه التي فاجأها أعداؤها وسط الملذات فغيرت فجأة أكاليلها من الزهور واستبدلتها بالسلاسل، وكان يبدو له انه يشاهد مواطنيه وهم يهجرون مساكنهم بثياب العيد كالضيوف الذين يطردهم حريق شب فجأة في قاعة وليمة، فيهرولون خارجين في فوضى من الزينة.

وكانت كل هذه الصور وكل هذه الأفكار تتدافع في روح ابن ـ حامت. وقد كان، وهو مفعم بالألم والأسى، يفكر على الأخص في تحقيق الغاية التي لأجلها جاء إلى غرناطة. ولكن النهار فاجأه، وتاه. لقد قادته خطاه بعيداً عن الخان في ضاحية منعزلة من المدينة. كل شيء كان نائمًا، ولا صوت يعكر صمت الشوارع، وأبواب المنازل وشبابيكها مغلقة. وحده صوت الديك يعلن في مسكن الفقير عودة التعب والشغل.

وبعدما تاه طويلاً دون أن يجد طريقه، سمع إبن ـ حامت باباً يفتح، ورأى امرأة صبية تخرج من الباب وهي ترتدي ثياباً مثل تلك الملكات القوطيات المنقوشات على الآثار التذكارية للأديرة القديمة. وكان مشدها الأسود المزين بالسبج يشد على قوامها الأنيق، وتنورتها القصيرة الضيقة والبلا ثنيات تكشف عن ساق ناعمة وقدم فاتنة؛ وكانت طرحة سوداء أيضاً ملقاة على رأسها، وقد أمسكت بيدها اليسرى هذه الطرحة المغلقة مثل الصدرية تحت ذقنها بحيث لم يكن يشاهد من وجهها سوى عينيها وفمها الوردي. وكانت مرافقة تصحبها وخادم يحمل أمامها كتاب الكنيسة، كما كان خادمان مزينان بألوانها، يتبعان على مسافة قصيرة تلك الحسناء المجهولة: لقد كانت ذاهبة إلى الصلاة الصباحية التي يعلن عنها رنين الأجراس في دير مجاور.

ظن إبن ـ حامت أنه يشاهد ملاك القيامة أو إحدى أجمل الحوريات. وكانت الإسبانية التي فوجئت أيضاً، تنظر إلى ابن

سراج الذي كانت عمامته وثيابه وأسلحته تجمل مظهره النبيل. ولما استفاقت من دهشتها الأولى أشارت إلى الرجل الغريب لكي يقترب، وذلك بأناقة وحرية خاصتين بنساء هذا البلد. وخاطبته قائلة: «أيها السيد العربي، تبدو أنك جئت حديثاً إلى غرناطة: هل تهت عن الطريق»؟.

«يا سلطانة الزهور، اجاب إبن ـ حامت، يا متعة عيون الرجال، أيتها الجارية المسيحية الأجمل من عذارى جيورجيا، لقد حزرت! إنني غريب في هذا البلد: أنا ضائع بين قصوره ولم أستطع أن أجد الخان المعد للعرب فليدخـل النبي محمد إلى قلبك وليكافئك على ضيافتك!».

«إن المور مشهورون بملاطفتهم للنساء» أجابت الإسبانية وهي تبتسم بعذوبة.

«ولكنني لست لا سلطانة الزهور ولا جارية ولا سعيدة بأن يوصى بأمري إلى محمد. اتبعني أيها السيد الفارس: سأدلك على خان المور».

ومشت برشاقة أمام ابن سراج حتى قادته إلى باب الخان، ودلته عليه بيدها، ثم مرت خلف قصر واختفت.

[illegible]، [illegible] هي مرهونة الراحة في الحياة؟ لم يعـد الوطن يشغل وحده [illegible] إبن ـ حامت. لم تعد غرناطة في نظره [illegible] ـجورة وأرملة ووحيدة.

لقد أصبحت عزيزة على قلبه أكثر من أي وقت آخر. إنه سحر جديد يحمل انقاضها. لقد جاءت تمتزج بذكرى أجداده فتنة أخرى. اكتشف ابن ـ حامت المقبرة حيث تستريح رفات أبناء سراج ورمادهم، لكنه وهو يصلي وهو يسجد وهو يذرف الدموع على آبائه، كان يفكر أن الإسبانية مرت بعض الأحيان أمام هذه القبور، لذلك فإنه لم يعد يعتبر أجداده تعساء إلى الحد الذى كان يظن.

وعبثاً حاول أن لا ينشغل إلا برحلته إلى بلد آبائه، وعبثاً اجتاز هضاب الدورو Al Douro والكسانيل Xénil من أجل قطف النباتات عند بزوغ الفجر: إن الزهرة التي يفتش عنها الآن إنما هي الفتاة المسيحية الجميلة. وكم حاول، عبثاً، أن يعثر على قصر فاتنته! وكم من مرة حاول أن يمر في الطرق التي اجتازها مع دليلته الإلهية! وكم من مرة ظن أنه تعرف على رنين ذلك الجرس وعلى صيحة ذلك الديك الذي سمعه قرب مسكن الإسبانية! وكان يركض هنا وهناك آملاً أن يجد ضالته، ولكن دون أن يشاهد القصر السحري ولا مرة! وغالباً ما كانت ملابس نساء غرناطة المتشابهة تمنحه لحظة من الأمل، فمن بعيد كانت كل المسيحيات يشبهن تلك التي استولت على قلبه، ومن قريب لم تكن ولا واحدة منهن تشبه جمالها وفتنتها. ثم راح إبن ـ حامت يطوف الكنائس بحثاً عن المرأة الغريبة، وقد دخل حتى إلى قبر فردينان Ferdinand وإيزابيل Isabelle ، وكان ذلك أكبر تضحية قام بها حتى الآن من أجل الحب.

في أحد الأيام كان يجمع الأعشاب في وادي الدورو Douro.
وكانت هضبة الجنوب تدعم، عند منحدرها المكسو بالزهور، جدران الحمراء وبساتين الجنراليف Generalife، وكانت هضبة الشمال مزينة بالألبيزين Albaïzyn، بحدائق ضاحكة وبمغارات يسكنها شعب غفير، وفي الطرف الغربي من الوادي كانت تشاهد بروج أجراس غرناطة التي ترتفع كمجموعة وسط أشجار السنديان والسرو. وفي الطرف الآخر، نحو الشرق، وعلى حد الصخور، أديرة وبعض الأنقاض لإليبريا Illibérie القديمة، كما كانت تشاهد في البعيد قمم سييرا - نيفادا. وكان نهر الدورو يجري وسط الوادي الصغير وقد توزعت على طول مجراه طواحين ندية وشلالات صاخبة وعقود مكسورة لقناة ماء رومانية وبقايا جسر من عهد المور.

لم يعد إبن - حامت يملك، سواء من التعاسة أو من السعادة، الحد الذي يؤهله لتذوق سحر الوحدة: كان يجوب هذه الضفاف البهيجة مع شيء من الذهول وعدم المبالاة. وبينما كان يسير على غير هدى سلك ممراً من الشجر كان يجري على منحدر هضبة الألبيزين Albaïzyn وسرعان ما برز للعيان منزل ريفي محاط ببستان من أشجار البرتقال. ولما اقترب من الغابة سمع صوتاً وأنغام قيثارة. إن بين صوت امرأة وملامحها ونظراتها علاقات لا يمكن أن تخدع رجلاً وقع في الحب. «هذه حوريتي» قال إبن - حامت. وراح يصغي وقلبه يخفق، ولدى سماع اسم

ابن سراج يتردد مراراً ازدادت ضربات قلبه بسرعة.. كانت الغريبة تنشد أغنية أندلسية تحكي حكاية أبناء سراج والزغري Zégris. ولم يعد إبن ـ حامت قادراً على مقاومة عواطفه فاندفع خلال سياج من الآس ووقع وسط مجموعة من الصبايا اللواتي سيطر عليهن الخوف فهربن وهن يصرخن. وصاحت الإسبانية التي كانت تغني والتي كانت لا تزال تمسك بالقيثارة: «إنه السيد المور» ثم استدعت صديقاتها. وقال لها ابن سراج: «أيتها المفضلة من أرواح الجان، كنت أفتش عنك كما يفتش العربي عن نبع للماء وسط اضطرام الظهيرة. لقد سمعت أصوات قيثارتك. كنت تحتفلين بذكرى أبطال بلدي، وقد عرفتك من جمال لهجتك وإنني أضع عند قدميك قلب إبن ـ حامت».

. فأجابته الغريبة والتي تدعى دونا بلانكا:

«وأنا، كنت أفكر فيك عندما كنت أنشد أغنية أبناء سراج. منذ أن رأيتك تخيلت أن أولئك الفرسان المور كانوا يشبهونك».

وقد ظهر احمرار خفيف على جبين بلانكا وهي تلفظ هذه الكلمات. وشعر إبن ـ حامت أنه مستعد ليلقي بنفسه أمام قدمي الفتاة المسيحية الشابة وليصرح لها بأنه آخر أبناء سراج، لكن بقية من الحذر أمسكته. لقد خشي من اسمه المشهور كثيراً، في غرناطة أن يقلق الحاكم. إن حرب الموريسك Morisques كانت قد انتهت بالكاد، ووجود رجل من أبناء سراج في هذه اللحظة قد يوحي للاسبان بمخاوف حقيقية. ولم

يكن ذلك لأن ابن ـ حامت خشي أي خطر، ولكن لأنه كان يرتجف عندما يفكر أنه قد يضطر أن يبتعد إلى الأبد عن ابنة دون رودريغ Don rodrigue.

كانت دونا بلانكا تتحدَّر من أسرة يرجع أصلها إلى سيد دي بفار Cid de Bivar وإلى شيمان Chimèneإبنة الكونت غوماز دي غورماس Gomez de Gormas وقد اصاب الفقر المدقع ذرية المنتصر على فالنس ـ بال Valence — la —Belle بسبب نكران الجميل الذي أظهره بلاط كاستيل Castille وبدا خلال أجيال أن الذرية انطفأت وتلاشت من فرط ما غمرها النسيان . ولكن في زمن غزو غرناطة ظهر أحد أبناء سلالة البيفار Bivars وهو جد بلانكا ، ولمع نجمه ، لا بسبب ألقابه ولكن بسبب قيمته . وبعد طرد الكفار أعطى الملك فردينان الرجل المتحدر من « السيد » Cid أملاك عائلات عدة من المور وعيَّنه وأعطاه لقب دوك دي سانتا فه- Duc de Santa-Fé وجعل الدوك الجديد مسكنه في غرناطة ومات شاباً بعدما ترك إبناً وحيداً متزوجاً ، هو دوق ـ رودريغ ، والد بلانكا . لقد وضعت تيريزا دي كسيريس Therèsa de xerès زوجة دون رودريغ ولداً أعطي عند ولادته إسم رودريغ مثل كل أجداده ولكنه سمي دون كارلوس Don Carlos للتمييز بينه وبين والده . إن الحوادث الكبيرة التي شاهدها دون كارلوس ، منذ نعومة أظفاره والمخاطر التي تعرض لها وهو يخرج من الطفولة قد جعلت

شخصية دون كارلوس أكثر رزانة وصلابة ، خصوصاً وأن هذه الشخصية كانت ميالة بطبيعتها إلى التقشف . وكان دون كارلوس يبلغ من العمر أربع عشرة سنة تقريباً عندما لحق بكورتز Cortez إلى المكسيك : تحمل كل المخاطر ، وشهد كل فظائع هذه المغامرة المدهشة ، كما شهد سقوط آخر ملك لعالم لا يزال مجهولاً حتى ذلك الحين . وبعد مرور ثلاث سنوات على هذه الكارثة ذهب دون كارلوس إلى أوروبا ليشترك في معركة بافي Pavie وكأنه أراد أن يرى الشرف والشجاعة يتساقطان تحت ضربات الحظ . وكان من شأن رؤية العالم الجديد ، والقيام برحلات طويلة على بحار لم يعبرها قبلاً ، وكذلك مشهد الثورات وتقلبات القدر ، أن زعزعت بقوة مخيلة دون كارلوس الدينية والكئيبة : دخل في جمعية « كالاترافا » Calatrava الفروسية ، وبعدما تخلى عن الزواج برغم رجاء رودريغ له ، تنازل عن كل أملاكه إلى شقيقته .

وكانت بلانكادي بيفار Blanca de Bivar وهي الشقيقة الوحيدة لدون كارلوس وأصغر عمراً منه، معبودة أبيها. وعندما ظهر إبن ـ حامت في غرناطة كانت بلانكا قد فقدت أمها كما كانت قد دخلت عامها الثامن عشر. وقد جمعت بلانكا الفاتنة كل وسائل الإغراء، من صوت ساحر إلى خطو أخف من النسيم. أحياناً كان يطيب لها أن تقود مركبة مثل أرميد Armide وأحياناً كانت تطير على ظهر أسرع ساع في الأندلس مثل تلك

الجنيات الفاتنات اللواتي كنا يظهرن لتريستان Tristan ولغالاور Galaor في الغابات . وكانت تتمتع بسحر أجمل النساء الفرنسيات ، وتملك الأهواء الجديرة بالمرأة الإسبانية . ولم تكن أنوثتها الطبيعية لتنتزع شيئاً من رفعة مشاعرها ومن ثبات

وأقبل دون رودريغ على صوت الصرخات التي أطلقتها الصبايا الإسبانيات عندما اندفع ابن ـ حامت إلى الغابة، فقالت له بلانكا: «يا والدي، ها هو السيد المور الذي حدثتك عنه لقد سمعني أغني فعرف أني هنا ـ وقد دخل إلى الحديقة لكي يشكرني على كوني هديته إلى الطريق».

وقد استقبل دوك سانتا ـ فه ابن سراج بالتهذيب الوقور البسيط المعروف عن الإسبان. ولا يلاحظ عند هذه الأمة أي مظهر من مظاهر التردد الحقير ولا أي طريقة للتعبير تنبىء بدناءة في التفكير وانحطاط في الروح. إن لغة المولى الكبير هي ذاتها لغة الفلاح، والتحية هي ذاتها وكذلك الثناء والمديح والعادات والعرف كلها هي ذاتها. وبقدر ما تكون ثقة هذا الشعب وكرمه مع الغرباء بلا حدود يكون انتقامه مريعاً عندما يخونه أحد. إن هذا الشعب يتمتع بشجاعة بطولية وبصبريصمد أمام كل المحن، ربما أنه لا يستطيع أن يستسلم للمصيبة، لذلك فلا بد له أما أن يسيطر عليها أو أن تسحقه. وهو يملك شيئاً قليلاً مما يسمونه النباهة، إلا أن أهواءه الهيامية الملتهبة تقوم عنده مقام تلك الشعلة المنيرة التي تنبعث من رهافة الأفكار ومن بحبوحتها. إن

إسبانياً يقضي النهار من دون كلام ومن دون أن يشاهد شيئاً ودون أن يقلق على عدم مشاهدة شيء ومن دون أن يقرأ ويدرس شيئاً ولم يمارس أي مقارنة، إن مثل هذا الإسباني سيجد في عظمة قراراته العضد المناسب عند المحنة.

نهارها كانت ذكرى ميلاد دون رودريغ، وكانت بلانكا تقيم لوالدها عيداً صغيراً في هذه العزلة الفاتنة. وقد دعا دوك سانتا فيه إبن ـ حامت لكي يجلس وسط النساء اللواتي كن يلتهين بالتفرج على عمامة الرجل الغريب وعلى ثيابه. وقد جلبن مربعات من المخمل فاستراح ابن سراج عليها على طريقة المور. وسألنه عن بلده وعن مغامراته، فأجاب عنها بذكاء ومرح. وكان يتكلم اللهجة الكاستيلية الصافية، وقد يظنه المرء إسبانياً «أنت» بدلاً من «أنتم»، كان لهذه الكلمة شيء من الحلاوة وهي تنطلق من فمه إلى حد أن بلانكا لم تكن لتستطيع أن تتغلب على غيظ خفي عندما كان يتوجه بالكلام إلى إحدى رفيقاتها. وقد ظهر خدم كثيرون: كانوا يحملون الشوكولا وعجينة الثمار والخبز الصغير من سكر ملقة Malaga وهو أبيض مثل الثلج ذو مسام وخفيف كالإسفنج. وبعد الرفرسكو Refresco دعوا بلانكا لكي تقوم بإحدى تلك الرقصات المزاجية التي تتفوق فيها على أبرع الغيتاناس Guitanas. وتجاوبت بلانكا مع تمنيات صديقاتها. وقد التزم ابن ـ حامت الصمت ولكن نظراته المتوسلة كانت تتكلم عوضاً عن فمه. وقد اختارت بلانكا رقصة الزامبرا

Zambra وهي رقصة معبرة أخذها الإسبان عن المور.

بدأت إحدى الصبايا تعزف على القيثارة لحن رقصة غريبة. ونزعت إبنة رودريغ نقابها وعلقت بيديها البيضاوين صناجات من خشب الأبنوس، بينما تدلى شعرها خصلاً خصلاً على عنقها الذي يشبه المرمر، وفمها وعيناها تبتسم في وقت واحد، وقد انتعش لونها بفعل حيوية قلبها الجديدة. وفجأة جعلت خشب الأبنوس يدوي وضربت ثلاث ضربات إيقاعية، ثم أنشدت أغنية الزامبرا، وراحت، مازجة صوتها بصوت القيثارة، ترقص منطلقة كالبرق. يا للتنوع في خطواتها يا للأناقة في وقفاتها! تارة تدفع ذراعيها بحيوية وطوراً تدعهما تسقطان بتراخ، وتارة أخرى تندفع كأنها قد أسكرتها اللذة ثم تنسحب وكأن الألم قد أضناها. إنها تدير رأسها وتبدو كأنها تنادي شخصاً غير منظور ثم تقدم بكل تواضع خداً مورداً لتتلقى قبلة من زوج جديد وتهرب من الخجل ثم ترجع ساطعة مغراة وتمشي بخطوة نبيلة وتقريباً بخطوة محارب ثم ترفرف من جديد فوق العشب الأخضر. إن إنسجام خطواتها وأغنياتها واصوات قيثارتها كان كاملاً. ولصوت بلانكا، وهو صوت أبح قليلاً، ذلك النوع من النبرة التي تهز الأهواء في أعماق الروح. وتقدم الموسيقى الإسبانية، المؤلفة من تنهدات ومن حركات حيوية ومقاطع حزينة، مزيجاً فريداً من المرح والكآبة .وأن هذه الموسيقى وهذه الرقصة قد حددتا بشكل لا رجوع بعده مصير ابن سراج الأخير: لقد كانتا كافيتين لنشر

الاضطراب في قلب أقل اعتلالاً من قلبه، فكيف به هو؟ عاد الجميع في المساء إلى غرناطة عن طريق وادي نهر دورو. وأعجب دون رودريغ للباقة ـ إبن ـ حامت النبيلة والمهذبة . فلم يرد أن يفترق عنه قبل أن يعده العربي بتكرار المجيء لتسلية بلانكا برواياته الرائعة عن الشرق. وكانت تلك غاية ما يتمناه ابن سراج من أمان، فقبل الدعوة بالطبع. ومنذ اليوم التالي ذهب إلى القصر حيث تتنفس تلك المرأة التي أحبها أكثر من ضوء النهار.

سرعان ما وجدت بلانكا نفسها مرتبطة بهيام عميق في الوقت الذي كانت تعتقد أنه من المستحيل أن تشعر بمثل هذا الهيام، وبدا لها غريباً جداً أن تقع في غرام رجل من المور، كافر ومجهول، بحيث لم تتخذ أي احتياط من الشر الذي بدأ ينساب في عروقها، ولكن فور ما تعرضت إلى إصابتها بهذا الشر قبلت به كإسبانية حقيقية. وأما المخاطر والأحزان التي أدركت أنها ستلحق بها فلم تستطع ان تجعلها تتراجع عن حافة الهاوية أو تتناقش مع قلبها لمدة طويلة . وقالت لنفسها : « فليصر إبن ـ حامت مسيحياً وليحبني ،اتبعه عند ذلك إلى آخر أطراف الأرض».

وكان ابن سراج يشعر من جهته بقوة هوى لا تقاوم: لم يكن ليعيش إلا من أجل بلانكا. ولم يعد ينشغل بالمشاريع التي جلبته إلى غرناطة، كان من السهل عليه الحصول على المعلومات التي جاء سعيا إليها، ولكن أي اهتمام خارج عن حبه قد تلاشى

في عينيه، وكان يخشى حتى الأنوار التي يمكن أن تحدث تغييرات في حياته. لم يكن يطلب شيئاً ولم يكن يريد أن يعرف شيئاً، وكان يقول لنفسه: «فلتصر بلانكا مسلمة ولتحبني فأخدمها عند ذلك حتى آخر رمق في حياتي». وأن ابن - حامت وبلانكا وقد استقر كل منهما في قراره لم يكونا ينتظران سوى لحظة الكشف عن مشاعر كل منهما تجاه الآخر. وكانت تلك الأيام أجمل أيام السنة. وقالت ابنة دوك سانتا - فه لابن سراج: «إنك لم تشاهد الحمراء بعد، وإذا صدقت بعض الكلمات التي أفلتت منك، فإن عائلتك يرجع أصلها إلى غرناطة. وربما كنت مسروراً أن تزور قصر ملوكك القدماء؟ سأقوم هذا المساء بخدمتك كدليل».

اقسم إبن - حامت أن تكون هذه النزهة أمتع نزهة له على الإطلاق.

ولما دقت ساعة الرحلة إلى الحمراء اعتلت إبنة رودريغز - هواناً تعود على تسلق الصخور مثل الجديه ورافقها ابن - حامت على ظهر حصان اندلسي مجهز على طريقة جياد الأتراك. وخلال سير رجل المور، وهو سير سريع، كان ثوبه الأرجواني ينتفخ وراءه كما أن سيفه الملتوي كان يرتطم بالسرج العالي، والهواء يتلاعب بالقنزعة التي تعتلي عمامته. وأما الشعب، وقد كان مفتونا بسحره، فكان يقول وهو ينظر إليه يمر: «إنه أمير كافر ستجعله دون بلانكا يعتنق المسيحية».

سلكا أول الأمر شارعاً طويلاً كان لا يزال يحمل إسم عائلة شهيرة من المور، وكان الشارع يؤدي إلى السور الخارجي للحمراء. ثم اجتازا غابة من الدردار فوصلا إلى نبع وسرعان ما وجدا نفسيهما داخل السور الداخلي لقصر أبو عبدالله. . وفي وسط جدار محصن بالأبراج وتعلوه مرامي السهام انفتح باب اسمه «باب الدينونة». فاجتازا الباب الأول هذا وتقدما في طريق ضيق كان يتعرج بين الجدران العالية والأكواخ نصف المتداعية. وقادهما هذا الطريق إلى مكان الألجيب Algibes الذي بقربه كان شارل الخامس Charles-Quint يشيد قصراً. ومن هناك استدارا نحو الشمال ثم توقفا في ساحة مقفرة عند أسفل حائط بلا زينة أتلفه الدهر. ترجل إبن - حامت ومد يده إلى بلانكا لكي تنزل عن بغلها. وأخذ الخدم يطرقون على باب مهجور كان العشب يغطي عتبته، ففتح الباب وظهرت فجأة عزلات الحمراء الخفية.

إن كل السحر وكل التأسفات على الوطن وقد امتزجت بهيبة الحب وسحره، قد استولت على قلب آخر أبناء ابن سراج. وراح، صامتاً مذهولاً، يغرق نظرات مندهشة في مسكن الجان هذا. كان يظن أنه نقل إلى مدخل أحد تلك القصور التي يقرأ وصفها في الروايات العربية. وكانت ممرات ناعمة وأقنية من الرخام الأبيض تحيط بها أشجار الحامض والبرتقال المكسوة بالأزهار، وينابيع ومجاري مياه منفردة، كانت كل هذه الأشياء تتعرض أمام عيني إبن - حامت، ومن خلال أروقة العقود

المستطيلة كانت تظهر متاهات أخرى وسحر جديد . إن زرقة لازوردية لأجمل سماء كانت تظهر بين الأعمدة التي تدعم سلسلة من العقود القوطية. وكانت الجدران المحملة بالزخرفة العربية تشبه تلك الأقمشة الشرقية التي تطرزها نساء الحريم. وكان شيء ما شهواني وديني وحربي يبدو وكأنه يتنفس في هذا البناء الساحر. إنه نوع من دير للحب، ومعتزل سري حيث كان ملوك المور يتذوقون كل الملذات وينسون كل واجبات الحياة.

بعد لحظات من المفاجأة ومن الصمت، دخل العاشقان هذا الموقع من القوة المتلاشية والسعادة الماضية. طافا أولاً حول صالون المزوكار Mésucar، وسط عطر الزهور وبرودة المياه. ثم دخلا إلى بلاط الأسود. وكان تأثر إبن - حامت يزداد مع كل خطوة. وقال لبلانكا «لو لم تملأي روحي بالمسرات، لكنت سألتك، وبأي حزن، أنت الإسبانية، عن تاريخ هذه المساكن! آه! لقد بنيت هذه الأماكن لكي تكون منتجعاً للسعادة، وأنا! . . .»

ثم شاهد إبن - حامت إسم أبو عبدالله موضوعا ضمن الموزاييك . «يا ملكي . صرخ قائلاً، ماذا حل بك؟ أين سأجدك في حرائك المقفرة؟». وانهمرت من عينيه دموع الولاء والأمانة والشرف.

وقالت له بلانكا: «إن أسيادك القدامى أو بالأحرى ملوك آبائك كانوا ناكرين للجميل». وماذا يهم! أجاب ابن سراج، لقد كانوا تعساء!

قادته بلانكا، وهو يلفظ هذه الكلمات، إلى غرفة كانت تبدو كأنها الحرم نفسه لمعبد الحب. لا شيء يعادل أناقة هذا الملجأ: إن العقد بكامله وهو مدهون باللون اللازوردي وبالذهب، ومؤلف من زخرفات عربية قطعت بشكل تام، كان يترك الضوء يمر من خلال نسيج من الزهور. وكان نبع يتدفق وسط البناء ومياه النبع ، وهي تتساقط كقطرات الندى، تتجمع في صدفة من المرمر. «يا إبن ـ حامت، قالت بلانكا، انظر إلى هذا النبع لقد رميت فيه رؤوس أبناء سراج المشوهة، إنك لا تزال تشاهد على الرخام بقع دم التعساء الذين ضحى بهم أبو عبدالله إشباعاً لظنونه. هكذا يعاملون في بلادك الرجال الذين يخدعون النساء الساذجات».

لم يعد إبن ـ حامت يسمع بلانكا: لقد سجد وراح يقبل بكل احترام اثر دم أجداده. ثم نهض وهتف: «يا بلانكا، أقسم بدم هؤلاء الفرسان بأن أحبك بمثابرة وإخلاص ونشاط رجل من قبيلة، ابن سراج». «إنك تحبني إذن؟» أجابت بلانكا وهي تجمع يديها الجميلتين وترفع نظرها إلى السماء. «ولكن ألم تفكر أنك عدو من المور غير مسيحي وأنني إسبانية ومسيحية؟».

فأجاب ابن ـ حامت «اللهم أشهد على قسمي!».

فقاطعته بلانكا: «أية ثقة تريد أن أعيرها لقسم رجل مثلك يضطهد معتقداتي؟ هل تعرف إذا كنت أحبك؟ ومن أعطاك الثقة

لكي تكلمني بهذه اللهجة؟» فأجاب إبن ـ حامت وقد استولى عليه الذهول: «هذا صحيح لست سوى عبد لك وأنت لم تختارني كفارسك».

«يا رجل المور، قالت بلانكا، دع الحيلة، لقد عرفت من نظراتي أنني أحبك. جنوني من أجلك يتجاوز كل الحدود. كن مسيحياً ولا شيء سيمنعني من أن أكون لك. ولكن إذا كانت ابنة سانتا ـ فيه تتجاسر لتكلمك بهذه الصراحة فيمكنك أن تقدر أنها ستعرف كيف تنتصر وأنه لن يكون لعدو من أعداء المسيحيين أي حق عليها».

أمسك ابن ـ حامت بيدي بلانكا في فورة عاطفية ووضعهما على عمامته ثم على قلبه، وهتف: «إن الله قوي، وإن ابن ـ حامت سعيد! يا نبي الله! فلتعرف هذه الفتاة المسيحية شريعتك ولا شيء يستطيع...»

«إنك تجدف، قالت بلانكا، فلنخرج من هنا».

ثم استندت بلانكا على ذراع رجل المور واقتربت من نبع الأسود الإثني عشر الذي يعطي إسمه لإحدى ساحات الحمراء وقالت: «أيها الغريب، يخيل عندما انظر إلى ثوبك وإلى عمامتك وإلى أسلحتك ثم أفكر بحبنا، يخيل اليّ أنني أشاهد ظل ابن سراج الجميل وهو يتنزه في هذه العزلة المهجورة مع الفهيمة المنكودة الحظ. فسر لي الكلام المنقوش على رخام هذا النبع».

فقرأ إبن ـ حامت هذه الكلمات:

«إن الأميرة الجميلة التي تتنزه مزدانة باللآلىء في حديقتها تزيد من جمال الحديقة بشكل مدهش»... أما باقي الكلام المنقوش فقد كان ممحواً.

وقال ابن ـ حامت: «لقد وضع هذا الكلام المنقوش من أجلك. أيتها السلطانة المحبوبة، هذه القصور لم تكن في شبابها جميلة إلى الحد الذي بلغته اليوم من الجمال وسط أنقاضها. إصغ إلى صوت الينابيع التي حول العشب مجرى مياهها. انظري إلى الحدائق التي تظهر من خلال هذه الأقواس الصغيرة المتساقطة لنصفها. تأملي في نجم النهار الذي يغيب من فوق هذه الأروقة: كم هو جميل أن يهيم المرء معك في هذه الأماكن! ان كلماتك تعطر هذه العزلات مثل ورود الزفاف. وبأي سحر اكتشف في لغتك بعض لهجات لسان آبائي! حفيف ثوبك وحده على هذا الرخام يجعلني ارتعش. ليس الهواء معطراً إلا لأنه لمس شعرك. إنك وسط هذه الانقاض جميلة مثل جنيّة وطني. ولكن هل يمكن ابن ـ حامت أن يأمل في حبك؟ ما قيمتي بقربك؟ لقد اجتزت الجبال مع والدي، وأعرف نباتات الصحراء. ولكن ويا للأسف لا توجد نبتة واحدة يمكن أن تشفيني من الجرح الذي أصبتني به! وأحمل أسلحة ولكنني لست فارساً على الإطلاق. لقد كنت أقول لنفسي في ما مضى: إن ماء البحر الذي يرقد في جوف الصخرة هادىء وصامت بينما كل شيء

قرب البحر الكبير هو هائج وصاخب.
يا ابن ـ حامت! هكذا ستكون حياتك، صامتة، هادئة ومجهولة في زاوية غير معروفة من الأرض، بينما بلاط السلطان قد هاج من العاصفة. كنت أقول ذلك لنفسي، أيتها الفتاة المسيحية، لكنك برهنت لي أن العاصفة يمكنها أن تعكر صفو قطرة الماء في جوف الصخرة».

كانت بلانكا تستمع بنشوة إلى هذه الكلمات الجديدة على أذنها والتي كان يبدو طابعها الشرقي يتناسب مع مهبط الوحي الذي كانت تتجول فيه مع حبيبها. وكان الحب يدخل إلى قلبها من جميع الجهات وتشعر بأن ركبتيها تتأرجحان، لذلك اضطرت أن تستند بمزيد من القوة على ذراع رفيقها. وكان إبن ـ حامت يسند الحمل اللطيف ويردد وهو يمشي: «آه ليتني كنت ابن سراج ما!».

فأجابته بلانكا: «إذن لكنت ستعجبني أقل من الآن، لأنني كنت سأتعذب أكثر. ابق مغموراً وعش من اجلي. غالباً ما ينسى الفارس الشهير الحب في سبيل الشهرة».

فأجابها باندفاع: «لا عليك، هذا خطر غير وارد عليك أبداً».

وسألته بلانكا: «وكيف كنت ستحبني لو كنت أحد أبناء سراج؟».

أجاب: «سأحبك أكثر من المجد وأقل من الشرف».

نزلت الشمس تحت الأفق، خلال نزهة الحبيبين. لقد تجولا في كل الحمراء. ويا لها من ذكريات عصفت بابن ـ حامت! هنا كانت السلطانة تتلقى دخان العطور التي كانوا يحرقونها تحتها. وهناك في ذلك الملجأ المنفرد كانت تتزين بكل حلى الشرق.

وكانت بلانكا المعبودة تروي هذه التفاصيل للشاب الجميل المغرمة به.

ونشر القمر، وهو يرتفع، ضوءه الخافت في المعابد المهجورة وفي ساحات الحمراء المقفرة. ورسمت خطوط أشعته البيضاء حدائق على العشب الأخضر وحالات على الجدران. وصدح البلبل في شجرة سرو اخترقت قبب جامع متداع، وراحت الأصداء تردد صداحه. وكتب إبن ـ حامت، على ضوء القمر، اسم بلانكا على رخام قاعة الشقيقتين Deux Soeurs: لقد رسم هذا الإسم بأحرف عربية حتى يتوافر للمسافر سر آخر لا بد له أن يدركه في قصر الأسرار هذا.

وقالت له بلانكا: «يا ابن المور، هذه الألعاب قاسية، فلنترك هذه الأمكنة. إن مصير حياتي قد تحدد إلى الأبد. احفظ جيداً هذه الكلمات: «إذا كنت مسلمًا فإنني حبيبتك بلا أمل، وإذا صرت مسيحياً فإنني زوجتك المحظوظة».

فأجابها إبن ـ حامت: «إذا كنت مسيحية فإنني عبد لك

حزين، وإذا صرت مسلمة فإني زوجك الفخور».

ثم خرج هذان العاشقان النبيلان من القصر الخطر.

أخذ غرام بلانكا يزداد يوماً بعد يوم، كما أن ولوع إبن حامت ازداد بالعنف نفسه. وكان سعيداً لكونها تحبه لذاته فقط، ولكونه غير مدين لأي سبب غريب بالمشاعر التي أوحاها. وذهب به الفرح إلى حد أنه لم يسمح لنفسه بأن يكشف عن سر ولادته لابنة دوك سانتا ـ فيه وقد وعد نفسه بأن يخبرها أنه يحمل إسماً مشهوراً يوم توافق على الزواج منه. لكنه استدعي فجأة إلى تونس: إن أمه المصابة بمرض لا علاج له، كانت تريد أن تعانق إبنها وتباركه قبل أن تفارق الحياة. فتقدم إبن ـ حامت من قصر بلانكا وقال لها: «أيتها السلطانة، والدتي على وشك الموت وإنها تطلب مني أن أغمض لها عينيها، فهل تحتفظين لي بحبك؟» أجابت بلانكا وقد شحب لون وجهها: «إنك تتركني! ألن أراك بعد أبداً؟». فأجابها: «تعالي، إني سأطلب منك قسماً كما سأعطيك قسماً لا يمكن إلا الموت أن يحطمه. اتبعيني.

فخرجا ثم وصلا إلى مقبرة كانت في الماضي مقبرة للمور. وكانت لا تزال تشاهد هنا وهناك أعمدة صغيرة مأتمية نقش الحفار عليها عمامة، ثم استبدلت العمامة بصليب. وقد قاد ابن ـ حامت بلانكا إلى كعب هذه الأعمدة وقال لها: «يا بلانكا، أجدادي يرقدون هنا، وإنني أقسم برفاتهم أن أحبك حتى يوم القيامة. أعدك بأن لا أربط أبداً قلبي بامرأة أخرى وأن آخذك

كزوجة فور ان تعتنقي دين الرسول. وفي كل سنة في مثل هذا الوقت سأرجع إلى غرناطة لأتأكد مما إذا كنت لا تزالين تحفظين العهد وتريدين أن تتخلي عن أخطائك».

وقالت بلانكا وهي تبكي: «وأنا سأنتظرك طول السنين وسأحتفظ حتى آخر رمق من حياتي بالعهد الذي أقسمته لك، وسأقبلك كزوجة عندما يدخل إله المسيحيين، الذي هو أقوى من حبيبتك، قلبك الكافر».

ومضى إبن ـ حامت تحمله الرياح إلى الشواطىء الإفريقية. وكانت والدته قد فارقت الحياة عندما وصل. فبكاها وعانق نعشها. ومرت الأشهر. أحياناً كان يهيم بين أنقاض قرطاجة وأحياناً يجلس على قبر القديس لويس يتطلع إلى اليوم الذي سيعيده إلى غرناطة. وقد طلع هذا النهار أخيراً، فركب إبن ـ حامت على ظهرسفينة وأدار مقدمها نحو ملقة. وكم كانت فرحته عظيمة وخوفه كبيراً لما شاهد أولى طلائع الأرض الإسبانية. تُرى، هل تنتظره بلانكا على هذه الشواطىء؟ أما تزال تتذكر عربياً مسكيناً لم يتوقف عن حبها وهو تحت نخيل الصحراء؟

ولكن إبنة دوك سانتا ـ فيه كانت وفية لقسمها. فقد رجت والدها بأن يأخذها إلى ملقة، حيث راحت تراقب من أعالي الجبال التي تطل على الشاطىء القفر، وتتابع تجول السفن البعيدة والأشرعة الهاربة. وعندما تهب العاصفة تتأمل بذعر

وهلع البحر وقد أهاجته الرياح، وكانت حينذاك تتمنى أن تضيع وسط الغيوم وأن تعرض نفسها في الممرات الخطرة، أن تغسلها هذه الأمواج نفسها وأن تحملها الزوبعة نفسها التي تهدد حياة ابن ـ حامت. وعندما كانت تشاهد النورس وهو يئن ويحلق ملتصقاً بالأمواج بأجنحته الكبيرة المعقوفة ليطير في اتجاه شواطىء إفريقيا كانت تحمله كل كلمات الحب وكل الأماني الحمقاء التي تخرج من قلب تنهشه العاطفة الجامحة.

وذات يوم بينما كانت تهيم على الشواطىء الرملية شاهدت قارباً طويلاً كانت مقدمته مرتفعة وساريته منحنية وشراعه لاتينياً، مما يعني أنه رسول المور الأنيق. فركضت بلانكا إلى المرفأ وشاهدت السفينة البربرية تدخل وزبد الموج يرتفع من سرعة مجراها. وكان رجل عربي يقف على مقدمة القارب وهو يلبس ثياباً فاخرة. وكان وراءه عبدان يمسكان بمكبح حصان عربي، مناخره التي ينبعث منها الدخان وشعر عنقه المبعثر يعلنان عن طبيعته النشطة وعن الخوف الذي كان يوحي له به صوت الأمواج. ثم يقترب القارب وينكس أشرعته ويلامس الرصيف ويعرض جنبه، فيندفع رجل المور إلى الشاطىء الذي يدوي عند ذلك بصوت أسلحته. ثم يخرج العبيد الحصان الذي يشبه النمر والذي أخذ يصهل ويقفز من الفرح عندما لامس الأرض. وانزل عبيد آخرون برفق سلة فيها غزال راقد بين سعف النخيل، وساقاه الناعمتان مربوطتان ومنحنيتان تحته خشية أن

تنكسرا بسبب حركات السفينة. وحمل الغزال عقداً من حب الألوس Aloes وعلى صفيحة ذهبية تصل بين طرفي العقد، نقش بالعربية إسم وتعويذة. ورأت بلانكا إبن ـ حامت ولم تتجاسر على الظهور أمام الجموع فانسحبت وأرسلت دوروتيه، إحدى وصيفاتها، لكي تبلغ ابن حامت بأنها تنتظره في قصر المور. وكان إبن ـ حامت في هذه اللحظة يقدم للحاكم فرمانه المكتوب بحروف لازوردية على جلد ثمين ضمن غلاف من الحرير. ثم اقتربت دوروتيه وقادت ابن سراج السعيد إلى بلانكا. يا لها من فورة فرح عندما وجد كل منهما الآخر وفياً له! ويا لها من سعادة أن يلتقيا بعدما افترقا مدة طويلة! وكم قسم جديد بأن يحب واحدهما الآخر إلى الأبد!

جلب العبدان الأسودان الحصان الذي لم يكن على ظهره سرج بل جلد أسد متصل بقطعة أرجوان. ثم جلبا الغزال «أيتها السلطانه. قال إبن ـ حامت، إنه أيل من بلدي لا يثرن أكثر منك». فحلت بلانكا رباط الحيوان الظريف الذي كان يبدو كأنه يشكرها وهو يلقي عليها النظرات الناعمة. وكانت بلانكا في غياب ابن سراج تعلمت العربية، فقرأت بعينين غمرهما الحنو إسمها على عقد الغزال. وإذ أطلق سراح الغزال وجد هذا صعوبة في الوقوف على رجليه بعدما بقيتا مقيدتين بالسلاسل مدة طويلة، فنام على الأرض واسند رأسه على ركبتي سيدته. وراحت هذه تقدم للغزال بلسماً جديداً وتداعب

هذا الأيل الصحراوي الذي اكتسب جلده الناعم ـ رائحة خشب الألوس Aloès وورد تونس .

ثم ذهب ابن سراج ودوك دي سانتنا ـ فيه وابنته الى غرناطة .

وكانت أيام العاشقين السعيدين تمر كأيام السنة السابقة: النزهات نفسها، التحسر نفسه أمام مشهد الوطن، الحب أو بالأحرى حب يزداد يوماً بعد يوم يشترك فيه الإثنان دائمًا ولكن مع تعلق كل من العاشقين بدين آبائه. «كن مسيحياً» كانت تقول بلانكا، «كوني مسلمة» كان يقول إبن ـ حامت، ثم يفترق العاشقان مرة أخرى دون أن يستسلم أي منهما إلى العاطفة الجامحة التي تحمل كلًّا منهما نحو الآخر.

ظهر إبن ـ حامت في السنة الثالثة مثل تلك العصافير المسافرة التي يجذبها الحب في الربيع إلى ربوعنا. فلم يجد بلانكا على الشاطىء، وعوضاً عنها وجد رسالة تبلغ العربي الوفي بذهاب دوك دي سانتنا ـ فيه إلى مدريد، وبقدوم دون كارلوس إلى غرناطة يرافقه سجين فرنسي صديق لشقيق بلانكا. وقد شعر رجل المور بقلبه وهو ينقبض عند قراءة هذه الرسالة. فذهب من ملقة إلى غرناطة وهو يشعر بمس داخلي حزين. فبدت له الجبال في عزلة مخيفة، وأدار رأسه مراراً لينظر إلى البحر.

لم تستطع بلانكا، في غياب والدها، أن تترك شقيقاً لها تحبه ،

شقيقاً أراد أن يتخلى لمصلحتها عن كل ما يملكه، وهي تراه من جديد بعد غياب سبع سنوات. كان دون كارلوس يتمتع بكل شجاعة أمته وكبريائها: كان مخيفاً مثل غزاة العالم الجديد الحزين تمرن على أسلحته الأولى، وكان رجلاً متديناً مثل الفرسان الإسبان الذين تغلبوا على المور. كان يشعر في قلبه ضد الكفار بالحقد الذي ورثه من دم «لوسيد» Le Cid.

إن توماس ده لوتريك، وهو من بيت فوا Foix الشهير حيث كان جمال النساء وقمة الرجال هبة وراثية، كان توماس الأخ الأصغر للكونتسه ده فوا وللسيء الحظ الشجاع أوديت ده فوا Odet de Foixسيد لوتريك وعندما بلغ الثامنة عشرة من عمره قام بايار Bayard برسم توماس فارساً في هذه العزلة التي كلفت الفارس الشجاع حياته. وبعد قليل سجن توماس في بافي Pavie بعدمااخترقته بضع ضربات وهو يدافع عن الملك الفارس الذي فقد كل شيء عند ذلك باستثناء الشرف. ولما شهد دون كارلوس دي بيفار Bivar شجاعة لوتريك اعتنى بجراح الفرنسي الشاب وسرعان ما توطدت بينهما صداقة بطولية مؤسسة على التقدير والفضيلة. ورجع فرنسوا الأول إلى فرنسا ولكن شارل الخامس احتفظ بسائر المساجين. وكان للوتريك شرف الإشتراك مع ملكه في الأسر والنوم بقرب قدميه في السجن. وبعدما بقي في إسبانيا بعد ذهاب الملك فقد سلم بناء على طلبه إلى دون كارلوس الذي جاء به إلى غرناطة.

وعندما حضر إبن ـ حامت إلى قصر دون رودريغ وأدخل إلى الغرفة حيث كانت إبنة دوك سانتا ـ فيه، شعر بعذاب لم يعرفه من قبل. لقد جلس عند قدمي الدونا بلانكا رجل شاب ينظر إليها بصمت في حالة من النشوة. ولبس هذا الرجل سروالاً من جلد الجاموس وصدرية من اللون نفسه كان يشدها زنار يتدلى منه سيف عليه أزهار من الزنبق. وكان معطف من الحرير ملقى على كتفيه كما كان رأسه مغطى بقبعة مظللة بالريش، وانبسطت الدانتيلا على صدره تكشف عنقه. وكان شارباه الاسودان كالأبنوس يعطيان وجهه الناعم بطبيعته مظهر الرجولة والقتال. وقد انتعل جزمتين كبيرتين حملتا مهمازاً من الذهب، وهو علامة الفروسية.

وعلى مسافة قريبة كان فارس آخر يقف وهو يستند على الصليب الحديدي لسيفه الطويل: إنه يلبس مثل الفارس الآخر، ولكنه يبدو أكبر منه سناً. وأوحى مظهره القاسي الإحترام والخوف. وكان الصليب الاحمر قالاترافا Calatrava مطرزاً على صدريته مع هذه الإشارة «من اجلنا ومن أجل ملكي».

انبعث صوت عفوي من فم بلانكا عندما شاهدت إبن ـ حامت. وقالت: «أيها الفارسان، هذا هو الرجل الذي حدثتكما عنه طويلاً، وانتبها فقد يكون النصر من حظه هو. إن ابناء سراج كانوا من طينته ولا احد بزهم في الوفاء والشجاعة وملاطفة النساء».

وتقدم دون كارلوس أمام إبن ـ حامت : « أيها السيد المور ، قال ، إن والدي وشقيقتي قد علماني إسمك ، وهما يعتقدان أنك من عرق نبيل وشجاع ، فضلاً عن انك تميزت بلطفك ومجاملتك وقريباً فإن مولاي شارل الخامس سيحمل الحرب إلى تونس وسنلتقي ، كما آمل ، في ساحة الشرف » .

فوضع إبن ـ حامت يده على صدره ثم جلس على الأرض دون جواب، وبقي وعيناه معلقتان على بلانكا وعلى لوتريك. لقد أعجب الأخير بثوب العربي الرائع وأسلحته اللماعة وجماله، ولم تبد بلانكا مرتبكة على الإطلاق، وكل روحها كانت في عينيها. ولم تكن الإسبانية الوفية لتحاول أن تخفي سر قلبها. وبعد لحظات من الصمت. نهض إبن ـ حامت وانحنى أمام إبنة رودريغ ثم انسحب. وقد تعجب لوتريك من موقف رجل المور ومن نظرات بلانكا فخرج والظنون تساوره ولكن الظنون لم تلبث أن تحولت إلى حقيقة.

بقي دون كارلوس وحيداً مع شقيقته ، وقال لها : « بلانكا أعطني تفسيراً وتوضيحاً : من أين نشأ الإضطراب الذي سببته لك رؤية هذا الرجل الغريب ؟ » .

فأجابت بلانكا: «يا شقيقي، إنني أحب إبن ـ حامت وإذا رضي بأن يصير مسيحياً فإن يدي لـه .

فصرخ دون كارلوس: «ماذا. تحبين إبن ـ حامت!؟ إن إبنة

البيفار Des Bivars تحب رجلاً من المور غير مسيحي وهو عدو طردناه من هذا القصر؟»

فقالت: «دون كارلوس، أحب إبن ـ حامت وهو يحبني، ومنذ ثلاث سنوات وهو يتخلى عني حتى لا يتخلى عن عقيدة آبائه. إنه يتمتع بالنبل والشرف والشهامة وسأعبده حتى آخر رمق من حياتي».

كان دون كارلوس جديراً بالشعور بما كان لقرار إبن ـ حامت من صفة كريمة، برغم أنه حزن للإضطراب الذي كان يتخبط فيه هذا الرجل غير المسيحي. وقال: «يا بلانكا السيئة الحظ أين سيقودك هذا الحب؟ كنت آمل أن يصبح صديقي لوتريك ذات يوم زوجاً لك».

فأجابت بلانكا: «كنت واهماً، لأنه لا يمكنني أن أحب هذا الرجل الغريب أما في ما يتعلق بمشاعري تجاه ابن ـ حامت فإني لا أدين بها لأحد. فاحفظ قسم فروسيتك كما أنني سأحفظ قسم حبي. ولكن إعلم فقط، من أجل عزائك، أن بلانكا لن تكون أبداً زوجة لرجل غير مسيحي».

وصاح دون كارلوس: «إن عائلتنا ستختفي إذن عن الأرض!».

فقالت بلانكا: «عليك أنت أن تبعث الحياة فيها. وما هي أهمية أولاد، لن تراهم أبداً، سينحرفون عن فضيلتك؟ دون

كارلوس أشعر بأننا الأشخاص الأخيرون في سلالتنا. لقد ابتعدنا عن النظام العام بحيث أصبح من المتعذر أن يزدهر دمنا من بعدنا: لقد كان لوسيد le Cid جدنا، وسوف يصبح جيلنا المقبل».

وخرجت بلانكا.

أسرع دون كارلوس ليلتقي ابن سراج. وقال له: «يا رجل المور، تخلّ عن شقيقتي أو اقبل بالمبارزة والقتال». فأجابه ابن حامت: «هل كلفتك شقيقتك ان تسترجع مني القسم الذي تعهدت لي به؟».

فأجابه دون كارلوس: «كلا، إنها تحبك أكثر من أي وقت آخر».

فصاح ابن ـ حامت مقاطعاً: «يا شقيق بلانكا المحترم، أنا مدين بكل سعادتي إلى دمك! يا ابن ـ حامت المحظوظ! يا له من يوم سيء! كنت أحسب بلانكا غير وفية لي بسبب هذا الفارس الفرنسي..»

«وهنا يكمن شقاؤك، صرخ بدوره دون كارلوس وقد استشاط غضباً، إن لوتريك هو صديقي، ولو لم تكن لأصبح أخي وزوج شقيقتي. قدم لي حساباً عن الدموع التي جعلت عائلتي تذرفها».

«إنني أريد ذلك، أجاب ابن ـ حامت، ولكنني ولدت من عرق ربما قاتل عرقك، ومع ذلك فلستُ فارساً. لا أرى هنا أحداً يعطيني الأمر الذي يسمح لك بأن تتبارى معي دون أن تنزل من مقامك».

ذهل دون كارلوس بتفكير رجل المور فنظر إليه بمزيج من الإعجاب والغضب وقال فجأة« «أنا الذي سينصبك فارساً! إنك جدير بذلك». فأحنى إبن ـ حامت ركبته أمام دون كارلوس الذي عانقه وهو يضرب على كتفه ثلاث مرات بسيفه ثم يعلق دون كارلوس هذا السيف على وسط ابن سراج الذي قد يغمد سيفه في صدر دون كارلوس: هكذا كان الشرف القديم.

واندفع الإثنان كل على جواده وخرجا من جدران غرناطة ثم إلى ينبوع الصنوبر. إن مبارزات المور والمسيحيين قد جعلت هذا الينبوع مشهوراً منذ زمن طويل. وهناك كان مالك العبس Mali-que Alabes قد تبارز مع بونس دي ليون Ponce de léon وهناك أيضاً قتل سيد كالاترافا Calatrava أبايادوس Abayados الشجاع. وكان حطام أسلحة هذا الفارس المور لا تزال تُشاهد معلقة على غصون الصنوبر، كما كانت تشاهد على قشرة الشجرة بعض الأحرف من نقش مأتميه، وأشار دون كارلوس بيده إلى قبر الأبايادوس أمام ابن سراج وقال له: «قلد هذا الرجل الشجاع وتلق العماد والموت من يدي».

«ربما الموت، أجاب إبن ـ حامت، ولكن فليعش الله ورسوله!».

ثم تراجعا وهجم كل منهما على الآخر في حالة من الهياج. لم يكن لكل منهما سوى سيفه: وكان إبن ـ حامت أقل براعة في القتال من دون كارلوس. ولكن جودة سلاحه المصنوع في دمشق، وخفة حصانه العربي كانا يعطيانه أفضلية على خصمه، فدفع بحصانه على طريقة المور، وبواسطة ركابه الحاد الكبير قطع الساق اليمنى لحصان دون كارلوس، فسقط الحصان المجروح وأخذ دون كارلوس المجندل بهذه الضربة يمشي نحو ابن ـ حامت رافعاً سيفه. فقفز إبن ـ حامت إلى الأرض وتصدى لدون كارلوس بكل شجاعة، الذي لم يلبث أن حطم سيفه على سيف رجل المور. وبعدما خدعه الحظ مرتين بكي دون كارلوس دموع الغضب في وجه عدوه: «إضرب يا رجل المور، إضرب، إن دون كارلوس المجرد من السلاح يتحداك أنت وكل سليلتك غير المسيحية».

«كان في وسعك أن تقتلني، أجاب ابن سراج، لكنني لم أفكر قط في إصابتك بأقل جرح: لقد اردت فقط أن أبرهن لك على انني جدير بأن أكون أخاك ولكي أمنعك من احتقاري». في هذه اللحظة شوهدت غيمة من الغبار: كان لوتريك وبلانكا يقودان فرسين من فاس Fez أسرع من الريح فلما وصلا إلى ينبوع الصنوبر وجدا أن القتال قد توقف.

«لقد انهزمت، قال دون كارلوس، إن هذا الفارس وهبني الحياة، يالـوتريـك، ربما ستكون أسعد حظاً مني» .

«إن جراحي، قال لوتريك بصوت نبيل ولطيف، تسمح لي بأن أرفض القتال ضد هذا الفارس المهذب». وأضاف لوتريك وقد احمر وجهه: «لا أريد مطلقاً أن أعرف موضوع نزاعكما، والكشف عن سر قد يحمل الموت إلى صدري. وقريباً فإن غيابي سيبعث السلام بينكما إلا إذا أمرتني بلانكا بالبقاء عند قدميها».

«أيها الفارس، قالت بلانكا، إنك ستبقى إلى جوار شقيقي وستعـاملني كشقيقتك. كـل القلوب الموجـودة هنا تعـاني من الحزن، وأنت ستتعلم منا كيف تتحمل شرور الحياة».

وأرادت بلانكا أن تجبر الفرسان الثلاثة على مصافحة بعضهم البعض، لكن الثـلاثة امتنعـوا عن ذلك: «إنني أكـره إبن ـ حامت!» صرخ دون كارلوس «إنني أحسده»، قال لـوتـريـك. «وأما أنا، قال ابن سراج، فإنني أقدر دون كارلوس وأشفق على لوتريك ولكن لا يمكنني أن أحبهما».

فقالت بلانكا: «فليشاهد بعضنا بعضاً دائماً. وآجلاً أم عاجلاً فإن الصداقة ستعقب التقدير. وليكن الحدث المشؤوم الـذي يجمعناهنا منسياً إلى الأبد في غرناطة».

أصبح إبن ـ حامت، منذ تلك اللحظة، غالياً أكثر من ألف مرة على قلب إبنة سانتاـ فيه: إن الحب يعشق الشجاعة ولم يكن

ينقص ابن سراج شيء لأنه كان شجاعاً وكان دون كارلوس مديناً له بالحياة. وقد امتنع ابن ـ حامت حسب نصيحة بلانكا، خلال أيام، عن المجيء إلى القصر حتى يهدأ غضب دون كارلوس. كان مزيج من المشاعر الحلوة والمرة يملأ ابن سراج: كان ارتياحه إلى أن بلانكا تحبه بكل وفاء واندفاع مصدراً لا نهائياً للذائذ، إلا أن يقينه من أنه لن يسعد مع بلانكا إلا إذا تخلى عن معتقدات اباثه كان يرهقه.

وانقضت سنوات من دون أن يعثر على دواء لمرضه، تُرى، أيتفرج هكذا على بقية حياته يتهرب دون نتيجة؟

كان مستغرقاً في التفكير عندما سمع، ذات مساء، تلك الصلاة التي تعلن عند المسيحيين نهاية النهار. وساورته فكرة الدخول إلى معبد بلانكا وطلب النصيحة من سيد الطبيعة.

خرج ثم وصل إلى باب جامع قديم تحول إلى كنيسة. فدخل وقلبه مفعم بالحزن والإيمان، إلى هذا المعبد الذي كان في ما مضى معبد إلهه ووطنه. وكانت الصلاة قد انتهت ولم يكن أحد موجوداً في الكنيسة. وكان ظلام مقدس يسود خلال العديد من الأعمدة التي تشبه جذوع أشجار غابة مزروعة بانتظام، وامتزجت الهندسة المعمارية العربية بالهندسة القوطية فاكتسبت، ومن دون أن تفقد شيئاً من أناقتها، هيئة أكثر ملاءمة للتأملات.

وكانت مصابيح تضيء بخفوت أعماق التجاويف، وعلى ضوء الشموع انير هيكل المعبد: كان يلمع بالذهب والأحجار الكريمة. إن الإسبان يضعون كل مجدهم في التجرد من ثرواتهم ليزينوا بها الأشياء العائدة لعبادتهم وشعائرهم، وصورة الله الحي الموضوعة بين الدانتيلا، وبين أكاليل اللآلىء ورزم الياقوت، هي صورة يعبدها شعب نصف عارٍ.

ولم يكن ثمة أي مقعد وسط الحرم الواسع وكان بلاط من المرمر يغطي نعوشاً، يستعمل للكبار وللصغار لكي يسجدوا أمام الإله. وتقدم إبن - حامت ببطء في الأجنحة المقفرة التي راحت تدوي من وقع خطواته. وكان عقله موزعاً بين الذكريات التي يوحيها له هذا البناء الذي كان معداً لدين قومه من المور، والمشاعر التي كانت تثيرها في قلبه ديانة بلانكا. وقد شاهد على جذع عمود من الأعمدة وجها بلا حراك، حسبه بادىء بدء تمثالا على قبر فاقترب منه، فظهر له فارس شاب راكع على ركبتيه وجبهته منحنية باحترام وذراعاه متشابكتان على صدره. لم يقم الفارس بأي حركة لدى سماعه وقع خطوات إبن - حامت، ولم تكن لتعكر صلاته العميقة أي تسلية أو أي إشارة خارجية. وكان سيفه ممدداً على الأرض أمامه كما كانت قبعته المزينة بالريش موضوعة على الرخام إلى جانبه. وبدا كأنه مجمد بهذا الوضع تحت تأثير سحر وافتتان. كان هذا الفارس هو لوتريك. وقال ابن سراج في نفسه: «آه، لا بد أن يكون هذا الفرنسي

الشاب في حالة طلب من السماء، طلب خدمة مهمة. وهكذا جاء هذا المحارب الشهير بشجاعته يفتح هنا قلبه أمام رب السماء كأي رجل متواضع. فلنبتهل اذاً معه لرب الفرسان والمجد».

كان ابن ـ حامت على وشك أن يندفع إلى الرخام عندما شاهد، على ضوء مصباح، حروفاً عربية وآية من القرآن الكريم تحت سقف من الجبس قد تداعى نصفه. فاستولى عليه تأنيب الضمير وأسرع بمغادرة المعبد وقد أوشك أن يخون دينه ووطنه وكانت المقبرة التي تحيط بهذا الجامع القديم، نوعاً من الحديقة المزروعة بأشجار البرتقال والسرو والنخيل ويسقيهانبعان، وكان دمر يهيمن على محيط المكان.

وإذ كان إبن ـ حامت يمر تحت أحد الأروقة شاهدامرأة تهم بالدخول إلى الكنيسة. وبرغم حجابها عرف ابن ـ حامت أنها كريمة، دوك دي سانتا ـ فيه، فاستوقفها وقال لها: «هل جئت لتفتشي عن لوتريك في هذا المعبد؟» .

فأجابته بلانكا: «دعك من هذه الغيرة التافهة، لو كنت لم أعد أحبك لقلته لك. إنني لأشعر بالإحتقار إذا خدعتك. أجيء هنا لأصلي من أجلك. وحدك تشكل هدف أمنياتي، إنني انسى روحي من أجل روحك. كان عليك إما أن لا تسكرني بسم حبك أو أن تعتنق ديانة إلهي. إنك تزعج كل عائلتي، شقيقي

يكرهك، ووالدي استولى عليه الحزن لأنني أرفض اختيار زوج آخر. ألا تلاحظ أن صحتي تسوء؟ انظر إلى ملجأ الموت هذا، انه مسحور وسأستريح فيه قريباً.

إذا لم تسرع في اعتناق ديانتي على مذبح المسيحيين، إن النزاعات التي تصطرع في داخلي تنخر حياتي شيئاً فشيئاً. وحبي لك لن يستطيع أن يغذي على الدوام وجودي الهزيل ويسنده. تذكر يا رجل المور، وها أنا الآن أتكلم حسب طريقتك في الكلام، بأن النار التي تشعل المشعل هي أيضاً النار التي تذيبه».

ثم دخلت بلانكا إلى الكنيسة وتركت إبن ـ حامت وقد استولى عليه وقع كلماتها الأخيرة.

قضي الأمر: لقد استسلم ابن سراج وها هو مقبل على نكران دينه. لقد كافح طويلاً . وإن الخوف من مشاهدة بلانكا تموت قد تفوق على كل شعور آخر في قلبه. وقال في نفسه: أود على كل حال فربما يكون إله المسيحيين هو الإله الحقيقي. إن هذا الإله هو حتماً إله الأرواح النبيلة ما دام إله بلانكا ودون كارلوس ولوتريك». ومع هذه الفكرة، إنتظر إبن ـ حامت اليوم التالي، بنفاد صبر، لكي يبلغ بلانكا بالقرار الذي سيتخذه لكي يقلب حياة من الحزن والدموع حياة من الفرح والهناء. ولم يتمكن من الذهاب إلى قصر دوك سانتا ـ فيه في المساء. وعلم أن بلانكا ذهبت مع شقيقها إلى الجنراليف Généralife حيث كان لوتريك

يحتفل بسهرة، فهزت إبن ـ حامت الظنون وطار ليقتفي آثار بلانكا. احمر وجه لوتريك عندما شاهد ابن سراج ،أما دون كارلوس فقد استقبل رجل المور بتهذيب فائق ساده التقدير.

كان خدم لوتريك يقدمون أجمل ثمار إسبانيا وإفريقيا في إحدى صالات الجنراليف المسماة صالة الفرسان. وعلى جدرانها علقت الرسوم والصور الشخصية للأمراء وللفرسان الذين تغلبوا على المور: من بيلارج Pelarge إلى «السيد» Le Cid إلى غونزالف دي كوردو Gonzalve de Cordoue. وكان سيف آخر ملوك غرناطة معلقاً تحت هذه الرسوم فكتم ابن ـ حامت ألمه في نفسه وقال كالأسد وهو ينظر إلى هذه اللوحات: «نحن لا نحسن الرسم». وقال لوتريك لما شاهد نظر ابن سراج يتجه، رغماً عنه، نحو سيف أبو عبدالله Boabdil: «أيها الفارس المور لو كنت تنبأت بأنك، ستشرفني بحضور هذا العيد لما كنت استقبلتك هنا. إننا نضيّع كل يوم سيفاً، وقد شاهدت أشجع الملوك يسلم سيفه إلى عدوه السيد». فصرخ رجل المور وهو يغطي وجهه بقطعة من ثوبه: «آه! يمكن أن يضيع المرء سيفه مثل فرنسوا الأول، ولكن ليس مثل أبي عبدالله Boabdil! . . .».

وأقبل الليل فجلبت مشاعل وتغير مجرى الأحاديث. وطلبوا من دون كارلوس أن يروي قصة اكتشاف المكسيك، فتكلم عن هذا العالم المجهول بتلك الفصاحة الإحتفالية التي هي طبيعية

بالنسبة إلى الأمة الإسبانية . وتحدث عن مصائب مونتزوم Montézume وعن عادات الأميركيين وعن معجزات البسالة الكاستيلانية Castillane وحتى عن قساوة مواطنيه الذين كانوا يبدون له غير مستحقين المديح ولا الملامة. وقد أبهجت هذه الرواية ابن -حامت الذي كان ولعه بالقصص الرائعة يكشف انه العربي. وقدم بدوره صورة عن الإمبراطورية العثمانية الجالسة حديثاً على انقاض القسطنطينية، وذلك مبديا بعد الأسى على الأمبرطورية الأولى للنبي محمد في ذلك العهد السيد عندما كان قائد المؤمنين يشاهد من حوله زبيدة زهرة الجمال وقوة القلوب، وغانم Ganem ذلك الكريم الذي رضي بأن يصير عبداً من زواجه، وأما لوتريك فقد وصف البلاط الأنيق لفرنسوا الأول، كما وصف الفنون وهي تنبعث من أحشاء البربرية، والشرف والولاء وفروسية الأزمان القديمة، هذه الأمور التي تحدث مع تهذيب القرون المتحدثة والأبراج القوطية.

وبعد هذه المحادثات أخذ لوتريك قيثارة ليغني هذه القصيدة التي نظمها بنغم من رجال بلاده:

إن لي ذكرى لطيفة
عن مكان مولدي الجميل
يا شقيقتي كم كانت جميلة
أيام فرنسا

يا وطني كن حبيبي[1]
دائمًا
هل تتذكرين أن والدتنا
في مقر كوخنا
كانت تشدنا إلى قلبها المرح
يا عزيزتي
وكنا نقبل شعرها الأبيض
كلانا
يـا شقيقتي هل تذكرين
القصر الذي كان يغسله نهر الدور
وهذا البرج القديم
للمور
حيث كان البرونز يعلن بدقاته عن رجوع اليوم؟
هل تذكرين البحيرة الهادئة
التي كان يلمسها السنونو الرشيق
وهل تذكرين الهواء الذي كان يحني القصب
المتحرك
والشمس تغيب فوق الماء
الجميل؟

---

(١) هذه الأغنية العاطفية معروفة لدى الجمهور. لقد نظمت كلماتها لنغم جبال الأوفرني Auvergne وهو نغم رائع بنعومته وبساطته.

اه من سيرجع لي هيلين
وجبلي والسنديانة الكبيرة؟
إن ذكراهم تخلق كل يوم
غمّاً لي:
إن وطني سيبقى حبيبي دائمًا

ولما أنهى لوتريك المقطع الأخير أخذ يمسح بقفازه دمعة دمعة انتزعتها من عينيه ذكرى بلده اللطيف فرنسا. وقد شعر إبن ـ حامت بتحسر السجين الجميل، وهو الذي كان ينوح مثل لوتريك على ضياع وطنه. ولما طلبوا من إبن ـ حامت ان يأخذ القيثارة بدوره، اعتذر قائلاً إنه لا يعرف سوى قصيدة واحدة وقد لا يستمرؤها المسيحيون. فقال دون كارلوس باحتقار: «إذا كان غير المسيحيين يتأوهون فيها من انتصاراتنا، فيمكنك أن تغني. الدموع مسموحة للمغلوبين على أمرهم».

فقالت بلانكا: «نعم. ولهذا فإن آباءنا الذين كانوا خاضعين في ما مضى لسيطرة المور قد تركوا لنا كثيراً من الشكاوى».

وراح إبن ـ حامت يغني هذا الموشح الذي تعلمه من شاعر من قبيلة ابن سراج[1].

---

(١) عندما كنت أجتاز بلداً جبلياً بين الجزيرة Algéziras وقادش Cadix فوقفت في فنتا Venta الواقعة وسط غابة. ولم أجد فيها سوى صبي صغير عمره بين الرابعة عشرة والخامسة عشرة وفتاة صغيرة تقريباً من العمر نفسه هما شقيق وشقيقة كانا يجدلان قرب النار جدائل من الأسل وينشدان أغنية عاطفية لم أكن لأفهم كلماتها ولكن نغمها كان بسيطاً وساذجاً.

كان الملك دون جوان
ذات يوم يركب جواداً
فشاهد على الجبل
غرناطة إسبانيا
فقال لها فجأة:
أيتها المدينة الصغيرة الظريفة
إن قلبي لك
مع يدي
سأتزوجك
ثم أجلب
كهبات لمدينتك
قرطبة واشبيلية
أيتها الحلية الرائعة
إنني أهديك
إلى حبي
فأجابت غرناطة:
إنني مرتبطة بالمور
وأنني متزوجة
فاحتفظ بهداياك
إن زينتي
هي زنار غني
وأولاد رائعو الجمال
هكذا قلت

وهكذا كذبت
يا للإهانة المميتة!
إن غرناطة هي قسم زور
هناك مسيحي
أخذ عن ابن سراج
إرثاً
لقد كان مكتوباً.
الجَمَل لا يجلب
إلى القبر
قرب بركة السباحة
هاج المدينة
إن مسيحياً
أخذ من ابن سراج
إرثاً:
لقد كان مكتوباً
أيتها الحمراء الجميلة
يا قصر الله
يا مدينة الينابيع
أيها النهر الأخضر السهول
إن مسيحياً
أخذ عن ابن سراج
لقد كان مكتوباً.

أثّرت بساطة هذه التأوهات تأثيراً رائعاً في دون كارلوس برغم بعض الكلمات التي وردت في الموشح. وقد تمنى لو أنهم يسمحون له بأن لا يغني. ولكن مجاملة للوتـريـك استسلم لطلب الأخير. فأعطى إبن ـ حامت القيثارة لشقيق بلانكا الذي احتفل بأثـر لوسيد Le Cid جده الشهير[1]. منشداً:

مستعد للذهاب إلى الشاطىء الأفريقي
فإن «السيد» المسلح ذا القيمة الساطعة
كان يغني على قيثارته وعند قدمي شيمان
هذه الأبيات التي أوحى له بها الشرف

قالت شيمان: إذهب وقاتل المور
وارجع منتصراً من هذا القتال
نعم سأصدق أن رودريغ يعبدني
إذا جعل حبه بعد شرفه.

---

(١) كل الناس يعرفون لحن «جنون إسبانيا» Folies d'Espagne . كان هذا اللحن بلا كلمات أو، على الأقل، بلا كلمات تعطيه طابعاً رصيناً ودينياً وفروسياً. ولقد حاولت أن أعبر عن هذا الطابع في أغنية «السيد» العاطفية. وقد انتشرت هذه الأغنية العاطفية بين الجمهور من دون موافقتي. وقد شرفني أساتذة مشهورون بتجميلها بموسيقاهم. ولكن بما انني نظمتها عن قصد من أجل لحن «جنون إسبانيا»، فهناك مقطع اصبح هراءً حقيقياً إذا لم يستند إلى قصدي الأساسي:

إن غنائي النبيل المنتصر
سيصبح يوماً «جنون إسبانيا» إلخ ...

اعطني، أعطني خوذتي وحربتي
سأبرهن أن رودريغ شجاع
وفي المعارك التي تبرز شجاعته
فإن صوته سيكون لحبيبته وللشرف
أيها المور الذي يتغنون بغزله
إن غنائي النبيل المتصر على لغتك
سيصبح ذات يوم جنون إسبانيا
لأنه سيصوّر الحب مع الشرف.
في وادي الأندلس الصغير
فإن المسيحيين العجائز سيتحدثون عن شجاعتي
سيقولون: لقد فضل على الحياة
ربه وملكه وحبيبته شيمان والشرف.

بدا دون كارلوس فخوراً جداً وهو يغني هذه الكلمات بصوت رجولي رنان لدرجة أنه كان يخيل للمرء أنه «السيد» Le Cid نفسه. وكان لوتريك يشترك في حماسة صديقه. أما ابن سراج فقد شحب لونه لدى سماعه إسم «السيد» Le Cid.

وقال ابن ـ حامت: «إن هذا الفارس الذي يسميه المسيحيون «زهرة المعارك» نطلق عليه نحن اسمًا قاسياً. وليت كرمه كان في مثل بسالته!....».

فقال دون كارلوس باندفاع وهو يقاطع إبن ـ حامت: «إن كرمه كان أكبر من شجاعته، وما من أحد سوى المور يتجرأون على الذم بالبطل الذي تدين له عائلتي بالحياة».

فصرخ إبن ـ حامت مندفعاً من المقعد الذي كان جالساً عليه: ماذا تقول؟ إنك تعتبر «السيد» من أجدادك؟».

«إن دمه يجري في عروقي، قال دون كارلوس، والبرهان على ذلك هو الحقد الذي يضطرم في قلبي ضد أعداء معتقداتي».

«هكذا، قال إبن ـ حامت وهو ينظر إلى بلانكا، إنك تنتمي إلى تلك العائلة من البيفار Bivars الذين بعد غزو غرناطة، اجتاحوا منازل أبناء سراج التعساء وقتلوا فارساً عجوزاً يدعى بهذا الإسم كان يريد الدفاع عن قبور أجداده».

فصاح دون كارلوس وهو يشتعل من الغضب: «يا رجل المور إعلم أنني لا أسمح أبداً بأن تطرح علي الأسئلة. وإن كنت أملك اليوم بقايا أبناء سراج فإن أجدادي هم الذين استولوا عليها بثمن دمهم وبقوة سيفهم».

فقال ابن ـ حامت: «أريد أن أضيف كلمة، لم نكن نعلم في منفانا أن البيفار Les Bivars حملوا لقب سانتا ـ فيه. وهذا هو سبب خطأي».

فأجاب دون كارلوس: «وأن هذا اللقب قد منح للبيفار نفسه Bivar الذي تغلب على أبناء سراج، ولقد منحه هذا اللقب فردينان الكاثوليكي». انحنى رأس إبن ـ حامت على صدره وبقي وسط دون كارلوس ولوتريك وبلانكا الذين استولى عليهم العجب. سيلان من الدموع تدفق من عيني ابن ـ حامت

على الخنجر المعلق في زناره. وقال: «سامحوني إن الرجال، كما أعلم، يجب أن لا يذرفوا الدموع: من الآن فصاعداً فإن دموعي لن تسكب إلى الخارج مع أنه بقي لي أن أبكي كثيراً. أصغوا لي. يا بلانكا إن حبي لك يعادل اندفاع الرياح الحارقة في الجزيرة العربية. لقد هزمني حبك، ولم يعد في وسعي أن أعيش من دونك. وبالأمس فإن مشهد هذا الفارس الفرنسي وهو يصلي، كما أن كلماتك في مقبرة المعبد، جعلتني أميل إلى احترام إلهك».

وندت حركة فرح من بلانكا وحركة مفاجأة من دون كارلوس، قاطعتا إبن ـ حامت، أما لوتريك فقد خبأ وجهه في يديه. وحزر رجل المور بماذا يفكر الفرنسي فقال له وهو يهز رأسه مع ابتسامة صارخة: «أيها الفارس، لا تضع كل أمل، وأنت يا بلانكا إبك إلى الأبد آخر رجل من سلالة ابن سراج!». فرفعت بلانكا كما رفع دون كارلوس ولوتريك أيديهم نحو السماء وصرخوا: «ابن سراج الأخير!».

وسيطر السكون. الخوف والأمل والحقد والحب والتعجب والحسد، كل هذه الأمور أخذت تهز القلوب، ثم ركعت بلانكا على ركبتيها. وقالت: «يا إله الرأفة، أنت تعرف أني لم أخطىء! لم يكن في وسعي أن أحبس إلا رجلاً متحدراً من سلالة أبطالي».

وصرخ دون كارلوس غاضباً «تذكري يا شقيقتي أنك هنا أمام لوتريك!».

وقال ابن ـ حامت: «دون كارلوس، أوقف غضبـك، إنه يعود لي أنا أن أريحك». عند ذلك توجه بالكلام إلى بلانكا التي جلست من جديد: «يا حورية السماء، يا جنية الحب والجمال، سيظل إبن ـ حامت عبداً لك حتى آخر رمق من حياته، ولكن عليك أن تعرفي مدى شقائه. إن العجوز الذي قتله جدك وهو يدافع عن مساكنه، هذا العجوز هو والد والدي، واعلمي أيضاً سراً آخر كنت كتمته عنك أو بالأحرى كنت جعلتني أنساه. عندما جئت للمرة الأولى أزور هذا الوطن الحزين كان في نيتي أن أفتش عن أحد من البـيفار Des Bivars يمكنه أن يؤدي لي الحساب عن الدم الذي كان آباؤه قد أراقوه».

«إذن، قالت بلانكا بصوت غيره الألم وهي مدعومة بلهجة روح كبيرة، فما هو قرارك؟».

«إنه القرار الوحيد الذي يمكن أن يكون جديراً بك، أجاب ابن ـ حامت: أن أعيد لك قسمك، وأن أرضى بـغيـابي الأبدي وبموتي، ما يتوجب على كل منا حيال معتقداته وأوطانه وعائلاته. وإذا امحت صورتي من قلبك، وإذا نزع مرور الزمن الذي يدمر كل شيء، إذا نـزع من ذهنك ذكرى ابن سراج... فإن هذا الفارس الفرنسي... أنت مدينة بهذه التضحية إلى شقيقك».

فنهض لوتريك عند ذلك باندفاع ورمى بنفسه بين ذراعي رجل المور. «يا إبن ـ حامت، صرخ قائلاً، لا تعتقد أنـك

ستتغلب عليّ بالكرم: إنني فرنسي وإن بايار Bayard هو الذي نصبني فارساً. لقد سفكت دمي من أجل ملكي، وإنني سأكون مثل عرابي ومثل أميري بلا خوف وبلا لوم. إذا بقيت معنا فإنني أتضرع لدون كارلوس لكي يمنحك يد شقيقته، وإذا غادرت غرناطة فلن أزعج حبيبتك بكلمة واحدة عن حبي. إنك لن تحمل معك أبداً إلى منفاك الفكرة المشؤومة بأن لوتريك ، وكأنه لم يشعر بفضيلتك، يسعى إلى الإستفادة من مصيبتك».

ثم أخذ الفارس الشاب يشد رجل المور إلى صدره بحرارة الفرنسيين واندفاعهم.

وتكلم دون كارلوس بدوره، فقال: «أيها الفارسان لم أكن أتوقع منكما أقل من ذلك. يا إبن ـ حامت بأي علامة يمكنني أن أتأكد من أنك آخر أبناء سراج؟».

وقال إبن ـ حامت: «بسلوكي».

«إنني معجب به، قال الإسباني ولكن قبل أن أشرح لك معنى كلامي، أرني أي علامة عن مولدك». فسحب إبن ـ حامت من صدره الخاتم الوراثي لابناء سراج الذي كان يحمله معلقاً بسلسلة من الذهب.

ولدى مشاهدة هذه العلامة من دون كارلوس مد يده إلى ابن ـ حامت وقال: «أيها الفارس السيد، إنني أعتبرك نبيلاً كما أعتبرك ابن ملك حقيقي. إنك تشرفني بخططك الخاصة

بعائلتي: إنني أقبل المبارزة التي جئت إلى هنا تسعى إليها سراً. فإذا انهزمت فإن أملاكي التي كانت في ما مضى أملاكك ستسلم إليك بكل أمانة. أما إذا تخليت عن مشروع المبارزة فاقبل ما أعرضه عليك: كن مسيحياً وتقبل يد شقيقتي، هذه اليد التي طلبها لوتريك لك».

كان الإغراء كبيراً، لكنه لم يكن أكبر من قوى إبن ـ حامت. فإذا كان الحب بكل قوته يخاطب قلب ابن سراج من جهة، فمن جهة أخرى كانت فكرة الجمع بين دم المضطهدين ودم المضطهدين تثير فيه الرعب. كان يعتقد أنه يرى ظل جده يخرج من القبر ليلومه على هذا التحالف... فصرخ ابن ـ حامت وقد مزقه الألم: «آه هل يجب أن ألتقي هنا بمثل هذا العدد من النفوس العالية ومن الأخلاق الكريمة لكي يزداد حدّة شعوري بما أفقد! فلتنطق بلانكا، ولتقل ماذا علي أن أفعل لكي أكون جديراً بحبها أكثر!».

فصرخت بلانكا: «إرجع إلى الصحراء. ثم أغمي عليها».

انحنى ابن ـ حامت، وعبد بلانكا أكثر من السماء، وخرج دون أن يتفوه بكلمة. وفي الليلة نفسها ذهب إلى ملقة Malagua على ظهر سفينة كانت متجهة إلى وهران. ووجد قرب هذه المدينة القافلة التي تخرج كل ثلاث سنوات من مراكش وتجتاز أفريقيا ثم تذهب إلى مصر وتلتحق في اليمن بقافلة مكة. وقد وقع إبن ـ حامت نفسه في عداد الحجاج.

وفي البداية أحاق الخطر بحياة بلانكا، ثم ما لبثت أن عادت إلى الحياة. أما لوتريك فقد وفى بالعهد الذي أعطاه لابن سراج فابتعد ولم تصدر منه أي كلمة عن حبه أو ألمه من شأنها أن تزعج كآبة إبنة دوك دي سانتا ـ فيه.

وكانت بلانكا كل سنة تذهب لتهيم على جبال ملقة في الوقت الذي كان حبيبها في الماضي اعتاد أن يرجع فيه من أفريقيا. كانت تجلس على الصخور وتنظر إلى البحر وإلى السفن البعيدة ثم ترجع إلى غرناطة. وقد أمضت بقية أيامها بين أنقاض الحمراء. لم تكن لتشكو ولم تكن تبكي على الإطلاق، كما أنها لم تكن تتكلم قط عن الشاب العربي وكان من لا يعرفها يحسبها سعيدة. وقد بقيت هي الوحيدة من عائلتها. فقد مات والدها من الحزن كما أن دون كارلوس قتل في مبارزة سانده فيها لوتريك. ولم يعرف أحد البتة ماذا كان مصير إبن ـ حامت.

عندما يخرج المرء من تونس عبر الباب الذي يؤدي إلى أنقاض قرطاجة، يشاهد مقبرة. فيّ زاوية من هذه المقبرة، وتحت شجرة نخيل، أشاروا لي إلى قبر يدعى «قبر آخر أبناء سراج». ولا يظهر هذا القبر أي شيء بارز، وحجره هو قطعة واحدة. ولكن حسب عادة من عادات المور، فقد حفروا في جوف الحجر تجويفاً خفيفاً مثل كأس. وماء المطر يتجمع في أعماق هذه الكأس المأتمية التي تتحول، في الطقس الحار، إلى واحة تطفىء عطش عصفور السماء.

فهرس

منشورات عويدات ٨٧١ / ١٩٨٨

Chateaubriand
Atala. René.
Le Dernier Abencerage
Préface de Pierre Moreau

Traduction arabe de Latif AGHA
Revue par Henri ZOGHAIB

MARIANNE / OUEIDAT
Beyrouth

Chateaubriand

Atala. René. Le Dernier Abencerage

